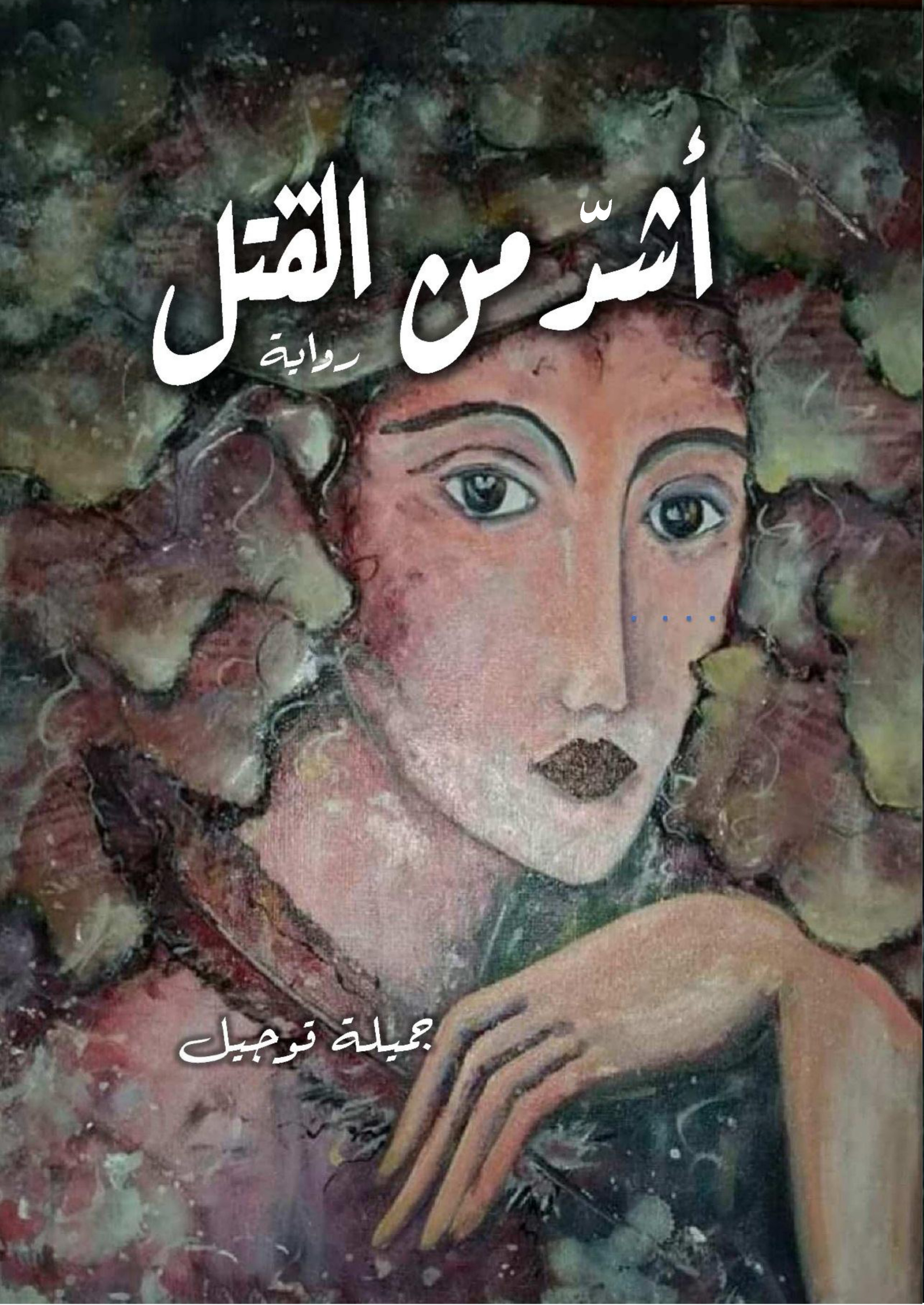
أشدّ من القتل

رواية



جميلة قوجيل

أشرّ من القتل

رواية

جميلة قوجيل

لوحة الغلاف للفنان طاهر حاج عتو

Editions LOUMI
Tel: 0770 88 14 50
الجزائر - أكتوبر 2020
ISBN: 978-9931-760-64-1

إهداء

إلى أمّي ...
إلى بُرنُسٍ دثّرني في حالك الليالي
إلى فاطمة ترفل في أثوابها البيض
لقيانا هناك ...

توضيح:

إذا كنت تبحث عن تسلية، فأعد الكتاب إلى مكانه، لأنّي سأخيّب أملك، فلتعذرني...

لكن لتعلم أنّ دافعي للكتابة هو الحبّ والحبّ وحده...

فاتحة

سنوات بعد ولادتي، شعرت أنّ أحدا زجّ بي في زجاجة، وحينما خنقني هواؤها حاولت الخروج، لكنّي علقت بعنقها...

فمنذ أمد لا أبرحِ مكاني، لا أنا بالميّتة ولا الحيّة، فقط أغيّر زاوية النّظر.

الصّرخة

أيمكن للوحةٍ أن ترسم مسار حياة؟

1- أرى للحرف وجها، ونظرة وابتسامة، وشموخا وقلقا، أيعقل ما بَصُرتُ به؟! هذه لوحة حائرة قلقة، وتلك مستجيرة بنجم في ليلٍ حالك لا يكتنفه فجر. وهذه على وجهها بشاشة ودفء في ألوان حارّة تقفز إلى واحة الصّدر لتعمّره.

نملك دائما طاقة كبيرة في بداية الرحلة الاستثنائيّة نحو الحياة، ونبدأ بخطوات واثقة، أو لنَقُل غير واعية بأنّنا قد نصل إلى طريق مسدود، يحتّم علينا الرّجعة كعابر سبيل شهد ببصره احتراق بيته، فقرّر أن يهيم ما تبقّى من عمره، ويقيم على حواف بيوت الآخرين يرمّم انكساراته.

من السّخافة مَنطقة مشاعرنا وإخضاعها للمواعيد المحدّدة بالسّاعات والدقائق والأيّام. المشاعر اللاّفحة هي التي يصنعها خرق المنطق وسحر المفاجأة. أمّا ما كان مقيّدا بميعاد، فلا شكّ أنّ كثيرا من حرارته ستفتر، وإن حدث في أبهى صوره الممكنة.

الصدفة الجميلة وحدها تضعك باستمرار أمام ذهول يختصر العمر، وتحتاج إلى آخر ليعاد بالإيقاع نفسه. لم تكن صدفة، بل قدرا على جانب كبير من القصد فيما يفعل، يجمع ويفرّق لغرض لا نعرفه إلاّ فيما بعد، وقد لا نطّلع عليه أبدا.

هو القدر ذاته الذي جعلني أتوغّل في داخلك بعفوية امرأة لم تجرّب الحبّ إلاّ على صفحات القصص والروايات. عفوية الأطفال وطيبتهم الممزوجة بالشغب تقودهم في معظم الأحيان إلى عواقب لا

حصر لها. العفوية نفسها قادتني إلى زوايا فيك متعسّرة على غيري. وبينما كنت أحاورك على مخدّتي الليليّة أدركت للمرّة الأولى جمال أن نعثر على شبيهنا، وننشئ معا حوارا صامتا شخوصه الأعين والملامح.

توغّلت في داخلك، وافتخرت بشجاعة امرأة تدخل منطقة مشتعلة دون أن تحتاج إلى ضمّادات. اعتقدت أنّي خرجت من رحلة الاكتشاف سالمة، ولكنّي سرعان ما حملت كلّ تفاهاتي، ووضعتها في حقيبة مشمّعة، وأوصدت الباب معلنة حالة الطوارئ، بعد أن تأكّدت أنّي دخلت دوّامة لا أدري متى تنتهي...

ألم أكن على دراية بأعراض المحبّين؟

بلى، ولكنّي كنت مزهوّة بامرأة تتفانى في نحت أدقّ التّفاصيل لفارس أحلامها، وتعتقد أنّ من ستحبّه لمّا تنجبه امرأة. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، أن عثرت على الفارس مجهِزا على كلّ منافسيه. ودخلت في متاهة جميلة، لم أدر متى بدأت بالضّبط، ولكنّي صرت على يقين أنّها ستستمر ما بقي لي رمق في الحياة.

ما ادّخرت أيّ طاقة في ممارسة جنون العشق على نفسي. تركت عادتي النّوم والاستيقاظ، وضممت السّاعات إلى بعضها حتّى أحاور دهشتي المندفعة كطوفان، وأتشرّبها كإسفنجة، فلا تفضحني. كانت ترتديني كمعطف شتويّ، وتقفل جميع الأزرار بعد أن تلقي عليّ القبض.

هل الدّهشة هي البدايات الأولى للحبّ ؟!...

ما حدث لي فيما بعد كان شبيها بحياة النّبتة التي تسمق بساقها مع كلّ إطلالة شمس إلى أن تزهر. ربّما لهذا السّبب وحده شعرت أنّ قامتي تطول كالأشجار والجبال كلّما تدحرجت على وجهك ابتسامة، وتتقزّم وينهار العالم من حولي إذا ما تكدّر بحرك.

كان هنا آخر يوم لنا... شهر فبراير، ذات اثنين... بين زخّات مطر باردة. كنت صموتا وكنت مهذارة... قضيْتَ الأيام الأخيرة التي جمعتنا في التّأمّل وأضعتُها في الثّرثرة. زرتَ كلّ المناطق التي تستهويك، وودّعت الأزقة الطّويلة كعمر، ونوارس البحر. أكثرت من الجلوس على الشّاطئ، تداعب بياض الورقة بريشتك بعد أن تمتلئ باللّون الأزرق، وتدخل تلك المنطقة المجهولة بين السّماء والبحر، وتكتشف سرّ تدرّج الألوان، ولا تعود إلاّ بلوحة تكدّسها في مرسمك.

لا أدري لم كنت لا ترغب في إعلان موهبتك في الرّسم أمام الملأ مثلما تفعل مع الكتابة، رغم أنّ الكتابة تستثير الآخرين وتجلب لك مشاكل لا حصر لها أكثر من الرّيشة، أم أنّك رجل مسكون بالمخاطرة حتّى النّخاع كأبطال القصص والملاحم، ونسيت أنّك من لحم ودم، ولست من كائنات الحبر.

الأشياء الجميلة تتسلّق دائما حائط الحدود لتقفز إلى الضفّة الأخرى، والحبّ إفراط لا اعتدال. تجاوز، انحراف عن العادة وامتهان لما بعد الجنون. كانت هذه كلماتك الأولى والأخيرة، ولم أجد منك بعدها سوى الصّمت. لم تترك أثرا وراءك... مشيت على رؤوس

رؤوس الأصابع، ولم تستطع فراسة أعرابي أن تقتفي أثرك، ووشوشت إلى معطفك العسليّ كطفل.

صموت كقمر ليلة صحوٍ.

أكان الصّمت ضفّتك الأخرى ؟!...

مذ عرفتُك تهت في سراديب حيرة تشمخ في كلّ لحظة، وفي تفسير لغة سرياليّة، ووضعت شروحا على الشّروح، وحواشيَ على الحواشي إلى أن شكّلت ركاما، غير أنّ الأسئلة لم تدعني وشأني، بل ازدادت ضخامة وإلحاحا، ومعها ازددت ثرثرة. كنّا على ضفّتين مختلفتين، وربّما لهذا السّبب لم أستوعب طريقتك في الحياة. تعلّمت فيما بعد أن أتجاوز مسار البشريّة الطّويل، وأقطع دابر الحديث، وأعود إلى نقطة الصّفر... إلى السّكون، حتّى أتمكّن من استيعابك.

لم يكن الصمت أبدا عائقا بيننا...

حملتَ الكثير من ميوعة الزّئبق، وبين الصّعود والنّزول احترقتُ، وطبعا متأصّلا في الذات على ممارسة الصّمت المبرقع بشيء من البهجة، وآخر من الحزن في ريعانهما. توحّدت ملامحك بين الاثنين دون أن تظهر أيّة علامة انشقاق. وكنتَ لا تنطق كالآخرين، وهذا ما احتجت إليه. رجل يعفيني من ثرثرة النّساء والرّجال، ويحجز لي مكانا في قصر الشّمع الإنجليزي بين بياض الدانتيل، وأكتفي بوقوفك لي مدى الحياة وابتسامتك الأبديّة المخضّبة بالحناء العربيّة.

ذات صباح، عندما علمت بممارستك للرّسم، وكنت أعشقه كمراهقة، سألتك عن الشّكل الذي لم تستطع أن تحويه ريشتك ويعاندك. قلت:

- شكل للسّعادة عندما ترسمه ريشة تتوق لأن تتفلّت من مكدّرات الحياة لتسكن غيمة...

تفوّهت بهذه الجملة في كآبة وانسحبت... في صباح اليوم الموالي، جمعنا مقرّ العمل من جديد. حينها فقط تذكّرتَ أنّه من اللّباقة أن لا تقطع الحديث بتلك الطريقة وتنصرف، كنت لا تعبأ ببروتوكولات التّعامل، وواصلتَ الحديث القصير الذي بدأناه أمس. لم يكن قد انقطع في ذهني... ولا في ذهنك. عندما نعجب بشخص نحتفظ بكلّ تفاصيل كلامه في دواخلنا.

- أيستهويك منظر بعينه وترغبين في الاحتفاظ به في لوحة؟

- تدهشني السّيّدة الإنجليزية ماري غروسولتز التي صنعت بالشّمع أميرة بحجمها الحقيقيّ في ثوب زفافها، وبعض المدعوين. ولمّا كان أمر زيارة القصر الانجليزيّ مستحيلا قصصتُ الحلم وتركتُ أكمامه، وسأرضى بصورة له أو رسم.

لا أدري لم أجبتك بتلك الصّراحة، رغم أنّه ليس من عادتي أن ألفظ ما بنفسي منذ الأحاديث الأولى لأيّ شخص. ربّما لأنّك داهمتني بسؤالك. كنت تجيد المداهمة كلاعب هجوم.

بعد مدّة كشفت لي عن لوحة. ذهلت وأنا أرى نفسي، بأدقّ تفاصيلي، بثوب أبيض ضمن ديكور قصر انجليزيّ. لقد حقّقت

أكمام الحلم، لكنّك غيّرت الصّورة الحقيقيّة. كان الوجه لي، وأمامي انحنى رجل له ملامحك. أين المدعوون، ولم ملامحنا نحن بالذّات ومعا؟؟ استطال ذهولي ومعه قدر من الخجل بعد أن تعرّفت على ملامحك في الصّورة، لكنّي امتصصتهما وركنت إلى الصّمت.

- هي لك...

عدت إلى منزلي على غير الحالة التي غادرته فيها صباحا، وهربت إلى غرفتي كطفل يخفي حلوى لذيذة عن الأنظار. إنّ الرؤية لديه تقترن بالسّلب. خشيت أن يسلبني شخص ما الحلم. الواقع أنّي لم أفكّر كثيرا في سيّدة الشّمع واللّوحة، بل انصرفت إلى التّفكير بك، في غرابتك، وصمتك، في نمط تواصلك مع الآخرين، في اختفائك وظهورك بتلك الطريقة. كنت كطيفٍ يظهر لحظة ليجعلنا نشتغل به اللّيل كلّه.

طالت دهشتي إلى أن طرقتَ الباب يوما، في نهاية الأسبوع، أذكر بالضبط أنّه كان ذات جمعة. كنتَ برفقة رجل يكبرك سنّا، بدا لي والدَك، أسمر البشرة، طويل الجسم، نحيفه، وامرأةٍ في الخمسين من العمر، مكتنزة، قصيرة القامة، تغطّي وجهها عدا عينيها كعادة النّساء المتزوّجات في أعرافنا.

فتحت الباب فإذا بي قبالة امرأة لا أعرفها، مغطّاة الوجه. أثارت للوهلة الأولى الرّيبة في نفسي، فذهبت بي الظّنون كلّ مذهب، وهممت بإقفاله إلى أن ظهرت بقامتك الفارعة، وابتسامتك الهادئة، وخاطبتني:

- هذا عمّي، وهذه زوجه، أرادا التّعرّف إليك، وإلى والدتك.

ازدادت دهشتي، ولكنّي ركنت إلى الصّمت أتساءل عن طريقتك في التّعامل معي، ولم لم تخبرني بقدومك في مقرّ العمل. كنت رجل المفاجآت... حاولتُ إخفاء دهشتي، ثمّ بادرتُ إلى القول:

- تفضّلوا على الرّحب والسّعة.

كانت المرأة الخمسينيّة تجسّ نبضي بعينيها الجاحظتين الدّعجاوين، وتتفرّس ملامح وجهي، وتفاصيل جسمي على ذاك الثّوب البيتيّ البسيط الذي كنت أرتديه. لو علمت بموعد الزّيارة لارتديت أفضل ما لديّ. لعلّك قصدت إلى المفاجأة حتّى تراني الخاطبة على حقيقتي دون زيف أو زينة.

- جيناكم بالحسب والنسب نريد خطبة ابنتكم لابن أخي...

تسارعت دقّات قلبي وأنا أسمع طلبها من خلف باب غرفة الاستقبال، وذهلت أمام طريقتك في اختصار المسافات وعدم الاكتراث بالأعراف والبروتوكولات. وكبرت الدّهشة في نفسي وخرقت أوردتي وشراييني. وكنت كلّ يوم تذهلني بطريقتك في احتواء الآخرين.

وذات يوم أفقت على ذهول آخر في جانب منك لم أطّلع عليه قبلا. أذهلتني أصابعك التي لم تكن تجيد فقط مزج الألوان، بل تبدع في رسم الحروف وخطّها. اكتشفت يومها لأوّل مرّة أنا وصبيحة ونحن في مكتب الجريدة حروفك بخطّ مغربي بديع نفضت عنه الغبار ليعانق خطّ النّسخ الذي لا أملك نفسي أمام سحره. قلتَ لنا يومها:

- الخطّ عباءتي وكسائي الذي يمتدّ إلى طفولتي، ويتصلّ بأبي رحمه الله الذي أخذت عنه الدّرس الأوّل في الصّبر على إتقان الحرف. الخطّ بساط ينقلني إلى الجامع حيث تلقّنت الأبجديات الأولى على يد شيخي، وفي مرونة الخطّ المغربيّ وجرأته عبق المكان بين شعاب وحقب توالت، لا يجب أن تُترك لطيّ الزمان.

- من أين لك بهذا الخطّ الجميل؟

سألك زوج صبيحة الذي اعتدنا حضوره كلّ مساء لاصطحابها إلى البيت.

- ورثت الخطّ عن والدي رغم أنّ مستواه لم يتجاوز الابتدائيّ. كان كلّ أهل الحيّ يلجؤون إلى قلمه لنقل أشواقهم إلى أهاليهم المغتربين في رسائل تزيّنها أنامله، وهو من يملأ وثائقهم الإداريّة، وقد حفظت عنه عن ظهر غيب ما لقّنه شيخه: "الخطّ الجميل يزيد الحقّ وضوحا". ولمّا كبرت كبر معي إعجابي بهذا القول الذي وجد في نفسي هوى وموافقة، حيث كانت لي رغبة منذ صغري في أن أكون صحفيّا للدّفاع عن المظلومين والصّدح بالحقيقة.

أرى للحرف وجها، ونظرة وابتسامة، وشموخا وقلقا، أيعقل ما بَصُرتُ به؟ هذه لوحة حائرة قلقة، وتلك مستجيرة بنجم في ليل حالك لا يكتنفه فجر، وهذه على وجهها بشاشة ودفء في ألوان حارّة تقفز إلى واحة الصّدر لتعمّره... بصُرت بذلك في لوحاتك التي أطلعتني عليها، وظننت الحرف قبلاً مادّة صمّاء لا تدبّ فيها الحياة إلاّ عندما يعانق بعضها بعضا لتشكّل كلمة أو عبارة.

- أتعلمين أنّي أخط بيمناي ويسراي معا؟

حدجت في لحظات كلا يديه وتفرّستهما كأنّما أجد في حركاتهما وسكناتهما إجابة أكيدةً، لكن دون جدوى:

- لا لم أنتبه...

حدّثني حينها في كلام طويل جمعنا:

- أنا في الواقع أعسر، والخط خرج عمّا جُبلت عليه، ولذلك قصّة تعود بي إلى أستاذي في الخطّ الذي نهاني عن ذلك، وروى لي عن بَرَكة اليد اليمنى. غيّر مجرى حياتي، وتتلمذتُ مرّة ثانيّة على يديه، وأنا في العشرين من عمري، أعيد إليها حياتها، وأراها تولد من جديد. وإذا بي أخرج من هذه التّجربة بيدين تجيدان معا رسم الحياة، فكانت تعاريج الحياة تنثال عليّ عن اليمين وعن الشّمال جنّتين ذواتي أفنان. اختبرت ذلك عند تعرّضي لكسر في يسراي دام عدّة أشهر.

استمعت إليك وأنت تواصل حديثك وشغفٌ شديد لمعرفة بدايتك مع الحرف تتملّكني، وأنت تعمّق شعوري بشبهنا وتزيد تورّطي الجميل:

- أذكر تشجيع أستاذي لي وأنا أعود إلى رسم الحروف بيميني كمبتدئ، يروي لي صبر وعزيمة ابن مُقلة الخطّاط العربيّ بعد أن قطع الخليفة يده. ويدُ الخطّاط حياته ورأس ماله، ولكنّ علوّ همّته جعله يعود إلى الصّفر ويتمرن بيده اليسرى. علينا أن نغيّر حياتنا، لأنّنا لن نُوهب حياة أخرى ولن نُولد من جديد، بل علينا

أن نصنع ولادتنا من داخلنا، فالمعركة الحقيقية مع ذواتنا. كان يناديني بعد أن عدت إلى يميني وأجدْتُ بها بابن مقلة الجزائر.

رحتُ أزفّ فرحي ودهشتي لصبيحة وأنا أروي لها أحاديثنا التي لا تنقطع في نفسي، في زيارة لبيتها بحماس شديد لم أستطع كتمه، وفاض صدري في حديث مشبوبٍ عنك:

- أهديته في ذلك الأسبوع الذي علمت فيه قصّته مع الحرف طقم كتابةٍ للخطّ في علبة أنيقة من خشب، بها قلم، وخرطوشة حبر، وأربعة رؤوس متفاوتة رفعة وغلظة. وفي الصّباح أهداني لوحة كتب عليها بخط منساب:

" تبارك الله أحسن الخالقين"

سكنتني حروفه، وازددت دهشة وتورّطا جميلا أحببته وملك عليّ جوارحي، سألته عن نوع الخطّ بعد أن شغفني التّشكيل الذي يزيّن فراغ اللّوحة:

- هو خطّ الثلث الذي لا يسمّى الخطّاط خطّاطا ما لم يتقنه.

هي على جدار صالة الاستقبال تروي قصّتنا، وإلى جانبها لوحة سيّدة الشّمع تؤرّخان لأجمل خطواتنا معا، أسمع وقعها وأراه كلّما دخلت الصّالة، ينفخ في نفسي حياة، ويمدّ في هامتي، ويضيء دواخلي، وتنبت لي على إثره أجنحة، وتضعني على بساط هو مارده يجوب بي الدّنيا.

- على رسلك... خذينا معك، قالت صبيحة ضاحكة، ورمتني بالوسادة.

2- أيمكنني أن أرسم لوحة أخرى غير اللّوحة الأصل التي أنا عليها، لتكون هي الأصل، البداية، لحظة الولادة، الوجود الذي أريد، لوحة الانعتاق؟

دخلت صبيحة ذات يوم شديد الحرارة مقرّ الجريدة مفزوعة، لاهثة الكلمات، وخاطبتنا بألفاظ قليلة بلع الخوف أكثرها، في صورة لم أرها عليها من قبل:

- قنبلة بمطار هواري بومدين خلّفت قتلى وجرحى.

تبادلنا نظرات الفزع، وسرعان ما سرت العدوى بيننا. ولم تنته الدّقيقة حتّى دخل السيّد الشايب وطلب منّا الإسراع إلى المكان لتغطيّة الحدث.

في طريقنا إلى المطار كنّا نستمع إلى بثّ إذاعة الجزائريّة الثالثة التي قطعت برامجها المعتادة بعد السّاعة الثّانية عشر لتعلن عن انفجار عنيف هزّ قبل قليل المطار الدّوليّ... كانت نفسي تهتزّ إثر كلّ إعادة لإذاعة الحادثة.

تساءلنا جميعا على لسان صبيحة:

- ترى كم عدد القتلى والجرحى الحقيقيين؟

قصدنا المكان أنا وياسين وصبيحة ومصوّران آخران. الهلع على الوجوه يستقبلنا عند مدخل المبنى، وحالة استنفار قصوى صعّبت الدّخول إلى قاعة الانتظار التي كانت مركز الانفجار، لولا آلات التّصوير التي كانت تصحبنا.

هرع رجال ونساء من مسافرين وأهاليهم الذين كانوا أمام المبنى لمّا استأمنوا المكان ليروا ما خلّفه بالقاعة بوجوه مرعوبة ومستنكرة. انهار جزء من المبنى، وما زالت بقايا غبار تصعّد على هوّة مرعبة. رائحة اللّحم الآدميّ المشويّ، بل البالغ حدّ الاحتراق تستقبلني، التّوابيت تحيط بي، ورأسي وقد انفجر متناثرا أشلاء داخل إحداها يشعرني بالغثيان.

عشرات من الحقائب مجتمعة فيما يُفترض أن يكون بهوا للصّالة الرئيسيّة، تعلوها طبقة كثيفة من الغبار نقلتها عدسات المصوّرين. أشلاءُ قتلى اختلطت ببقايا إسمنتيّة. جرحى في إصابات خطيرة يئنّون، بدأ للتوّ وصول سيّارات الإسعاف لتنقلهم إلى المستشفيات. ثقب كبير أعلى السّقف ينزف، هوّة مكشوفة على السّماء. سقف المطار خرّ، وكُسر الزّجاج المحيط به، كأنّما تساقط عليهم كسف من السّماء. ما تبقّى من الصّالة إلاّ بعض أعمدة مازالت تقف على شفا الانهيار شاهدة ترتجف لفظاعة قتل الإنسان لأخيه، وأخذه له على حين غرّة، وأضرار جسيمة نالت من المحلاّت التّجاريّة المحليّة والأجنبيّة. الدّم على الأرضيّة قد لوّن أجزاء منها...

أهالي المسافرين الذي كانوا بانتظارهم تعلوهم شهقات وصراخ، ووجوههم تائهة يبحثون عن ذويهم. والشّرطة ورجال الحماية المدنيّة يحيطون بالمكان الذي صار خرابا. على طاقمنا تصوير هذا الرّكام من قطع الإسمنت والأعضاء البشريّة، ونقل شهادات المسافرين الذين كانوا بالخارج. لا أحد من عمّال المطار ولا المسؤولين عن

التّذاكر ومتفقّدي الجوازات في أماكنهم. المطار قاع صفصف من عمّاله إلاّ من قتلى وجرحى.

حالةٌ مرعبة من الفوضى والأعضاء المتناثرة، وشعور فظيع بالدّوار يُحكم قبضه عليّ، تلحظه صبيحة فتطلب منّي أن أبقى في الخارج، لكنّي أرفض. رغبة ملحّة في أن أقعو أرضا لأبكي وطنا، أقاومها وأنا أبحث عن رفاة، عن آثار وجه أو حياة تلتقطها آلة التّصوير. فلا أجد غير أشلاء مبعثرة، ويد همجيّة لم تمهل أشواقهم حتّى تُشبَع، ولم يعبأ بها، ولا بأحلامهم التي رغبوا في تهريبها إلى أرض غير هذه الأرض.

لا أقدر على البحث وسط الرّكام عن صورة للحدث تكون بؤرته لتقدّم إلى الرّأي العام في الصحافة المكتوبة على عادتي في الزّاوية الاجتماعيّة. يأسرني الدّوار والرّغبة في التّقيّؤ، وأقاوم حاجتي الشّديدة إلى أن أبرك أرضا. يطرح ياسين أسئلة عن المستفيد من الحادث، وما الغرض من انفجار على العتبة الأولى للوطن.

- هو تدويل للقضيّة وإسماع صوت الأزمة للعالم.

قال في حديثه إلى مجموعة من الصحفيين حوّطوا بعض الأمتعة في شبه دائرة بعيدا عنّا بخطوات لطرح أكثر من فكرة، وأجابه آخر من جريدة تكتب باللّسان الفرنسيّ:

- Qui bénéficierait de cette explosion? Et quel est le but de l'internationalisation du problème?

كنت منشغلة بالأشلاء وما ينتظر عوائلهم. لاحظت صبيحة كآبتي فحرصت على ألا تبتعد عنّي. لم يتصوّر العائدون أن يلتقوا بأهاليهم

بعد طول غياب على هذا النّحو. ولا أن يلتقطوهم بعد اغتراب من بين ركام الأحقاد والدّسائس، وأنّ هذا الحقد يتبعهم حتّى المطار، ويكون سبّاقا يستقبل العائدين ليسلّم عليهم. من كان في موضع الحادث صار لحما مشويّا، وتناثرت هويّاتهم بين أشياء القاعة وبقايا الجدران والزّجاج والقطع الحديديّة.

أرقام أخرى باردة للموتى، وأحلام موؤودة، وحياة مسروقة... اغتراب بارد على الأشلاء التي تناثرت هنا وهناك. أتنقّل بينها وتنقل كاميرتي امتزاج اللّحم والدّم وبقايا الإسمنت، تماما كامتزاج الهموم.

في آخر النّهار بعد الانفجار عدت إلى البيت على غير الصّورة التي ذهبت بها، دون أن أستطيع أن أقتني بعض اللّوازم التي طلبتها أمّي، شعرت بشيء يكتم على أنفاسي. ودّعني ياسين وهو يخشى عليّ من الكآبة والفزع اللّذين حلاّ بي، أجبته عند منعطف الشّارع:

- سأكون بخير غدا، فلأوّل مرّة أرى مثل هذا الخراب والحقد. إلى الغد إن كان في العمر بقيّة...

في الغد عدت إلى المكان حاملة كاميرتي. لن يسمح لنا بالمرور إلى القاعة المتفجّرة. سأستعمل بطاقتي الصحفيّة وأخرج آلة التّصوير. لا شيء غير الرّكام، ما من اسم ولا رسم للحياة، عملي اليوم في المستشفيات بين الجرحى، مكاني هناك لآخذ شهاداتهم. دماء كثيرة ووجوه هلعة مصفرّة مبسوطة على الأسرّة الباردة.

ظلّت القناة التلفزيونيّة الرّسميّة الوحيدة في الوطن تبث لمدّة ثلاثة أيام بلا انقطاع أخبار الفاجعة، وبين كلّ إخباريّة وأخرى تحذير

للمواطنين من عبوة ناسفة مندسّة بينهم، أو كيس مشبوهٍ. صور الأجساد المبتورة والأشلاء الباردة عبر صالة المطار الرئيسيّة كبست عليّ، وألبستني ثوب الحداد. صور مفزعة ومروّعة لأطفال ونساء ورجال كان أكثرهم يتأهّبون للسّفر خارج الوطن فارّين، وآخرون يعودون من المنفى إلى أقدارهم.

مرّت الأيّام والشّهور كئيبة بعد هذا الحادث، ولم أعد أشعر بذلك الأمان الذي كان يحيط بي وسط المارين، وفي الطّرقات، وعليه استيقظ، وأنظر إلى أعين النّاس، كأنّما أمرٌ ما في نفسي قد تغيّر واهتزّ، وصارت العبوة النّاسفة تتبعني، وأشعر بقربها منّي تملؤني خوفا وتوجّسا. وبعد مرور سنة تمّ إعدام المتسبّبين في الانفجار بعد محاكمتهم وعرضهم في التلفزة أمام الرّأي العام، ولكنّ الصّحف تساءلت عن هوياتهم ومن دفعهم إلى ذلك، وسالت الأقلام حول الغرض من فعلتهم...

سرت إلى الجريدة مسرعة، تأبّطت حقيبتي، وأمام الصيدليّة توقّفت بعد أن تذكّرت دواء أمّي، وبعض الأوراق الطبيّة التي يجب أن أسوّيها، ثمّ عرّجت إلى مكتبي حيث التقيت صبيحة التي كانت منشغلة بإخراج العدد. وبينما أنا أحضّر صفحتي سمعت جلبة قادمة من المكتب المجاور يعلوها صوت ياسين، ثمّ فتح الباب وغادر رجلان لم أرهما قبلا برفقته. قال عنهما لمّا سألته:

- تعرّفت إليهما في بحر هذا الأسبوع في مقهى الحريّة، وعلمت أنّهما ينشطان في جمعية الصحفيين، ففكّرت في أن أنضمّ إليها.

شعرت بشيء من الارتياب حولهما لم أدر سببه.

- لم يعد الوطن الحضن الدافئ لأبنائه منذ السنوات الخمس الأخيرة بعد انتفاضة الشارع يلتهمهم كوحش، ويدفع بهم إلى الموت بشتّى الطّرق. أريد أن أعدّ موضوعا في هذا الجانب في فئة المثقفين.

قال ياسين منشغل الفكر، ثمّ أردف:

- جسر تليملي لا تزال عالقة به صرخة المرأة التي صدحت بالرفض، وانتفضت بالموت على الأوضاع قبيل انتفاضة الشّارع في أحداث أكتوبر ثمانية وثمانين. حلّقت بجناحيها لترتطم بهشاشة الواقع وزيفه. وقد دوّنت الجرائد حادثة من رمى بنفسه تحت عجلات القطار وهو في أوجّ شبابه.

- إقدامهما على الانتحار رسالة احتجاج قاسيّة.

- هما حادثتان جمّعتهما من قصاصات من الجرائد، ما أزال محتفظا بها. أرادا بالانتحار أن يصنعا حضورا جديدا على السّاحة الثّقافية والصّفحات الأولى في الجرائد، بعد أن لم يستطيعا إبراز حضورهما في الحياة. عدم الخوف من الموت، الذهاب إليه على أقدامهما بعد أن رفضت الحياة احتضانهما، والشّعور بمرارة الإخفاق حبّب إليهما الفناء.

- أكانا في كامل وعيهما؟

- الإفاقة على الخواء الوجودي، على الصّدع بينك وبين الآخر، غياب المأوى، هي دوافع لاختيار الموت.

- خيبات المثقفين تتكرّر عبر التاريخ، فيحفظها في سجّلاته، الحلاج المتصوّف الذي أعدم لعدم فهم نصوصه، أبو حيّان التّوحيدي فيلسوف الأدباء الذي أحرق كتبه بكلتا يديه بعد خيبة أمله، وضنّا بها على من لا يقدّرونها حقّ قدرها، أتتصوّرين خيبته؟ أيّ حالة هستيريّة وأيّ قنوط اعتراه فأقدم على هذه الفعلة؟ هي أسوء من الانتحار الجسدي. أبو العلاء المعري الذي دفن مؤلّفاته تحت الأرض. أزمات الإنسان المثقف عبر التاريخ في الحضارتين: فان خوخ دون أذنه اليسرى وغارقا في دمه، أرنست هنمغواي الذي قال وداعا للسلاح فالحياة تستحقّ أن نعيشها انتحر بطلقات من مسدسه. هذا ما خلّفته الحساسية المفرطة عند الإنسان المثقف المبدع شاعرا أو كاتبا أو رساما.

يستدعي الأمر في القرن العشرين فقط إعدادَ مسح كليّ أكيد أنّه سيسفر عن أرقام تتجاوز المئات عند المثقفين والمبدعين في العالم، وللمثقفين العرب نصيب منه سنذهل أمامه.

- هل الانتحار حالة وعي للوقوف أمام الموت بهذه القوّة؟ أترانا نتصوّر تلك اللّحظات السّابقة للموت الاختياري؟ أتعقبها لحظات ندم بعد أن يُسحب طريق العودة من بين أقدامهم؟ أم أنّه الإصرار على المغادرة من مشهد الحياة إلى آخر لحظة؟

- أهي قوّة؟ أراها ضعفا، فالحياة هبة جميلة تحتاج شجاعة ومقاومة لنعيشها كما نريد أو كما يجب، ونرضى بكلّ ألوانها.

- وعندما نعجز؟

- نلجأ لمن نحبّ ليأخذ بأيدينا وينتشلنا.
- أترين أنّ هؤلاء الفارّين نحو الموت الاختياري، نحو أقدارهم وجدوا أحبّتهم؟ وجدوا من يملأ بحضورهم ذلك الخواء أو جزءا منه.
- مشكلة المثقّف هي العزلة، فهو يعيش أفكاره في مخيّلته، ولا يشاركها أحدا. عليه أن يجدد ثقته بنفسه وبما وُجد لأجله، ويتصالح مع الآخر. كما أنّه لا وجود لمنطقة وسطى في عرفه وقاموسه، له حساسيّة مفرطة حتّى إزاء الزّمن، قلق وجودي، أكون أو لا أكون. حرارة اللّحظة، دفؤها، عنف استلال الحياة، البحث عن بديل، ولو بممارسة هذا العنف على الذات.
- لعلّهم يرون في الموت راحة.
- هل للمبدعين الحقيقيّين فزع من الفراغ، من الخواء؟ أم هم من يملؤون الأنفس إصرارا ويصنعون فينا إرادة الحياة؟
- هي لحظة ضعف يكون الصّدر فيها خاويا ويائسا... إرنست همنغواي انتحر لأنّه لم يستطع الكتابة، هو من قال على لسان الشّيخ إنّه قد يموت في عرض البحر، ولكنّه لن يهزم ولن يقهر. الكتابة جوهر وجوده، لحظة التّجليّ الخالد، صنع الكينونة التي لا تزول، وبزوالها وانطفاء شعلتها لم يجد بدّا من مغادرة هذا العالم.
- أتعلمين الوصيّة التي وُجدت في مذكّرات المنتحرة من جسر تليملي؟
- ...

صمتُّ، وعلى وجهي علامة استفهام كبيرة تمطّطت عندما رأيت على سحنته حسرة وألما منعاه من الكلام لبرهة من الزّمن:

- طلبت أن لا يُكتب على قبرها اسمها ولا تاريخ ميلادها ولا وفاتها بل هذه العبارة "هنا ترقد امرأة، عشقت ورقة، وماتت غرقا داخل محبرة. رحم الله القائل: هذا ما جناه عليّ أبي وما جنيت على أحد".
- تحدّثت بعض المقالات في الصّحف عن أزمات نفسية سابقة للانتحار وتناول أدوية ومسكنات.
- أهو الاكتئاب من الوطن؟
- دعنا من حديث الموت والاكتئاب...

أردت أن أنقل دفّة الحديث إلى جانب آخر يحبّه بعد أن لمست مدى تأثّره بقضايا الانتحار:

- أتشتغل على لوحة في هذه الفترة أو تخطّ شيئا؟
- نعم، لكنّها تتأبّى عليّ وتستعصي... أريد لوحة مختلفة، ميلادا جديدا، رسما تنعتق فيه الذات من كلّ منغّص.
- ألا زلت تلهث وراء تلك اللّوحة؟ أنت مهوس بالذات، أيّ ذات، وما جدوى هذه اللّوحة بالنسبة لك، وأيّ ميلاد تتحدّث عنه في لوحة؟
- أيمكنني أن أرسم لوحة أخرى غير اللّوحة الأصل التي أنا عليها، لتكون هي الأصل، لحظة الولادة، هي الوجود الذي أريد، لوحة الانعتاق ولحظته التي لعلّ لأجلها انتحر همنغواي عندما تعذّر عليه الإمساك بها، وعسرت عليه الكتابة وأُفحم، وأحرقَ لأجل فقدانها التّوحيدي مؤلفاته لمّا شعر بالخواء. اللّوحة المآل التي

أبحث عنها بقلمي وألواني وريشتي والتواءات خطوطي، فأنا أُومن أنّ الريشة والقلم مسار حياة.

- الانتحار ثانية، دعنا من هذا الموضوع، وهل للّوحة أن تحدّد مسار حياة؟ أجد ذلك مبالغة منك، وتفلسفا في غير محلّه.

أتوه اللّيل كلّه في تأويل كلامه، وأنشغل بالمعنى الذي يرمي إليه دون جدوى...

3- يومها ارتحل الأمل إلى ساحة خلف قرص الشّمس، ولامست حدقة الحزن، فتقلّص جسدي ومعه اللّون الأزرق، وعشت كسنونوّة بين الغضار والقشّ في العتمة.

بعد أيّام أهداني لوحة كالعادة، قال إنّه اشتغل عليها أربعة أشهر كاملة شكّلت هاجسه... هي اللّوحة الرابعة بيننا. لم نكن كأيّ خطيبين الورود الحمراء والصفراء، وأساور الفضّة والأقراط القصيرة والطويلة وقنينات العطر، والفساتين المبهرجة لم تدخل قاموس علاقتنا كالريشة والألوان. كان مختلفا واستثنائيّا، وديكتاتورا فيما يختاره من هدايا، ولم أستطع إلاّ أن أذعن أمامها رغم ارتباكي وشعوري بالدّهشة تجاهها.

أزال عنها قطعة القماش الأبيض وكشف عن وجهها... هي لوحة يمتزج فيها الحرف بالرّسم ويكمل أحدهما ما بدأه الآخر في تعانق بديع. ياسين رسّام وخطّاط وكاتب صحفي على قدر من التّميّز، كأنّما أفرغت هذه الفنون والمواهب بين يديه. سألته حينها في استغراب:

- ما اسم هذه اللّوحة الغريبة؟ وجه في رأس لا تظهر ملامحه إلاّ من عينين مستديرتين بلا بؤبؤ على جسد ذابل، وفم مفتوح على حروف كأنّما تذروها الرّياح، في ليل لا نجم فيه، ولا ضوء قمر.
- الصّرخة، صرخة الانعتاق... الولادة بعد مخاض عسير.
- تمخّض الجبل فولد فأرا.... ما هذه اللّوحة الغريبة؟

الفم المفتوح تحيط به الحروف العربية كأنّما يريد أن يقول شيئا ولا ينطق.

- أهذه اللّوحة يا مُقلة الجزائر التي جريت وراءها دهرا؟

تأمّلتها، وتساءلت كعادتي عن غرابتك وصمتك...

وقعت في شباك الخطّ العربي بين يديك...وكانت اللّوحة الغريبة تستثيرني، وتجعلني أتوه في ذلك الوجه الفاغر الفاه، الصارخ، ولا يكاد ينطق أو يبين.

نمت وأنا أتأمّلها وأتأمّل المسار الذي حدّثتني عنه، وأين هو من هذه اللّوحة؟ كان اللّيل في اللّوحة يقفل على المعاني ولا يجود بها لأحد سواك، ويرديني عاجزة أمام غرابتها وغرابتك، ويجعل فهمها وفهمك أمرا مستحيلا...

اتّصلت صبيحة حوالي الثّامنة صباحا، وأنا أهمّ بالخروج لتعلمني بأنّه لا داعي لأن أستقلّ الحافلة، ستحضر لاصطحابي مع زوجها متحججة بالمطر الغزير. بدا لي الأمر غريبا فأنا لم أعتد منها هذا التّصرّف...

قرعت الجرس فأسرعت بالفتح لأخرج، ولكنّها فاجأتني بدخولها وعلى سحنتها قتامة وشيء لم أعرفه أوّل وهلة، وقالت بعد أن دفعت الباب وتأكدّت من غلقه:

- لقد قتل ياسين...

أعقبتْ كلامها ببكاء شديد يائسٍ، ثمّ شهقةٍ أخرجت أمّي من غرفتها تسألني ماذا هناك، ثمّ راحت تطوّقني بذراعيها، لكنّي كنت

كقطعة ثلج... أيمكن أن يقع معي ذلك؟ لا أعرف معنى القتل الذي تصوّرته يطال الآخرين ولا يكمن أن يطال من أحبّ، والأقربين إليّ وبالذات ياسين. نتصوّر أحبتنا بعمر مديد وحياة هانئة، ولا نعتقد أنّ السوء سيصيبهم. بعدها بدأت قطعة الثلج في الذّوبان...

سقطت على شيء كان في العتبة أعتقد أنّه كرسي غيّرت مكانه الأصليّ في الصباح ترك زرقة في رجلي اليسرى ولكنّي لم أشعر بألم الارتطام حينها. واعتلاني دوار جعلني مشدودة إلى الحياة والوعي بمن حولي بخيط رفيع، وتقزّمت الدنيا في عينيّ، ولم أشعر إلاّ وهي تبلّل وجهي، وأمّي على جانب السّرير تنظر إليّ بعينين فزعتين:

- قتل؟ من قتله لم يكن له أعداء، كان طيّبا مع الجميع.
- وُجدت جثّته أمام مبنى لا يبعد كثيرا عن شقته التي يقيم فيها، قرب سيّارة أجرة في أحد الأزقّة الضيّقة، خلف أكياس القمامة. هو الآن في غرفة التشريح.
- عليّ أن أراه... أريد أن أراه للمرّة الأخيرة
- لا يا ابنتي أنت لا تقْوَيْنَ على ذلك
- عليّ أن أراه...

تحوّلت بعد أن استفقت إلى كتلة ناريّة، وأردت أن يخبرني أحدهم أنّ الأمر مجرّد كذبة... وأنّ القتل لا يمكن أن يطال الطيّبين والنّزهاء وأصحاب النوايا الحسنة.

قضيت اللّيلة شريدةَ الرّأسِ المطموس الملامح والجسد الذّابل في اللّوحة والفم الذي لا ينطق، والصّرخة التي أطلقتَها ولم أفهمها

حينها، وجسدك الملقى أرضا مضرّجا بالدّماء. أهْذي وأمّي تمسح وجهي، وصبيحة التي باتت إلى جانبي، وتركت ولديها تلك اللّيلة الطويلة تواسيني بكلمات لم أفهمها، فقد كنت ذاهلة عن كلّ ما حولي. وفي الصّباح جمعت قواي لأراك لآخر مرّة...

غرفة حفظ الجثث، باردة ومقيتة، وحقد يملؤني لأرى ما فعلوه بك.

هرعت لأراك في الغرفة تصحبني أمّي وتواسيني صبيحة بعد أن أوصلنا زوجها، والكلّ يريد أن يمنعني في آخر لحظة من دخولها.

صحبني المسؤول عن حراسة الغرفة إلى المكان وأنا أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى، ودقّات قلبي تتصاعد. أمسك بطرف ثوبي أعضّه حتّى أتمالك نفسي فلا أصرخ. وتهوي حياتي كلّها على الأرضية الباردة والجدران الصّفراء والدّم المراق ورائحة الحقد التي ملأت الغرفة، وأبكي جرح الوطن وضياع سندي، وانطفاء حياتي ودهشتي...

مسجّى عدا قدميه اللّتين تيبّستا بلون أسود صفعني، وفي الأصبع الكبير لليمنى منها عُلّقت لافتة عليها بحبر أزرق اسم، ورقم بارد وتاريخ ظالم للوفاة وللحادث الهمجي: السادس والعشرين من شهر ديسمبر من سنة ثلاث وتسعين. خرم في الصّدغ الأيمن إثر طلقة ناريّة وآثار دماء. عضضت على إبهامي بقوّة حتّى لا أصرخ وأكتم قهري حين رأيت كفّيك بلا أصابع يا ابن مقلة.

أفرّ من القاعة بعد أن ملّئت رعبا، وأتولّى كطفل دون العاشرة إلى حضن أمّي أبكي خراب بيتي، وعمرا سُرق منّي، وأحلاما قطّعت قطعا

ولم يُعبأ بها. تولّيت فرارا، ولم أقدر على أن أبقى في تلك الغرفة ثانية واحدة. وددت لو بلغت أقاصي الدّنيا، ثمّ غرستُ رأسي في التّراب، وأسْبَتُ إلى أجل غير مسمّى، قرونا من الزمن... إلى أن تورق الكروم، وتصدح الطّيّور المكمّمة وتشرق الحياة ثانية...

الأمطار باردة هذا الفصل، وذاك اليوم بالذات... لم اخترت صباحا متدفّقا كشلاّل لتدفن فيه. الأمطار تغسل النّفوس والدّماءَ التي علقت بأرصفة هذه الأرض الحزينة. ودّت السّماء أن تسكب على جثمانك رحمتها. لم تطمئن إلى أيدي البشر القذرين، ورغبت في غسلك آخر مرّة قبل أن تفترش الثرى. قال المشيّعون للجنازة إنّ كفنك ابتلّ، وإنّك أخذت الخير معك إلى القبر. التّراب يذرف على محيّاك، والظّلمة تطبق عليك.

- شعرت يومها أنّي أدفن... فقدت صوابي، وتمنيت لو تحوّلت إلى رجل، فقط ليوم واحد لأقتصّ له من قاتليه، لكن يبدو أنّ القتلة كانوا أكبر من قوّة رجل واحد، كانوا عصابة مدججة بأحقادهم ومطامعهم لا يمكن إيقافها.
- دعيهم لظلمهم، أين يفرّون من دعاء المظلومين والمشرّدين والأرامل واليتامى؟

كانت صبيحة بعد الحادث تجلس بقربي كلّ عشيّة بعد انتهاء مدوامتها في الجريدة لتواسيني وتستمع لهواجسي، وتحاول أن تقلّل من كآبتي دون جدوى... كنت أتحدّث إليك تماما كما كنت أفعل في حياتك وأتجاهلها.

عمر لحظات الفرحِ في هذا الوطن أقصر من عمر الفراشة. يومها ارتحل الأمل إلى ساحة خلف قرص الشّمس، ولامست حدقة الحزن، فتقلّص جسدي ومعه اللّون الأزرق، وعشت كسنونوّة بين الغضار والقشّ في العتمة... انتابني فيما تلته من أيّام حنين إلى بسمة طفل لتسكنني، إلى لعبة الغميضى في الحيّ مع صبيان أشقياء، إلى حكايات أمّي التي تختصر الأزمنة والأمكنة، وتمحو من جغرافيتها ما يعكّر الصّفو. اشتقت إلى لحظة فرحٍ تباغتني...

صورة المآتم أشدّ تشبّثا بالذّاكرة من صور المناسبات السّعيدة، وصورتك بالثّيّاب البيض وحيدا تلتصق بعينيّ. من المحزن أن يمتلئ بيتك بالنّائحات على موتك المستعجل، وعمرك المسروق، وأن ترفع من الأرض على نعش يمسك به الآخرون من الغرباء، ومنه إلى ظلمة القبر، تاركا وراءك كلّ عزيز أمّا وأبا وأختا وأخا... وأنت في كامل برودك ترتدي البياض النّاصع، وتتعطّر بصابون العنبر!

هل البياض هو الصوت الصّارخ والحادّ للموت والانطفاء أم للحياة والتناسل؟ تلك من تناقضات الحياة المتجسّدة في الألوان!

كلّ ذلك محزن... لكنّ الغياب دائما أكثر حضورا وتأثيرا من الحضور ذاته. وكنت ممدّدا منفردا في غرفة حفظ الجثث. أقمت طيلة سنوات مهنتك المستحيلة في الفنادق. والفنادق لمن لم يجرّبها، أو لمن قضى فيها ليلتين أو ثلاثا فقط عالم ساحر جذّاب. أمّا لمن يستلف حتّى يسدّد مستلزمات المبيت فيها، أو يضطرّ إلى الانتقال التّنازليّ بين نجومها بسبب الإفلاس، ويرضى عن طيب خاطر

بالفوارق في الخدمات بينها، لن تشكّل له على الإطلاق سوى ذاكرة مثقلة، لينتهي به المطاف إلى المبيت في حمام رخيص.

من المؤسف أن تترك أهلك يبكونك لتسكن وحشة القبر، ولكنّ الأكثر إيلاما أن لا تجد هؤلاء الباكين من الأهل، وربّما لهذا السّبب امتنعت الخنساء عن الانتحار، واكتفت برثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

قد نتذمّر من الأهل والأقارب، ونصفهم بأبشع ما ينطق به لسان في لحظة غضب، لكنّنا نعرف جدواهم في مثل هذه المناسبات التي لا تكون إلاّ جماعيّة. هكذا أرادت طقوس الفرح والحزن أن لا تكون إلاّ في إطار القبيلة!

وكنتَ وحيدا في مناسبة كالموت... ! الوالدان توفيّا منذ زمن بعدها افترق الشّمل، والوضع الأمنيّ والذّعر من الحواجز المزيّفة بين الولايات منعا الأقارب من البكاء على ضريحك، وأنا زوجك المستقبليّة لا سند لي، أمّ مريضة وأخ نفته الظّروف...غريب حتّى في موتك. ترى كيف شعرت وأنت ممدّد ومغطّى بالبياض في بيت أحد زملاء المهنة؟ أكيد أنّ غربة المكان والأشخاص قتلاك للمرّة الثانية؟

الزّمالة تطردك وتمنعك من الاقتراب من الآخر، تجمّدك وتضع سياجا يحول بينكما. تقتل فيك الحرارة لتشعل برودة العواطف بعيدان مبلّلة وعود ثقاب لا يقوم بوظيفته.

- إنّه مجرّد زميل.

- إنّها مجرّد زميلة.

إنّها إحدى ألفاظ القطيعة مع الآخرين. الزّميل ليس مطالبا بالسّؤال عن حالك، أو تفقّد صحّتك، فقط يلقي عليك التّحيّة صباحا أو مساء إذا أراد، وقد لا يفعل. يراك راشدا، بالغا، واعيا، في كامل عافيتك وأحسن أحوالك، حتّى وأنت تواري دمعة تنفلت من قبضتك. والطّفل في داخل كلّ واحد منّا يلحّ على البحث عن طفولته الضائعة عند الآخرين، ويرفض أن يصير شابّا أو كهلا أو مسنّا.

يحبّ أن نسأله إن أخذ حليبه أم غادر البيت دون فطور، ثمّ نوبّخه على ذلك. إن نام ملء جفنيه أم قضى ليلته في عدّ النّجوم والخيبات. يحبّ أن نجلب له معنا حلوى لذيذة، ونعطيه القسم الأكبر منها، وندعوه لتناول المثلّجات، أو لشرب عصير البرتقال في الخارج، وندفع من جيوبنا. يحبّ أن نختار معه ثيابه من المحلات، ونجامله على طريقة تهندمه وتسريحة شعره، ولا ضرر إن قدّمنا له هديّة عيد ميلاد مع قطعة كبيرة من الحلوى عليها ثلاث أو أربع شموع لا غير.

والزّمالة تقتل كلّ ذلك! أكيد أنّك صعقت وسط الدّيكور الذي صنعته الزّمالة، وبقيت ساكنا صامتا في مأتمك أمام الحضور والغياب، صمت متحكّم في زمام الأمور!

كان الصمت لغتك المدهشة في كلّ الفصول الممطرة والصّحوة، وكما في حياتك انصرفت وتركت العالم في ثرثرة حول طريقة موتك. كنت رجل المكان والزمان والصّفحات الأولى في الجرائد... فمِن

الأشخاص من نلتقي بهم في حياتنا ثمّ يغادروننا، دون أن تكفّ الأسئلة الأبديّة حولهم عن الاندلاع المربك في الذّاكرة المتعبة، كلّما عنّ إلى ذلك سبيل، وكنت ضمن هؤلاء. ومن عادة الأسئلة أن تعاند صاحبها وتعلو عليه، ثمّ تجرفه في متاهاتها إذا لاحظت عجزه، وعلمت أنّ المعنيّ بالأمر مخلوق وُوريَ التراب، فتصير عمليّة استجوابه مستحيلة.

كانت الأسئلة حولك تكبر هاماتها وتحتويني، أشتغل بها ليلي ونهاري، تغزوني، تتلبّسني وتصرفني عن الالتفات إلى الحياة...

كانت صبيحة تجلس إليّ كلّ مساء قرابة الشّهر تواسيني، وفي كلّ مرّة ترى ذهولي وانصرافي عنها قد طال، تحوقل، ثمّ تودعني إلى لقاء الغد...

4- الإقامة في عاصمة الإنسان تستدعي الزهد في الحياة كالعلم الذي يأخذ كلّك ليعطيك جزأه. فككت ضفائر الحزن وزرعت الزّنابق البيض على عتبات المنازل في موسم شتويّ، عابس الملامح، متجهّم القسمات...

كلّ الصّباحات صارت بالرّائحة نفسها والطّعم، حتّى تموضُع السّحب في السّماء لم يعد جذابا كالسّابق. واجهات المحلاّت، الكتب الوطنيّة المعروضة ذات الأوراق الخشنة الحرشاء، مجلّدات التّفسير والفقه والنّحو... ذات النّوعيّة الرّفيعة، كلّها فقدت القدرة على التّحرّش بالمارين، والأصحّ أنّها فقدت الرّغبة هي الأخرى.

لم تعد الحياة راغبة في الحياة، تتثاءب مع كلّ إطلالة شمس بكسل خرافيّ، وتستمر على هذه الحال ملايين اللّحظات، ثمّ لا تستفيق من غيبوبتها إلاّ لتعود إلى أطول منها.

ملصقات تطلب الحذر والحيطة من كيس مشبوه أو حقيبة دُسَّتْ في غفلة وسط حشود النّاس، تصفعك وأنت تمشي، وأنت تفتح شاشة التّلفزة، وأنت تهمّ بركوب أيّ وسيلة نقل، وأنت تبتسم لصديق. فقدان الثّقة صار شعورا عامّا لدى الجميع. التّفتيش، التّعنيف، التّكذيب، التّرحيل... كلّها كلمات جديدة على جرس واحد تغيّبك وتشعرك أنّه لا حول لك ولا قوّة. قيل إنّها مؤقّتة، لكنّها تقبض عليك، وتخنقك منذ أوّل وهلة دون أن تترك لك فرصة

الاعتياد عليها، أو تقبّلها. تُرى لم علينا دائما بلع الأطعمة المتعفّنة بابتسامة عريضة ؟!

ثقافة الإغلاق صارت ظاهرة عامّة هذه الأيّام تحتاج إلى تأريخ: غلق الأفواه، الأبواب، دور النّشر والصحافة، والقائمة لا تزال فاتحة ذراعيها لأيّة إضافة. الأيدي الطّويلة الملطّخة بالدّماء لم تترك شيئا إلاّ وطالته ثمّ حطّمته ببرودة أعصاب، كمن يقتل حشرة ويرميها خارجا، ثمّ ينتفض مزهوّا بنفسه.

صار مقرّ الجريدة أشبه بجحر الأرانب في المدّة الأخيرة. يختبئ فيه الصّحافيون، وفور خروجهم يصطادون الواحد تلو الآخر، خاصّة من له جرأة واقتدار، وباع طويل في هذه المهنة. في هذا الوطن عليك أن تكون مغمورا، تافها وحقيرا، وبلا رأي حتّى تحافظ على حياتك.

يقطع تفكيري طرق خفيف على باب المكتب:

- تفضّل.

يفتح الباب على قامة رشيقة لامرأة ثلاثينيّة ترتدي السّواد، وتضع نظارة شمس موشّاةً بخيوط ذهبيّة اللّون. على أحد كتفيها خصلات شعر فاحم حريريّ، وعلى الآخر حقيبتها الجلديّة الصّغيرة. كان السّواد الممزوج بالأناقة الدّلالة الصّارخة التي استقبلها ذهني فور رؤيتها. بادرتني بالتّحيّة:

- صباح الخير.

اكتفت بإلقاء التّحيّة لتجلس قبالتي على مكتبك في ذلك الاستديو الضّيّق الذي تنبعث منه رائحة جرائد "الحقيقة" المكدّسة

كأرشيف. خمّنت أنّها التي ستأخذ مكانك في العمل. خاطبتني دون أن تنزع نظّارتها، وهي تهمّ بفتح درج مكتبك:

- اسمهان عاملة سابقة في الصّحافة في القسم السيّاسيّ، سأشتغل على رأس هذا القسم بعد وفاة السيّد ياسين رحمه الله.

كانت تتحدّث بثقة مفرطة، وفي كلامها استفزاز شعرت به ولم أدر علّته. وأنا أفكّر فيما دعاني إلى هذا الشّعور يرنّ جرس الهاتف. إنّه المدير يطلبها إلى مكتبه ليزوّدها بالتّعليمات، ولاستكمال ملفّها ثمّ إمضاء العقد. قامت وهي ترفع أرنبة أنفها ممتعضة من المكتب الجديد الذي سيصير محل عملها، ومن مقر الجريدة الذي يبدو كجحر جرذ أو كعلبة سردين. ثلاث غرف شديدة الضيق، يتنفّس عمّالها رائحة الكرتون المعبّأ داخل أشباه الجدران، والرّوائح القادمة من مزبلة عموميّة تقع غير بعيد خلف المقرّ.

ثلاثة من أشباه غرف لا غير مربّعة الشّكل، وفيما يشبه البهو تصادفك قاعة مفتوحة على الدّوام بطلاء أزرق متماهٍ في الانفتاح إلى درجة ميله إلى البياض، كتب في مدخلها ببنط عريض بالخطّ الديواني "الرّجاء بقاء الغرباء في الخارج لضيق المكان "، يحفّها إطار فسيفسائيّ رفيع. بها مكتب للسكرتيرة التي تستقبل المكالمات وتقوم بطبع المقالات على جهاز الكمبيوتر الوحيد على مستوى الجريدة. على يمينها مكتب المدير السيّد الشايب، لوحده انفرد بأثاث جلديّ تفوح منه تلك الرّائحة الحادّة التي تنبئ بجدّة الأشياء. على اليسار مكتب لرؤساء الأقسام الافتراضيّة، وركن منه للأرشيف حيث

تتراكم الجرائد بصفحات متآكلة بفعل الحشرات والفئران التي تعمل عملها ليلا بعد أن تتسلّل من المزبلة العموميّة.

تدخل فيشير لها بيده لتجلس دون أن يرفع عينيه عن الملف الذي يتوفّر على وثائق تخصّها. يستمرّ في التّأكّد من استكماله، بعدها يضع نظارته السّوداء الإطار المخصّصة للقراءة ليرتدي أخرى. كانت بنيّة اللّون، ذات إطار مستطيل متناسب مع طول وجهه ونحافته. يرفع بصره تجاهها يتفحّص أيّ النّساء هي. لاحظ أنّها امرأة تعنى بزينتها إلى حدّ مفرط رغم السّواد الشّحيح الذي يلتصق بها. يتفرّسها بعينين تقاربان السّتّين خريفا من رأسها إلى منتهى قدميها. لم تغب عنها نظراته اللّعوب رغم سنّه، ومكّنتها من تكوين بطاقة تعريف عنه.

يهمّ بالكلام بكثير من الرّسميّة بعد أن يستعيد هيئة المدير:

- تعرفين أنّ جريدتنا "الحقيقة" قد أحرزت نجاحا مقارنة مع الجرائد الأخرى في عرض الأحداث والتّطوّرات الخطيرة التي تمرّ بها البلاد بجرأة في فترة وجيزة، لذلك تعرّض بعض العاملين بها إلى مضايقات وصلت إلى غاية وضع حدّ لحياتهم على وجه الأرض. كانت هذه الضريبة التي دفعها هؤلاء حتّى تصدر "الحقيقة" وتستمر.

واصل حديثه، وهو يشير إلى أعلى الحائط حيث يعلّق إطاران خشبيّان بهما شهادتا ترحّم وعرفان من الجريدة لصحفيين من طاقمها.

- لذا عليك العمل بحذر شديد... وأعلم أنّك حديثة العهد بالقسم السياسي لذا سألقّنك بنفسي ما تحتاجينه.

ابتسمت عن أسنان ثلجيّة يزيدها أحمر الشّفاه نصاعة، كانت فلجاء الثّنيتين ممّا أضفى عليها مزيدا من الجمال وثقة أكبر في النّفس. يأخذ نفسا من غليونه وهو يرمقها بنظراته...

في اليوم الموالي من التحاقها بالعمل ازدادت فتنة بعد أن نزعت عنها السواد. كانت ترتديه حدادا على زوجها المتوفّى. دعاها المدير. صمت هنيهة يرمقها قبل أن يقول:

- أخبرتني أنّك لا تملكين الخبرة في القسم السياسيّ، سأعيّنك مسؤولة تقنيّة عن الأقسام ككلّ... ستباشرين عملك الجديد في الغد.

كان الاستعجال السّمة المميّزة لقراراته، خاصة إذا تعلّق الأمر بامرأة فاتنة. أخبرتني بقراره فور خروجها من مكتبه مزهوّة به. جلست إلى المكتب تستخرج من أدراجه ما رتّبته بالأمس، وتنقل أغراضها إلى مكتب خاصّ بها عن يمين مكتب المدير ملتصق به. ولمّا أنهت أخرجت من حقيبتها مرآتها الدّائريّة الشّكل. أمسكت بها تصلح زينتها، وتعيد تسريح شعرها، ثمّ أعادتها حاملة أغراضها وانصرفت.

انتهت ساعات العمل بالجريدة لهذا اليوم. كان وقع عقاربها على نفسي بطيئا ومتعبا. سآخذ حمّاما ساخنا أعالج به الزّكام الذي أصابني بسبب برودة الجوّ، وإلى حين أن يصير الحمّام دافئا سأتفقّد أمّي المريضة. هي الآن تغطّ في نوم عميق بعد أن هدأت لسعات داء

المفاصل. التّداوي عند طبيب المدينة المختص في العظام لم يأت بأيّة نتيجة. فالبرد الذي نخر أصابع يدها اليمنى ورجليها وهي لا تزال غضّة، والفقر المدقع أثناء حقبة الاستعمار، لم تهزمه عقاقير الطّبيب، ولا أجهزة الكشف في عهد الاستقلال.

روت لي أمّي عن خرافها القليلة قلّة ذات اليد، وهي تسوقها إلى المرعى برجليها الحافيتين المتجمّدتين نتيجة الثّلج المتساقط دون انقطاع. وها هي اليوم تدفع ضريبة الفقر، فيتعذّر عليها في الكثير من المرّات حتّى الوقوف والنّوم.

كان الأطفال في ذلك الزمن على -حدّ قولها- لا يعرفون الثّياب الجديدة إلاّ نادرا، فحتّى في الأعياد تقطع الوالدة ثوبا قديما من أثواب عرسها المعدودة، لتشكّله فستانا لابنتها. وتغيّر مقاس ملابس الزّوج لتتلاءم مع أجسام الفتيان النّحيلة. ويقوم الوالد بصنع نعل من جلد الماعز يتّخذه مداسا.

كان ما يذكي فرحة هؤلاء الأطفال هو الحنّاء، فهي الوحيدة التي يُبسط فيها كلّ البسط، وتُكدّس طبقات فوق الأيدي وعلى الأرجل. وفي الصّباح يصنع اللّون الأحمر بهجة هؤلاء، ولو بنعل نخر وثياب بالية.

يفعل الاستحمام بجسمي شبه المتهشّم فعل السحر. أناول أمّي طعامها وقرصي الدواء، ثمّ أنزوي إلى غرفتي مستلقية على السّرير. يعاودني التّفكير في كيفية موتك، ولا أستطيع أن أركن إلى النّوم الهادئ. أعيش بداخلي صخبا جارحا وشيئا يشبه الحقد. قيل إنّ

أحد الجيران وجد جثّتك ذات صباح من أوّل أيام الأسبوع خلف أكياس القمامة تتخبّط في دمها في أحد الأزقة الضيقة، وعلى بعد متر حامل أوراق أزرق، عرفت الشّرطة أنّه لك عن طريق توقيع باسمك في آخر المقال الذي عنونته بـ "من يقتل من؟!". كان صرختك الأخيرة في سلسلة مقالات أثارت قضايا تهمّ الرّأي العام، وتتساءل عن هذه الأيدي الطويلة. كنت متّجها إلى عملك صباحا، ولم تدر ما ينتظرك، أم تراك كنت تتنبّأ بمثل هذا المصير؟!

لم أستطع أن أتقبّل وفاتك بتلك الطّريقة البشعة المبطّنة بكثير من معاني الاستهزاء بالإنسان. كانت نهاية اليدين المبدعتين أن فصلت أصابعهما عنك ورميت بعيدا، وهي تغرق في الدّماء، وبلغ عدم جدواها درجة أن وضعتا خلف القمامة، أمكانها الطّبيعيّ هناك؟ أتراك تلقيت التّهديد تلو التّهديد حتّى تتوقّف عن الكتابة، ولمّا عاندت مترقّبا ساعة موتك أُهدر دمك كما كان ذات جاهليّة أولى، حيث يهدر رئيس القبيلة دم الشّاقّين لعصا الطّاعة؟

ما حزّ في نفسي أنّك انتهيت بين نفايات الجميع، أنت الذي كتبت عن ساكني هذا الوطن، عن مآسيهم وأحزانهم وأنصفتَهم حتّى من أنفسهم، وخلّصتَهم من أدرانهم بالولوج في دواخلهم. مشيت فوق المنطقة الحساسة فيهم على أطراف الأصابع، ومزجت بين ألوانهم الفاتحة والقاتمة دون قفازين. وطال اعتكافك بلا زاد غير دزينات من الأوراق وعلبة أقلام. قلم الرّصاص بتميّزه اللّوني وحضوره الشاحب في هدوء يحوّل البياض إلى علامات في منظر أو كلمات.

كان قلم الرّصاص الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها أمام الآخرين، وتتخطّى بها الحدود وتدخل الدّيار، وتسكنها أبد الآبدين. كانت الخلوة مسكنك، وبعد شهور غادرت مسكنك المفضّل بلحية كثّة وجسد نحيف وثياب رثّة، وأوراق غير التي قدمت بها. كانت محبّرة وملأى... نسيت إحضار مؤونتك من طعام وشراب وأدوات حلاقة، فالإقامة في عاصمة الإنسان تستدعي الزهد في الحياة كالعلم الذي يأخذ كلّك ليعطيك جزأه. فككت ضفائر الحزن وزرعت الزّنابق البيض على عتبات المنازل في موسم شتويّ، عابس الملامح، متجهّم القسمات...

وفي الأخير انتهيت بين القمامة، بين قشور البطاطا والبصل والحفّاظات ممّا لا يرغب في الاحتفاظ به. أين هؤلاء الذين نقلت جوعهم إلى الرّغيف، إلى إطلالة الشّمس حتّى لا يقضوا حياتهم بأكملها في الظلّ كطحالب بريّة؟! نقلت ذلك إلى الورقة، وإلى صفحات الجرائد، إلى الإنسان في كلّ زمان ومكان... أين هؤلاء ممّا حدث لك؟!

أتذكّر شيخك في الخطّ الذي سمّاك مقلة الجزائر، أتراك كنت تدري بما سيحلّ بك على أيديهم إن لم تتوقّف عن كتاباتك؟ كنت كلّما أصابتني الحيرة أعود إلى لوحاتك أبحث في معانيها وأؤوّل الكلام الذي دار بيننا.

الحقيقة في الوطن توارَى التّراب مع الموتى، ويحرم النّبش عنها بفتوى جماعيّة مجمع عليها، قد عُلّقت على كلّ أسوار المدائن المرتدية ثوب الحداد. نحن سلالة تحترم أفرادها فقط عندما لا

يعودون للمشي فوق الأرض، وتنظّم لهم حفلات تأبينيّة، وتهب الشّوارع والأحياء أسماءهم في أحسن الأحوال.

القتل في الوطن صار الوحيد الذي يفتح باب الخلود أمامك، ويجعل الآخرين يلقون قصائد رثاء يوم جنازتك، وقد كنت في حياتك الرّاثي والمرثيّ.

كثرت في وطني الكلمات التّأبينيّة، وازدهر غرض الرثاء، وأجاد الأطفال والرّضّع الصلاّة على الأموات والمشي في الجنائز، وحَفظَ النّاس عن ظهر قلب الأدعية المتعلّقة بالموت والمقابر والتّعزيات. تكوّنت لديهم ثقافة الموت غدرا، وصارت لها تقاليد عريقة. ترسّخت وشما على الجباه، فما عاد أصحابها يرسمون على ملامحهم طقوسا أخرى. نسوا كيف تزهر الابتسامات على الأهداب، وتتدلّى قطوفها على امتداد القامة.

ملّت الشّمس من الاستيقاظ كلّ يوم على مشهد ميّت يُتّم أولاده، يدلى به في قبو مظلم ثمّ يذرف فوقه التّراب. الشّمس مخلوق نديّ، ناعم وحارّ، لا يحتمل مشاهد الموت والقتل الجماعيّ وصور الدّم وبكاء النّساء. عدم الاحتمال تحوّل عبر تعاقب اللّيل والنّهار إلى شعور بالشّفقة، ثمّ غزت الشّمس عاطفة اشمئزاز من زمن يقتل فيه الأخ أخاه. وأمام عدم قدرتها على التّغيير فضّلت الرّحيل، وأبلغت السّماء والأرض قرار مغادرتها للوطن الجريح جارّة أذيال خيبتها.

بعد رحيل الشّمس توالت الهجرات والخيبات كوابل. سافر معظم من تضرّر وملك ولو وسيلة واحدة للفرار من الموت الزّاحف، ولم

يبق في النّهر إلاّ أحجاره متحمّلة ما طرأ عليه من طوفان دم جارف اندفع ذات يوم مشؤوم ولمّا يتوقّف. لقد صار الوطن شبه خال من أبنائه، فهم إمّا أموات أو فارّون أو مجانين.

الفرار والجنون فسحة -ولو كانت ضيّقة- لممارسة الحريّة. الفارّ يخطّط لمستقبل آخر في بلاد الآخرين، وينقذ ما تبقّى له. والمجنون يتّخذ الحالة غير الواعيّة درعا نفسيّا للتملّص من المسؤوليّة والتبعة نتيجة الخوف الشّديد وعدم القدرة على تقبّل الواقع.

أمّا الميّت بل المقتول غدرا فقد سُرقت إرادته، وأُطفأت شموعه باكرا، ومورست عليه القسوة بكامل معانيها، عندما تختصر في رصاصة أو سكّين يعجّلان استخراج شهادة وفاته.

الفارّ والمجنون بإمكانهما حزم الحقائب وحجز التّذاكر والعودة. أمّا الميّت فقد انقطع رزقه وعمله من الدّنيا، ولا يملك حقّ الالتفات أو الحنين. الموت حقيقة كبرى منذ أن قتل قابيل هابيل، ولكنّه يبقى أقسى الحقائق، ولا يمكن تقبّله أو الاحتياط أمام إغرائه لنا بالبكاء والكآبة.

الفئة الرابعة المتبقّية هي مواطنون من الدّرجة الأخيرة، ما زالوا يملكون قسطا من العقل. هي فئة غير مرغوب فيها، تسخّر كلّ الوسائل لإلحاقها بسابقاتها، لذلك تتأرجح بين الموت أحيانا والجنون أحيانا أخرى. تقف ضدّ التيار وتحلم بغد أفضل، لا تفكّر في الفرار، بل تتصبّب عرقا حتّى توفّر ذلك القسط من العقل للزّمن القادم.

تقتات من صورة بعيدة ينسجها الخيال، وبها تسدّ رمقها، وتحافظ على ما تبقى من عمرها لأجل تحقيقها. هي فئة تفكّر في تعمير الأرض بسلالة متحضّرة ترفض حتّى مشهد الدّم على الركح كي لا تتألّم القلوب المرهفة، وتستبدله بموسيقى حزينة وكلمات يؤدّيها الكورس ثمّ يسدل السّتار:

- المسرح حياة مهذّبة.

هي إحدى كلماتك التي نُقشت في الذّاكرة. المحاورات الطّويلة التي كانت بيننا حول الحياة والثّقافة والكتابة والوطن... أسفرت عن ذهول مارسته سرّا، وكبحت اندفاعه وأنا أرهِف الاستماع إليك، لكنّي كنت أطلق سراحه عندما أختلي بنفسي وأحاورك ثانية وثالثة ورابعة... يتمدّد ذهولي إلى كلّ جارحة من جوارحي، ويرتكز فرعه بداخلي نخلة سامقة، يتجاوز قامتي إلى عنان السماء، يمنعني من التّفكير، ويحجز على حركاتي وسكناتي، ويجفوني النّوم وأنا أستعيد محاوراتنا معا... عن قصّتك مع الخطّ والحرف:

- أوّل خطوطي ورسومي كان على ورق لفّ التّمر الذي كان أبي يستعمله في دكّان بقالته. آخذ واحدا منها وتحت عريش العنب أخطّ قصّة ولعي بالحرف بقلم من قصب أقتلعه من ضفة النّهر، ثمّ أنزع شوائبه وأسويّه.

كنت تمزج الألوان تحت عريش الكروم فتسّاقط الأشكال والحروف رُطَبا جنيّا.

التّيه

مشّاءة إلى قنديل حرفك...

في صحراء حيرتي، أبحث عن انتماء...

5 - المطر صوت الحزن ورائحة الطهر. نداء من علّ يناشدك أن تقف هنيهة. صوت الروح بداخلك تصّعّد في سمائها، تتوق إلى أن تتطهّر من أدرانها، استفاقة الروح بين حنايا الجسد. صوت انهمار المطر صوت الماضي بشذاه الحزين يتأبّطك ولا يدعك تفلت منه إلاّ وأنت مبتل الهدب، مهراق الدمع.

الرّيح في الخارج تعربد منتزعة الأتربة التي استقرّت في أشهر الصّيف الثلاثة، لتقذفها في أوجه المارّة. اليوم ليس ملائما للخروج أو القيام بأيّ تغطيّة، عليّ أن ألزم البيت، لأعتبره عطلة كنت بحاجة ملحّة إليها منحتنيها الطّبيعة.

تتحوّل السّحب السّوداء إلى دقّات برَدٍ تنقر زجاج نافذة الغرفة. أقوم لإزالة حاجزها الخشبيّ مبقية على الزّجاج حتّى تخلو لي الصّورة من أيّ مشوّش. الحياة في الخارج في فوهة الصّعاب غيرها في الدّاخل متقوقعة على نفسي بين أحضان الفراش الوثير.

صوت تساقط البَرَد أعادني إلى عهد الصّبا، حين لا تعبأ القلوب بالبرد أو المرض، وتفتح الأفواه دهِشة أمام هذا الشّكل الغريب المخالف للمألوف. لا أذكر سنّي عندما أذهلتني للمرّة الأولى حبيبات البرد، لكنّ ذاكرتي تحتفظ بكثير من الصّور الطّفوليّة. حملتها بين يديّ بعد أن تخلّصت من سطوة أصواتها، وهي تسّاقط في فناء الدّار بسرعة مذهلة وبلون الفرح. إنّها تختفي بالسّرعة ذاتها التي ظهرت

بها، تاركة وراءها ماءا باردا ودهشة. وأعاود أنا الطّفلة الكَرّة دون أن أشعر بالبرد في كفّي الغضّ لولا تأنيب والدتي. كانت تخشى على صحّتي حتّى من برد هذه الحبيبات الصّغيرة.

المطر صوت الحزن ورائحة الطّهر. نداء من علّ يناشدك أن تقف هنيهة... مطر، مطر، صوت الرّوح بداخلك تصّعّد في سمائها، تتوق إلى أن تتطهّر من أدرانها... مطر، مطر... استفاقة الروح بين حنايا الجسد... صوت انهمار المطر صوت الماضي بشذاه الحزين يتأبّطك ولا يدعك تفلت منه إلاّ وأنت مبتل الهدب، مهراق الدمع... مطر، مطر...

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء، كالدّم المراق، كالجياع
كالحبّ كالأطفال، كالموتى هو المطر
مطر، مطر...

البرد يقوّي شهيّة التّذكّر لديّ بما يتيحه لي من فرصة الالتفاف حول نفسي والتّدثر.

لا أستطيع أن أطرد الحزن، وأنا أمارس عادة الحياة المقيتة على هذه الأرض الجريحة. يتبعني طيفك، وتنغرس في أعماقي صورتك ميتا، وأنت تدفن. وأتساءل لم علينا أن نغضّ الطرف أمام سرقة أفراحنا على قلّتها ونسلّم بالأقدار؟

لم أكن أدري أنّك ابتساماتي الحارّة التي غابت. لِم لا نعرف قيمة الأشخاص إلاّ بعد استحالة عودتهم؟ النّسيان مهمّة مستحيلة عندما تكون محاطا بما ينعش ذاكرتك.

أتّجه نحو مكتبي في غرفة النّوم. آخذ مجموعة كتب أقوم بتصفّحها لأسجّل بعض الملاحظات على ورقة خارجيّة. أتساءل عن موضوع هذا الأسبوع لصفحة الاجتماعيات الذي يعبّر عن همّ من الهموم المتراكمة في هذا البلد؟

اضطرمت الأفكار في ذهني تستفز الذاكرة المتعبة، لا شيء غير الاغتيال بمختلف الطّرق البشعة يستقطب القارئ الآن، ويشبع نهمه، ثمّ يملؤه خيبةً وفراغا.

في الوطن أخبار القتل بنوعيه الفرديّ والجماعيّ في الصحف ونشرات الأخبار، المحليّة والأجنبيّة، تضعك في تابوت ثمّ تكدّس فوقك كلّ أتربة مقابر الدنيا. تجمّد مشاريعك، وتشعرك بلا جدوى أن تفكّر في غدك. تمسح ذاكرتك كليّا وتشحنها بصور الدّم والأشلاء. تجعلك تتقوقع في بيتك بعد أن تغلق الباب الخارجيّ بأكثر من قفل حديديّ، لذلك برزت في المدّة الأخيرة ظاهرة مثيرة للاهتمام، حيث أضاف الكثير من النّاس أبوابا حديديّة غليظة أمام عتبات منازلهم، تخفي النّقوش الجميلة على الأبواب الخشبيّة الباهظة الثمن، لعلّها تقف في وجه وحشيتهم. أمّا الفقراء منهم فتركوها مشرعة في فم الرّيح والعاصفة.

الذّعر يفقد شهيّة التّزيّن لديك، ويعطّل شعورك بالجمال، فتحصر تفكيرك وأمانيك في البقاء على قيد الحياة أطول مدّة وحسب، كيفما كانت الظروف. كلّ قصّة للموت تقرؤها في الصحيفة أو تلتقطها من الأفواه، تحرمك من التّمتّع بجوّ اللّيل الهادئ، فتعتقد أنّ وراء كلّ هدوء أحدا يتربّص بك. تعيد تفاصيلها وملابساتها مع ضحيّة أخرى هي أنت.

تغيّر مواعيد نومك، وترفع ضغطك، وتجلب لك الصّداع، وهي نفسها التي تضطرّك لعيادة الصّيدليّة، وتجبرك على نوع معيّن من أقراص الدّواء. تتحكّم في قراراتك، فتمنعك من قضاء إجازتك الصّيفيّة في المكان الذي اعتدت عليه منذ سنوات، لأنّه صار مأهولا بالخفافيش.

تشعرك بوحشة غريبة مفترسة، وتفقدك الانتشاء بحميميّة المكان. تجعلك تتنفّس الغربة وأنت في حيّك الشّعبيّ الذي ولدت فيه وترعرعت. تكسبك عادة الالتفات أثناء المرور بمكان خال ومظلم. تفسد طباعك وتسرّب إليك شعورا فظيعا بإنسانيتك المهدورة وتتدخّل في أمانيك، فترغب لو كنت شيئا آخر، حجرا مثلا أو حيوانا، غير ذلك الإنسان المسكون بالخوف وهواجس الموت بآلة حادّة، أو منشار مدبّب، أو فأس قلّب بها أرضه في موسم الحرث.

صار القتل ديكتاتورا يمارس استبداده على الجميع، ويفسد أيّ نكهة للحياة. يعلّمك كيف تعدّ أصدقاءك وأقاربك المغدور بهم،

وترحّم على أرواحهم منتظرا دورك. يكسبك تقوى إجباريّة على طريقة المتقدّمين في السنّ ويلغي طفولتك.

الحادثة الأخيرة التي خلّفت ياسين جثّة هامدة فاقت احتمالي، فأن لا يجود لك الوطن بمرتّب وشقّة يضمنان كرامتك أمر تعوّدناه على مضض، وغصّة تَعايشْنا معها، أمّا أن لا تموت كباقي البشر، ويضطرّون إلى دفنك دون أحد الأعضاء المبتورة، فأمر يفوق الاحتمال الإنسانيّ.

ظنّت الأيدي الطويلة الملطّخة بأرواح الأبرياء أنّك كنت تكتب بأصابعك فألحقت قصاصا مضاعفا بها، وأخفتها إلى الأبد، ربّما رمتها إلى أحد الكلاب المدلّلة، لكنّ ممارسة الكتابة كممارسة الحياة نأتيها بكلّ جوارحنا أو نعلن عن عجزها. هكذا كنت تقول لي، الكتابة لا تقبل الإعاقة أو التّجزئة ولا أنصاف الحلول. هي كامرأة لا ترضى أن تشرك بها، ربّما لهذا السبب يمتنع الكتّاب عن الزّواج سنوات أو عمرا خشية أن لا يعدلوا بين كلمة وامرأة.

كنت أستمع إليك بدهشة غرّة لم تلقّن أسرار الوجود، وحاولت في كلّ مرّة معرفة كنهك. يقولون بأنّ الكتّاب أطفال على الدّوام، ومتى بلغوا سنّ الرّشد انتحروا فنيّا. فكيف يا ترى أبقيت على زبد الحليب بين شفتيك، ولا زلت تحفظ حكايات الجدّات عن الأغوال والأهوال، وجحا وبقرة اليتامى ومقيدش وغيرها... التي بقدر ما ملأتك خوفا ورهبة وشغفا نقلتك بين عالم الأرض والسّماء،

وأكسبتك قدرة على التّحليق، اتّخذتها فيما بعد شغلك الشّاغل وأسكنتها الحروف والكلمات، ودهشة الأطفال لا تزال تتلبّسك؟!

وفي الوقت الذي سكتت فيه كلّ الحناجر وأُخرست، وانطلقت الأسلحة البيضاء والسّوداء في حَبْك جزء أسود من تاريخ هذه الأرض، وما ملّت الجرائد من سحب أخبار الموت يوميّا، وصار لنا أكثر من غيرنا في بقاع العالم فرصة للموت بأكثر من وسيلة وطريقة ونكهة. في هذا الوقت كتبت عن الحبّ والفرح والألفة، وزرعت البهجة في النّفوس.

الحياة مع من نحبّ أقلّ بشاعة ممّا هي عليه، بل إنّها تفقد جدوى وفعاليّة كلّ منغّصاتها لترتدي قوس قزح طيلة السّنة. الشّعور بالألفة مع من يحيطون بك يجعلك أكثر قدرة على الاستيقاظ من النّوم بعينين حالمتين، واستقبال الحياة بصدر مفعم، تتعثّر ثمّ تنهض طاردا إحساسا خافتا بالضّعف. تحلّ بك قوّة باطنيّة تدفعك إلى الأمام، وتهمس لك بكثير من الرّقة:

امض في طريقك فأنت آمن...آمن...

الألفة تفعل بك ذلك، والخوف والارتياب ينغّصان عيشك ويسحبان كلّ رصيدك من راحة البال.

تعود بي الذّاكرة كلّما اختليت بنفسي إلى ياسين، وكيف أنّ الموت اختطفه في أبهى سنوات عمره بتلك الطّريقة الوحشيّة بسبب آرائه وكتاباته. ومن العبث أن لم يستحق من الجريدة والوطن سوى برواز علّقت عليه شهادة ترحم وعرفان، وانتهى الأمر عند هذا الحدّ. حياة

شخص تعادلها ورقة بلا قيمة، لا تستطيع أن تضمن له حقّا أو تقتصّ من قاتليه، بل إنّ موته كان فأل خير على المدير فحظي بالموظّفة إسمهان التي تحوّلت بين ليلة وضحاها من مسؤولة عن القسم السياسيّ إلى مسؤولة عن كلّ الأقسام لتكون مقرّبة إليه.

أدفع جسدي دفعا للنّهوض، أعبر الغرفة إلى الخزانة، فيعلق برجلي إزار السّرير المتدلّي أرضا. ألاحظ للمرّة الأولى بعد أيام طويلة أنّها بتلك الفوضى: شراشف السّرير، الوسادة، المنامة الشتويةّ التي أخرجتها البارحة من خزانتي بعد أن انخفضت درجة الحرارة بصفة محسوسة، وديوان شعر. حقيبتي بكلّ لوازمها مفرغة...لا شيء من كلّ ذلك في مكانه. فقدت شهيّة ترتيب ما حولي بعد أن فلتت منّي كوامني.

أحمل ديوان الشّعر لأعيده إلى المكتبة الصّغيرة في غرفة الاستقبال، يصادفني ملف كان لك، وجدته بعد وفاتك في درج المكتب بالصّحيفة، واحتفظت به بعد أن همّت المنظّفة برميه. أرادت أن تضمّ آخر جزء منك لأكياس القمامة، لكن من حسن الحظّ أنّي لاحظت الأمر.

كان ما تبقّى لي منك. أخذته بشغف، وتملّكني شعور غريب، وأنا أطّلع عليه في مكتب الصحيفة، الشّعور ذاته عاودني اليوم. فتحت الملف بعد أن استويت جالسة على السّرير. شرعت بنهم في القراءة. أوّل ما واجهني صفحة خالية إلاّ من آثار خفيفة تركها قلم الرّصاص تفلّتت بعض ملامحه، لم أنتبه لها أوّل وهلة:

مقاطع من رواية: ...

يظهر أنّها عمل أدبيّ لم يُمهل لعنْونته...

الورقة الثانية... آثار القلم نفسها، ولكن هذه المرّة أكثر ظهورا بحروف رشيقة ولعت بها:

لكل طريقته في تقديم الشكر والامتنان، وهديتي إليك أن أداعب مخلوقات عصية الولادة، وأشاكسها وأقدم قرابين لحضرتها حتى تظهر في أبهى زينتها، ثمّ بعد ذلك التمنع لا ترضى إلاّ الإقامة كسيدة بيت تسكت صوتك لتأمر وتنهى.

أريد أن أقدم لكِ نصا أنيقا في مستوى صخب عينيك في عيد ميلادك حتى لو زهقت روحي وأنا أستلّ الكلمات من صمتها، وكثير هؤلاء الذين استشهدوا على مذبح الكلمة قربانا...

الخامس من الشهر السابع

في شحوب تتلقّفني آثار قلم الرصاص كأنّما كانت بانتظاري، بانتظار زائر ينفض عنها الغبار. لعلّها تشرئب إليكَ كما اعتادت كلّ ليلة... تميط عنها اللّثام لتعيد القراءة مصحّحا ومنقّحا، منقصا ومضيفا، تصحبك الممحاة تطهّر الهنات، وتصيّرها مخلوقا جديدا.

الورقة الثالثة...

يحترق الألم في جنان عينيك... تبتسمين، يصل إلى الأهداب، فأشتمّ رائحته. أنظر من حولي بحثا عن ماء يطفئ حرائقك، وأعود إليك. تنزفين وتمتدّ الحروق إلى جوارحك، وتستمرين في

الابتسام. كان ندى ضحكتك قمينا أن يطفئ كلّ النيران، ويغمد كلّ الجروح الغائرة في الأعماق.

أهكذا يحترق الياسمين ؟!...

تنغرس الصّورة كشتلات في جبيني... أنصرف إلى الصلاة، أسلم ثمّ أعود إلى قضاء ما فاتني من أوقات، وشتلة الياسمين تدفع مسامات جلدي لترى النور. أهكذا تخترقين الآخرين وتغادرينهم متى شئت ؟!...

البياض، الاخضرار والحمرة، كلّها ألوان تليق بك، ولكنّك لم تكوني تهيمين إلاّ بالوشاح الأبيض حتى تخفي عقارب شعرك...

أراك متسمرة دائما حيث أنت، بذات العينين، ولكني لا أدري لم يتضوّع عطرك في كلّ مدينة أدخلها، ويلقي التّحيّة عليّ كلّ صباح من شقوق الأبواب والنّوافذ، ويكسر تخميناتي ويعطل برنامج يومي ؟!...

يقتحمني وأنا أضع اللمسات الأخيرة للوحة سكنتني حتّى ضقت بها، فطرحتها لأتلبس بأخرى. هي امرأة تحشر أنفها في كلّ شيء، حتى أنّها كانت تحوّلني إلى طفل وتمشط شعري على طريقتها. طالما أرجعت شغفها بالتّفاصيل إلى أنوثتها، لكني فيما بعد تلبست بطبعها الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فلمسات الأنوثة التي تتركها على الأشياء تربكني وتشظّي رجولتي.

كلّ اللوحات كانت لك، فلم توقيعي في أسفلها ؟!...

لم تكوني ترضين إلاّ أن يكون صالون الرّسم مقاما لي وحدي، وتكتفين بالبقاء في المكان ذاته، تراقبين طفلا ربّيته يفتح المحفظة

الهزيلة ليعرض في شغف طفولي خربشاته. وتبتسمين ابتسامتك المعهودة التي تمحو خطوطي وألواني...

لم كنت تتسرّبين إلى روحي وتقيمين فيها بكلّ ذلك الامتداد، لترسمي مسار حياتي، وتختاري ربطات عنقي ؟!... الامتلاء بك هو ما أشعر به، وأتساءل على الدّوام كيف احتسيت كلّ تلك الجرعة الزّائدة عن كامل وعيي، وأنا رجل الاتزان ؟!

لقد جعلتني يا سيدتي رجلا يمشي على رأسه، وبعثرت أوراقي، ولم تتركي لي أيّ فرصة لإعادة ترتيبها. كنت صاحبة الشأن في كلّ شيء، سيدة حزني وفرحي ومزاجي...

6- أكثر الكلام استفزازا للذّاكرة هو مالم يجرِ على الشّفاه، وارتسم على ملامح الوجه ببنطٍ عريض. والصّمت هو الأكثر استفزازا بالنّسبة لي، لأنّه يرميني في متاهة تأويل المسكوت عنه، فتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ بيانا إذا لم تُبن.

كاللّيالي السّابقات يجفوني النّوم في هذه السّاعة من اللّيل... أعلمتني صبيحة أنّها ستنتقل غدا للعيش في المحمية التي أقيمت للصّحفيّين بعد وقفة الاحتجاج على القتل الذي استهدفنا. تترصّدنا الأيدي القذرة في كلّ زاوية لتسكت صوتنا، فنحن من يعرّي جرائمها ويكشف قذارتها.

- قالت أمّي إنّها لن تغادر هذا البيت إلاّ إلى القبر، ورفضت أن تهجر البيت الذي شهد أجمل سنوات طفلها، ثم أردفت وهي تربت على كتفي:
- الله يحرسك يا ابنتي، الموت واحدة، قدر يصلك ولو كنت في بطن أمّك.

ودّعتني يومها وهي تدعو لي إلى غاية عتبة البيت، ولمّا وصلت إلى الجريدة طرح عليّ السيّد الشايب فور رؤيتي هذا السؤال:
- أتفكّرين في الهجرة؟
- لا أعتقد أنّ أمّي ستوافق...أنا أكتفي برؤية الموت، وأحتفظ بقصاصات عن موت زملائنا وأنتظر دوري.

أخبرتُ صبيحة بالحديث الذي جرى بيني وبينه، فأسرّت لي أنّها تفكّر في الأمر أيضا، ثمّ حدّثتني عن المكان الجديد الذي انتقلت إليه وعائلتها:

- وجدت صعوبة في تغيير الولدين إلى المدرسة الأقرب لكون الانتقال قد حدث في وسط السّنة. لقد غيّرت مدرستهما إلى مكان قريب من الفندق.

طوّحت بي مخيّلتي بعيدا عن سؤال السيّد الشايب وأنا في مكتبه وردّ فعل أمّي وحديثي إلى صبيحة، وتصوّرت هذه المحمية بسياج عالٍ، ونحن داخلها كفصيلة من الحيوانات النادرة التي يتكالب الصّيادون عليها، ويخشى عليها من الانقراض، وتحيط بها كلاب الحراسة، ويقدّم لها الهواء وباقي مستلزمات الحياة بالتّقطير. وتصوّرتُني أتسلّق المحميّة وصبيحة برفقتي والسيد الشايب وإسمهان. سجن داخل السجن، وبحث عن وطن داخل الوطن.

صار النّوم شيئا مستبعدا بعد هذه السّاعة المتأخّرة، وبعد الخواطر والصّور التي شغلتني. يتدرّج أثاث الغرفة بتفصيلاته إلى قعر لا أدريه، مبتعدا عن محيط إدراكي إلى أن يضمحلّ. حتّى والدتي المكوّمة في بطانيّتها في الحجرة المقابلة لم يعد أنينها بسبب الرّوماتيزم يبعث في نفسي ذاك الشّجن الذي كان ينتابني كلّما استيقظت على تأوّهاتها. لعلّه تأثير العادة. يتحوّل الصّوت الذي طالما بعث بداخلي أشجانا إلى ذلك القعر الذي لا أدريه.

كلّ الصّور قفزت إلى ساحة الهامش من وعيي، إلاّ صورة واحدة تكبس على أنفاسي، ولا تدعني بسلام. الجسد المسجّى ببياضه يتلقّف ذاكرتي، ويشحذها بشيء لا أعلمه. لعلّه الخوف من الموت. الأصحّ أنّ الصّورة لا تبعث في نفسي الخوف وحسب، ولكنّها تمتزج بذكريات عزيزة لهذا الجسد، عندما كان ممتلئا حركة. شيء ما يتغيّر بداخلي، ما عدت أشعر بتقطّع أنفاسي. تنتظم نبضات قلبي، وأتخلّص تدريجيّا من طارئة التّنفّس المتسارع.

يجفوني النّوم بعيدا عن الجسد المسجّى. ترتسم المقاطع التي قرأتها من أوراقكَ أفقا مزهرا، وأتصوّر أنّي السيّدة المقصودة... أستلذّ الفكرة، فأتناولها لأمطّطها وأنكب على ذاكرتي لعلّي أجد مسوّغاتها. الجسد المسجّى يمحى كليّا، ولا أتذكّر سوى أيّامنا معا وأحاديثنا، ويوم قدومك لطلب يدي.

الخطّ لم يكن في إطار العادة لديك، أصابعك تنثر حروفا مرمريّة تنطق عبقا، لا تقدر على تجاهلها أو إدارة وجهك عنها. تستحوذ عليك في افتراس متحضّر ورقيق، وتلغيك على طريقتها في هدوء بالغ. الحروف المرمريّة جسد ممشوق يحوز عليك قبل أن يرتدّ إليك طرفك. يتضوّع منه شذى لا يشمّه غيرنا، وأسمع لحنا شجيّا تعزفه أناملك المبتورة على الأوتار الرّفيعة للحرف يأسر ذا اللّبّ. مطرّزة حواشيها، مفخّمة، مشقّتَها مَشْقاً ورفعت هاماتها، ومولعة منذ صغري بما تنطق به الحروف.

أرى حروفك تارة شامخة صلبة، وأخرى مرنة منسابة، والحرف بين يديك حمّال أوجه، وبين الظاهر والباطن التواءات، أتوه بين سراديبها، ويكبر شغفي الطفوليّ وأنا أسعى بين ممرّاتها بحثا عنك، وعن المعاني التي تقصد بلوحاتك. أيعقل أن يكون للحرف وجه، ونظرة وابتسامة، وشموخ وقلق أقرؤه في لوحاتك.

يجفوني النّوم وأنا أبلغ أقاصيك. قراءة ما يكتبه الآخر عن الحميميّات توغّل في الدّاخل. وأتجرّد من عالمي، لأنّ عالمك هو الأكثر فتنة وإدهاشا، وتعود خاطرة أن أكون سيّدة الحزن والفرح لمداعبتي. لا أتعرّض لها بالمحو، لا لأنّي لا أرغب، بل لكونها تقبض على مشاعري وتفكيري، وأجد لها الحقّ في البقاء.

أفتح الملف مرّة أخرى، فتقابلني الحروف المرمريّة، وتسطو عليّ الدّهشة. لا أكاد أميّز الكلمات، وأتوقّف عن القراءة أحاور وجها ينثر صمتا أبديّا في جوّ الغرفة، ويناولني برمشة عين طوق ياسمين مبتلّ بشذى الصّباح، ويصرّ على أن أقبل... فأفعل...

بي ضعف جبلت عليه منذ نعومة أظافري أمام الأشياء الصّامتة. طالما استولت نجوم السّماء على ساعات من ليلي، وأنا في عهد مبكّر من الطّفولة أرقبها، وأسأل والدتي عن تحرّكها في السّماء، وعن الضّياء المنبعث منها، ولم هذا النّجم أكبر من الآخر وأشدّ توهّجا منه، ولم هذا المسار الذي يتّخذه، وهذا التّجمع حينا لعدد منها، والتّبعثر لأخرى بين أرجاء السّماء الصّافية على حلكتها؟

كانت لا تدري جوابا عن أسئلتي الصّغيرة الكبيرة في الحين ذاته، وتردّ عليّ بابتسامتها التي تبدّد حيرتي في هدوء مردّدة:

- عندما تكبرين ستكونين عالمة فلك، تراقبين النّجوم وتجيبين عن أسئلتك.

بعدها أبقيت على ثغري فاغرا في الصفّ الابتدائيّ، وأنا أجسّ نبض الحروف والصّور المرفقة بها بأطراف أصابعي . تسطو عليّ نقاطها والملامح التي تتلبّسها، حركاتها وسكناتها، ويستهويني رسم الحرف العربيّ، فالألف بقبّعته يقف حارسا على بقيّة الحروف آمرا وناهيا. وهذه التّاء بعينين صغيرتين سعيدتين، وتلك الثّاء تزيد على العينين فَماً تتفرّد به مع الشّين وتحاوراني.

وتلك حروف بعين واحدة تخيفني نظراتها الشّزراء، وأخرى مغلقةٌ ساكنةٌ لا ترى ولا تتكلّم، وهي الأشدّ اشتباكا بي، تُحرّكُ فضولي. أتأمّل رسمها وأحاول استنطاقها، بعد أن أرى فيها العالم الخارجيّ من حولي. ذاك ذيل الحرف في آخر الكلمة أُطيله، وأتخيّله قطّا أو أرنبا أو ما شابه، ينطّ من الأوراق ليشاركني اللّعب. اللاّم عصا جدّي يتوكّأ عليها ويهشّ بها على غنمه. والنّونُ بتجويف بطنها الذي أملؤه قفّةٌ من دوم مترعة بحبّات القرباع اللّذيذ في كلّ جمعة، بعد أن يبتاعها لنا من السّوق الأسبوعيّ...

كانت المدرسة عالما غريبا حين دخلته أوّل مرّة، الأقسام والمعلّمون والتّلاميذ، كانوا كُثُرا وكنت وحيدة مع أمّي وأخي في بيتنا الصّغير الهادئ. كانت عالما يعجّ بالحركة والسّكون في الآن ذاته. والسّكون

هو الحالة المثلى الشّهيّة التي تستفزّني. وكانت والدتي لا تعجب من ذلك، وتقول إنّ بي هوسا غامضا تجاه البعيد، وترجع الأمر إلى والدي -رحمه الله- عندما يشرئبّ في سكون بنظراته المتّقدة دقائق نحو الجبال الشّامخة الممتدّة على أطراف القرية.

النّظرات تسبّبت له في أن هام على وجهه أسبوعا مع زوّادة الطّعام بحثا عن كتيبة لجبهة التّحرير لعلّها تطفئ حقدا ينسفه من الدّاخل كلّما تراءى له جنديّ فرنسيّ. أسبوع البحث أفرز اللاّمتوقّع، أعاد إلى أمّي جثّة مغطّاة ببرنسها البنيّ الوبِر في دكنة. كان البرنس له، وتحته واجهتها في شراسة زوّادة الطّعام وهي على حالها.

- للمرّة الأولى أعدت كسرتي وزيتوني الحامض اللّذين أعددتهما لك بيديّ هاتين دون أن تتذوّقهما ...

قالت أمّي بصوت متهدّج، ثمّ أغمي عليها...

قيل إنّ عملاء المنظّمة السريّة الفرنسية اشتبهوا به فأردوه قتيلا على الفور، في السّنة التي شهدت تصفيات كثيرة نُسبت لهذه المنظّمة. لم تغتال الأماني البريئة والحارّة باكرا، ولا تترك إلى حين موسم القطف ؟! غرقت في بكائها، وأصابتها نوبات هيستيريا كلّما تذكّرت عمود بيتها الذي سلب منها غيلة بغير رجعة.

تشهد إحدى قريباتنا أنّها كادت تصاب بالجنون، تصرخ وتمزّق بعضا من ثيابها، وتجذبها النّوبة إلى المكان ذاته الذي كان يقف عنده أبي، وهو ينظر إلى الجبال العالية متأبّطا أمله...

كان أخي ذو السّنتين يصاب بالذّعر عند رؤيتها على هذه الحال ويشتدّ بكاؤه ساعات. وبسبب ما كان يمنعها عنه من كرب ومرض أخذته خالتي التي لم يكن لها أولاد تحضنه، وتعوّضه عن حنانها ورعايتها، ويملأ بيتها البارد بضحكاته. بعد مدّة اكتشفت أمّي أنّ من رحل عنها دون رجعة لم يتركها وحيدة. كانت حاملا في الشّهر الأوّل بفتاة تصير فيما بعد أنا. بدّد الخبر جزءا من كربها، فلا تزال تجمع بينها وبين أبي آصرة قويّة قوّة الدمّ ...

النّظرات ذاتها بالكيفية نفسها استحوذت عليها. لعلّها كانت تحلم بالبعيد، بالغد... تماما كما فعل هو قبلها. مع استدارة بطنها وظهور حملها، أخذت حدّة النّوبة تنخفض إلى أن تلاشت تدريجيّا، ولعلّه السبب الذي يجعلها تصفني حتّى الآن بكوني طريقها إلى المقاومة والشّفاء منذ أن كانت لي علقة جسديّة مباشرة بها. بشهادة خالتي ذاتها، علمتُ أنّ عادة التّأمّل تلك لازمتها حتّى بعد تماثّلها للشّفاء، تستحضر بها غائبا طال انتظاره، وتلوذ إلى الصّمت وهي تلوك الذّكريات...

الضّعف حيالة الصّمت والأشياء الغامضة البعيدة حالة وراثيّة إذن، لها تاريخ طويل في دمّي، لذلك لا أقدر على غضّ الطّرف أمام صورتك الأخيرة، وأنت بلا حراك، وملامحك تنطق في صمت وتعلق بي...

يدنو منّي الوجه الصّامت الذي ينساب من الأوراق، ويلتبس عليّ بوجه آخر لم أره في حياتي، ولكنّه يحمل الملامح نفسها التي حفرتها

حكايات والدتي وخالتي في مخيّلتي عن أبي المتوفّى. كلا الشّخصين اغتيل بيد غادرة وترك وراءه امرأة تمطّط الذكريات حتّى تهنأ بحضور دائم.

يربكني صمتك، وتغرس رمشة العين في ذاتي حديقة ياسمين فردوسيّة، ترفعني بشذاها، ولا تتوقّف أحاديثك السّالفة على قلّتها عن أن تنشب حرائق في ذاكرتي التي تأبى أن تنسى. لا أعرف لِم يحجز عليّ الارتباك، ويمنعني من ممارسة الحياة كما كنت قبلا... والأغرب أنّي لا أنزعج لهذا الاحتجاز. إنّه احتلال بلون الأقحوان وشذى الياسمين، ينشرني في كلّ الزّوايا، ثمّ ينسحب ليرى من بعيد ما صنعه.

لا أستطيع أن أتجاوز هذا الشّعور ولا أريد، بل أجمع شتات ما تخدّر من جوارحي، وأعيد كرّة النّظر إلى قسمات وجهك، وحروفك المرمريّة تتهادى، وتأخذني بعيدا إلى زمن آخر، إلى بلاط ملكي نُقش الخطّ العربيّ على جدرانه بماء الذّهب، وعُلّقت كلماتك عليها ولم تُحدر...

تلقي الحروف المرمريّة في أذني زخّات من الدّهشة الطّفوليّة التي تقطر نشوة وسحرا، وأستسلم للذّكريات والحلم الجميل...

- أعجبتكِ اللّوحة؟

سألتَ بعد يوم من تقديمك لي تلك الهديّة الحلم. كان الكلام بيننا لا يعرف الانقطاع، ولا توجد في مساحته نقاط الحذف التي كانت تجعلني طريدتها أمدا حتّى أملأها.

أكثر الكلام استفزازا للذّاكرة هو ما لم يجر على الشّفاه، وارتسم على ملامح الوجه ببنط عريض. والصّمت هو الأكثر استفزازا بالنّسبة لي، لأنّه يرميني في متاهة تأويل المسكوت عنه، فتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ بيانا إذا لم تُبن.

كان ذهني لا يؤمن بتعاقب اللّيل والنّهار، ولا بالنّور أو العتمة، ولا بمواعيد العمل أو الانصراف، ولا بالأماكن الواسعة أو الضّيّقة، لأنّك كنت تسكنني طيلة الوقت. أحاورك وأجلسك إلى جانبي، حيثما حللت كلّ ساعات نهاري وليلي. ركبت معي الحافلة وجلست إلى طاولة الطّعام، واحتسيت معي المشروب، وقلت تصبحين على خير. لم أكن أدري لمَ يحدث لي أنا بالذات كلّ ذلك بسبب لوحة.

أدركت أكثر من أيّ وقت مضى أنّي امرأة مولعة بما تخلّفه أنامل رقيقة خاصّة من كتابة ورسم. في داخلي منظر تطلّ على أحد جوانبه شمس تشرق طيلة السّنة على كوخ صغير، تسكنه جنيّة تشبه حكايات ألف ليلة وليلة، تلتهم آلاف الكتب، وتعلّق على قامتها أشهر لوحات الحزن...

- لم ملامحنا نحن بالذّات ومعا ؟!

كنتَ شخصا لا يجيد لغة الكلام الذي يمارسه النّاس قاطبة، لذلك ركنت إلى الصّمت، ورميتني بابتسامة كئيبة...

اعتقدت ردحا من الزّمن أنّ الكآبة على أهدابك أوراق محترقة من ماضيك تسرق ندى ابتسامتك، وتستنزف أيّ قدرة لك أو رغبة في السّعادة، لكنّي علمت فيما بعد أنّك كنت تهرب منّي ومن ذاتك،

وتريد أن تشعرني بالخوف. النّبيّ فيك الذي يستشرف المستقبل شعر بحدّة أنّ كثيرا من الأشياء ستنطفئ غدا. كانت حياتك مهدّدة، لكنّك شخص لا يستشعر الخطر، ولا يؤمن بأنّ للنّار سطوة.

كنتَ مطرا منهمرا...مطرا أصابني برشحة برد أبديّة، لازمتني واختلطت بدمي. ربّما لهذا السّبب صرت امرأة شتويّة تلغي الفصول الأخرى، وتعيش في ذاتها الشّتاء بتفاصيله. وربّما للسّبب ذاته أنتشي بالمشي على الأرصفة الطّويلة تحت المطر والألوان القاتمة ترتديني ...

أردت أن تبعدني عن حياتك، لكنّي كنت أنجذب دون أن أشعر نحو شخص بذلك التّميّز. لو عاملتني وفق برتوكولات العلاقة بين خطيبين قُرئتْ فاتحتهما لما خرجت عن إطار العادة، لكنّك بملامحك الكئيبة جعلتني أتسمّر أمامك، لأنّي في أعماقي امرأة تشبهك. لا يلسعها الخطر، ولا تشتهي الأطباق الجاهزة، وذات النّكهة ذاتها.

أن تجد نفسك حيالة نفسك هكذا فجأة ودون سابق إنذار أو موعد، يجعل مؤشّر الدّهشة لديك ينطّ، ويخترق تلك الأرقام الباردة التي وضعها الإنسان ذات يوم. تقضي اللّيل كلّه في استعادة تفاصيل ذلك المخلوق. لا يشعر بالزّلزال الجميل الذي حلّ بك سوى الوسادة التي شهدت في صمت منذ الولادة الجانب الحقيقيّ دون قناع والحميميّ لكلّ واحد منّا.

حكيت لها عن رائحة الزّهر التي دسستها بداخلي...عن أناملك الرّقيقة وحروفك المرمريّة وما تركته في نفسي. قالت إنّها لم ترني بهذا الحماس، وحذرتني من مطبّة الوقوع في شيء لم أفهمه حينها.

كانت تخشى عليّ من مشاعر مستحيلة، حسبتْ حساب احتراقي الآن. وكم أسأت إليها بعدها، فقد أثقلتها بدموعي، وجعلتها تغرق في أحزاني منذ وفاتك. كانت صدرا دافئا يكتم لحظات جنوني، ثمّ تشفيني بما تهديه لي من أحلام ورديّة ونسيان مؤقّت.

لا أقدر على رباطة الجأش بين يديها، لأنّي حينما أسند وجهي إليها، وأستسلم لتخديرها أكون قد استنزفت آخر ما تبقّى لي من ادّعاء للرّاحة، وخداعٍ أجهز به على يومي. إنّها تاريخي الشّخصيّ دون تزوير، الذي لا يعرفه أحد. كانت الوحيدة التي علمتْ منذ الوهلة الأولى أيّ الأشخاص كنتَ في نفسي، حتّى قبل أن أعلم وأدرِكَ ما حلّ بي.

اللّيل يمنحنا فرصة اللّعب بالزّمن بعد أن يستعبدنا نهارا في لهثنا وشططنا في متاهة الحياة. نمطّط اللّحظات الجميلة المسالمة لنتذوّقها بدفء أكبر، وحتّى نشحذ بطارياتنا التي استنفدها يوم شاقّ، فنستطيع مواصلة الحياة. أمّا ما أزعجنا طيلة ساعات فنتحايل عليه ونحوّله إلى مجرّد لحظات. اللّيل حياة أخرى، فسحة للحلم وإن أعقبها استيقاظ.

- هي لك...!

قدّمت تلك الهديّة الحلم وانصرفت ...

أنا المرأة التي تأبّت على كلّ أنواع الهدايا التي يمكن أن يقدّمها رجل، وظلّت على عنادها إلى أن أربكتني ريشتك. وعبر شذى هديّة استثنائيّة أزهرت بداخلي حدائق الدّنيا، وعميت عن الألوان الأخرى القاتمة.

الحبّ يجعلك شخصا نمطيّا، ينكر الأصناف الأخرى، ويختزل العالم في نموذج يعتقد أنّه لن يتكرّر. إنّه ذوبان في الآخر واستعارة لجميع حواسه. هو الإلغاء الجميل والوحيد للذّات الذي يشعرك بذاتك حتّى الاحتراق.

عندما اكتشفت ذلك كنت قد تحوّلتَ إلى نعش وشاهدين. ليس بمقدوري أن أهبك شيئا بعد أن سرقتْ منك ومنّي الحياة، ربّما فقط زيارة إلى القبر مع باقة زهور ودعاء. لم أشاركك الحياة كما يليق بامرأة ستصير شريكة عمرك... وبما أنّه لم يبق لك عمر، فإنّي الآن أقتسم معك مماتك... إنّي امرأة مقلوبة تشكّلت بعد نقاط النّهاية...

على هذا الحائط في غرفة الاستقبال أضع لوحتك الثّانية التي أهديتني يوم قدمت لبيتنا برفقة عائلتك. كنت مختلفا، ملغيا لجميع الأعراف والطّقوس، تترك لمساتك على الأشياء لأنشغل بها اللّيل كلّه في دهشة أشرك فيها مخدّتي.

- هي لك أيضا... كلّ لوحاتي صارت لك.

قلتَ يومها هذا الكلام وأمطت اللّثام عن وجهها... تأمّلتُها... كانت رصاصيّة شاحبة من غير ألوان، كوخ صغير من قشّ منزوٍ بالقرب منه شجرة صنوبر طويلة... لم أفهم اللّوحة حينها، ولكنّي أحببتها وأحببت انتشار قلم الرصاص بين جنباتها، والهدوء الذي يلفّها. استفزّني الفراغ فيها الذي أحاط بالكوخ من كلّ جانب يملؤها غموضا، ويوسّع مساحة تفكيري في المقصود منها.

كلّمتُ صبيحة التي زارتني في البيت ذات عصر شتويّ، ونحن نجلس إلى طاولة الشّاي، وأفرغت في ذلك المجلس حاجتي إلى البوح، وأبديتُ لها حيرتي وتأويلي لما كان منه:

- أيمكن أن تقرئي خوفا في لوحة، فزعا إلى الفكاك من شيء لا أعلمه؟ هذا ما تسرّب إليّ في آخر لوحة له. ألمٌ، ووحدة، وخوف بحروف عربيّة، يدان معروقتان في جسد ذابل تطلبان الخلاص...
- دعكِ من هذا الحديث، ما كان لك أن تغيّري شيئا، انسَيْ...
- تصرّفاته كانت غريبة نحوي، كنت أشعر به يفرّ من شيء، يخشى أن أكشفه، يفرّ منّي... يخفي التهديد، وكثير من زملائنا اليوم تلقّى تهديدات.
- لا تتعبي ذهنك، حتّى لو علمتِ ما كان لك أن تنقذيه، أو تغيّري قدره.
- في حديثه إليّ قال: هل نرسم ذواتنا في لوحة، مسارات حياتنا أم هي يد القدر تطوّح بما أردناه وسَعَيْنا إليه لترسم الخطَّ الذي تريدنا أن نتيه فيه صاغرين؟
- لم نلحظ تغيّرا على ياسين في أواخر أيامه... كانت تصرّفاته عاديّة
- حروفه وألوانه في لوحاته الأخيرة لم تكن عاديّة، كانت تائهة... لمست تيهها في عيني اللّوحة، وأرضها التي غارت بين يديه، وسمائها التي تطايرت شظايا من خوف، ملبّدة بغيم أفكاره وحيرة أنامله.
- أيمكن للحرف أن يحدّثك ويشكو، فتفهمي لغته؟

- في لوحاته في الآونة الأخيرة عانق الرّسمُ الكلمات في نفحات من نور أذهلتني، كان يطير فرحا بهذا الفتح الذي منّ الله به عليه. كان الحرف مطواعا بين يديه، فرَسا رَطْب العنان، هو فارسه الهمام. ولكنّ ياسين في المدّة الأخيرة صار حياة قلقة رُسمت في حرف. لم أر بين يديه الحرف المطواع الذي اعتدت أن أراه، يرسله كيفما يشاء، بل حرفا منكمشا، ملبّدا، مقهورا... وكنت ألحظ حاجزا بيننا يفتعله لم أفهم سببه يومها.

كان صورة عنه، لكنّي لم أستوعبه حينها كما يجب.

- كفّي عن لوم نفسك...

- هل يمكن قراءة إنسان في لوحة؟ هل يعقل أن يختصر لونٌ نكهةَ الحياة التي يستشعرها من أبدعه؟ وكانت نكهة فيها الكثير من المرارة، نكهة مَجَّها فصرخ بملء فؤاده، لكنّ الصّوت ظلّ حبيسه، فمات بقهره.

أطلعت صبيحة على اللّوحة الأخيرة عند زيارتها لي. ما بقي لي منك سوى لوحات أستأنس بها في صالة الاستقبال إلى جانبها برواز مطرّز كتب عليه شهادة عرفان وتقدير وترحّم. ولفتتها غرابتها كما لفتتني عند أوّل لقاء لي بها، وشغلتني عمّا أردتَ أن تقوله لي من خلالها.

- مع مرور الأيام وتعمّد تناسيه لي وصمته، حاولت أن أفرّ منه، من تغلغله بداخلي، وأضمّه إلى لائحة الأشخاص العاديين بالنّسبة لي، لأنّه هكذا أراد... مجرّد خطيب سيصير أبا لأولادي. كان يستشعر الخطر ويشمّ رائحة الموت يدنو منه، فيبعدني بكآبته وصمته

وتجاهله المتعمّد الذي دفعني أحيانا للتّساؤل حول ارتباطنا، وطرح احتمال فسخ علاقتنا.

- لا تعذّبي نفسك وتلقي اللّوم عليها؟

- لم أفهمه كما يجب. كان يُغتال في اليوم ألف مرّة، وأنا أفكّر في فسخ علاقتنا.

انصرفت صبيحة وهي تحاول أن تثنيني عن التّفكير بك، وفيما قصدت من لوحتك الأخيرة. أمّا الآن فقد فلت منّي ما عقلته في حياتك بعد أن أدركت سرّ صمتك، وما لسعك من خطر أفقدك حبّ الحياة. وهزّني الضّعف أمام جسدك المسجّى الذي وُورِيَ التراب ليُبعث فيَّ حيثما حللت. وترفض الذّاكرة أن تنسى كلّما تحايلت عليها، وتزداد تشبّثا بتفاصيل التّفاصيل.

إنّه التّلاشي في الدّهشة تجاه الآخر. فتح العينين بكامل الاتّساع لاحتواء تفاصيله... تقاسيم الوجه، خصلات الشعر، حركات الأيدي، ألوان ثيابك وأزرار قميصك وحيثيات كلامك...أنشرك على دفاتري وأقرؤك في كلّ كتبي. نجلس معا في كلّ الزّوايا ننسج أحلاما تكفي أجيالا. بعدها أجد نفسي وحيدة أحكي تفاصيل قصّتي لكلّ المرايا، فتنمو الصّدوع على الجوانب... ولا أحكيها لأحد... يا قصّة لم تكتمل.

بقدر السّنوات العجاف من عمري التي أمهلتني أن أكبر بقلب طفلة تبكي الأب الأسطورة، أبكيك... ولا أقدر على محو صورتك مسجّى ملتفا بالبياض عبِقا برائحة الكافور والعنبر. أبكي الرّجلين فيك،

فقد قدّر لي أن أمارس عادة التّعايش مع الموتى منذ ميلادي. الميّت الأوّل أبي... والثّاني أنت، لِمَ أعيش حياة عكسيّة، هل يكمن الاختلال بي؟!

صحت والدتي في جوف اللّيل، ولم أشعر بها إلاّ وقد أنارت الغرفة فلم تستطع عيناي مقاومة الضوء:

- ألم تنامي يا ابنتي!
- كان لديّ بعض الأعمال في الجريدة أنهيتها متأخّرة، وسأخلد الآن إلى النّوم.
- ما كلّ هذه الأعمال التي تشغلك إلى قرابة الفجر؟ بماذا تفكّرين؟ أكيد أنّه ياسين رحمه الله.
- ماذا لو قلت لك إنّ تفكيري انطلق من ياسين ووصل بي إلى أبي رحمة الله عليهما، أتأمّل حياتي المقلوبة، فأنا لم أعش مع الرّجلين، ولكنّي بعد وفاتهما لا أزال أعيش معهما. أعيش على الذكريات
- وحّدي الله يا ابنتي ونامي، هذا قدر الله ولا مفرّ منه.

عادت أمي إلى فراشها بخطاها المتثاقلة، وبقيت أتأمّل حياتي المقلوبة في طفولتي وشبابي، فالأطفال عادة ما يولدون وآباؤهم في انتظارهم وأنا لم يشرئب إلى قدومي والد. يترعرعون في دفئهم، يحبّونهم بسعة السّماء وعلوّها، ثمّ إنْ فقدوهم يسترجعونهم في أذهانهم، ويستعيدون ذلك الدّفء وحلو الأيام، ولو على سبيل الذّكرى، وأنا فتحت عينيّ على الفقد.

ما أشدّ فجيعتك عندما يكون الأب لديك مجرّد صورة بالأسود.

النّساء في حكم المألوف يُتيّمنَ برجل، بعدها قد ينتهي الأمر بهنّ إلى البكاء أمام قبره، لكنّي أبدأ دائما من حيث ينهي الآخرون أشياءهم. ألم أقل إنّي امرأة تشكّلت بعد نقاط النّهاية... عوّدتني مشاعري على الاندلاع بعد إسدال السّتار. لي مسرح مختلف عن مسارح باقي الأوطان، كما أنّ الأدوار التي توكل إليّ أدوار حزينة على الدّوام، وذات بطل أحاديّ.

بحجم وحدتي وضياعي أتشبّث بصورة البياض الملتصقة بك. يا من أبحر في أوردتي دون أن أهبه بطاقة ترخيص، ثمّ رسا على ملامح وجهي برجلين حافيتين وتحكّم في نومي ومزاجي. يا قدرا أصابني بالدّوار، وجعلني أذرف أنهارا على عمر مُغتصب...

غفوتُ على ألمي بعد أن انبلج الصّبح ولم أعد أقوى على شيء...

7- صار الوطن خنجرا وخيانة وهتك عرض. ودّ الإنسان فيه لو لم يتعاقب اللّيل والنّهار، وصارت آية اللّيل مبصرة، فالظلام يفتح شهيّة سفك الدماء لديهم، والخواء والفراغ يحفّزهم لاصطياد الضّعفاء والفقراء والمنزوين في أكواخهم مع بهائمهم.

الهاتف يرنّ... وأنا تحت البطانيّة، لا أزال أدفع عنّي النّعاس، أفرك عينيّ في محاولة لأستفيق، لا أقوى على جمع شتاتي والنّهوض، شيء ما يشدّني ويقيّد أوصالي. عليّ أن أجمع ما تبقّى منّي لأواصل الحياة. قليل من أشعّة الشّمس تظهر حينا وتختفي حينا آخر تلامس وجهي، وتمنعني من الرّؤية، فأعود إلى إغماض جفنيّ المثقلين.

بعض أوراق لك على طرف السّرير، وضعتها ليلا بعد أن قرأتها مرارا وتكرارا، كانت تلك التي احتوتها الإضبارة على مكتبك وهمّت المنظّفة برميها... مسوّدة صفحتي الاجتماعيّة في الجريدة هذا الأسبوع وكتاب عن "العمل الصّحفيّ وآليات الكتابة" كنت قد شرعت في تصفّحه، على جانب المكتب الصّغير في زاوية الغرفة. كانت كلّها مبعثرة، بعثرة نفسي بين ما يعصف بها.

تتسرّب بعض نسمات الصّباح الباردة من النّافذة، فيتطاير لها الإزار الأبيض الموشّاة جوانبه بزهور الأقحوان، فأسرع لأجذب البطانية الدّافئة ألوذ بها، وأتّقي برد الصّباح. وددت لو طلعت عليّ

الشمس بوجهها المفعم حياة لأتمسّح بها لعلّ عدوى الحياة فيها تتسرّب إلى دمي.

الخزانة مشرعةٌ دفّتاها، من غير ترتيبٍ تقبع فيها الثياب، وترتسم الفوضى بين طوابقها، وأنا لا أعبأ. الهاتف يعاود الرّنين ولا يتوقّف، ولا يراعي ما أنا فيه. بصوت عالٍ ترفع أمّي عقيرتها تناديني من غرفة الاستقبال تطلب منّي الإسراع بالرّدّ.

- من ذا الذي يتّصل بنا في هذا الصّباح؟

أتّجه صوبه، أحمل السّماعة وبعينين خائرتين وشبه مقفلتين نتيجة تأخّري في النّوم ليلة البارحة أردّ:

- ألو من المتحدّث؟

أجابني صوت رجوليّ خشن يبدو بعيدا بعد السماوات والأرض:

- أنا أحمد أخوك... كيف حالكما؟ كم اشتقت إليك وإلى أمّي!

- ...

- أعرف أنّك لا تزالين غاضبة منّي... أعيد أسفي فأنا لم أتمكّن من الاتّصال بك يومها ولا في الأيّام التاليّة والوقوف إلى جانبك على الأقلّ على الهاتف، حيث لم أعمل طيلة شهر بكامله. إقامتي في إسبانيا هذه الأشهر غيّرتني، لم أعد الشّاب الضحوك، المحبّ للتّهندم وكثير المصاريف الذي تعرفينه. علّمتني الغربة الحزم والاستغناء عن كثير من الكماليات، فالحياة هنا صعبة.

- كيف تتدبّر أمرك بعد طرد ربّ العمل لك؟

- أعمل في أحد المطاعم بالعاصمة. أخبار القتل والدمّ أثّرت على سمعة المغتربين خارج الوطن. صرنا محلّ شبهة أينما حللنا، وأنا لم أتحمّل نظرات صاحب المطعم كلّما حدثت مشكلة، وتلميحاته الجارحة. كان لا بدّ أن أوقفه عند حدّه، وكانت النتيجة أن فقدت مهنتي ومحل الإقامة. تسكّعت في الطّرقات أياما ونمت على الكراسي العموميّة لياليَ ملتحفا معطفي، ثمّ آواني أحد الجزائريين المقيمين هناك في غرفة في قبو منزله لمّا علم أنّي من مدينته، إلى أن وجدت عملا في هذا المطعم الذي أنا فيه الآن، وهو محلّ إقامتي المؤقتة، غرفة منزوية منه تصلح للمبيت حتّى التحق بالعمل باكرا مقابل ما يقتطعه من راتبي الشّهريّ.

- أمّي تهذي باسمك... قد أصابتها الحمّى قبل أيّام، خشيت أن تموت دون أن تراك. حرقة الغربة تذيب فؤادها، وداء المفاصل يكبّل رجليها ويشلّ أصابع يدها اليمنى. صارت لا تقوى على تناول الطعام بمفردها، كطفل صغير لا يأكل إذا لم تطعمه. الطفل يبكي إذا ما جاع أمّا أمّي فتركن إلى فراشها، ولا تبدي حراكا أو رغبة في الأكل ولا في أيّ شيء آخر. لكنّي عندما آتي على ذكرك أمامها تدبّ فيها الحياة، فتتحرّك شفتاها وتتمنّى أن يطول عمرها لتراك مجدّدا كما في سالف الأيام وتكحّل عينيها بمرآك.

- ناولي أمّي الهاتف لأتحدّث إليها...!

بلهفة ترتعش لها يداها تمسك الهاتف، وبصوت متهدّج تسأله:

- كيف حالك بنيّ؟

- أنا بخير، كيف أنت؟
- لقد طالت غربتك ولم يعد بمقدوري الصبر!
- سأعود فور تحسّن الأوضاع واستقرارها. أتذكرين يا أمّي أنت من طلب منّي الفرار بجلدي وبناء مستقبلي الذي كان مستحيلا في الوطن. تلك الأحلام التي راودتني عن المحلّ وتوسيعه ولّت أدراج الرّياح، كنت على شفير الموت أو الجنون. كان السّفر ضرورة ساقتني إليها الظّروف لا اختيارا. كان الخوف يغتالنا كلّ لحظة ننتظر فيها دورنا، والبقاء على قيد الحياة أقصى أمانينا.
- الحمد للّه بنيّ، أنت الآن في مأمن. كنت أنتظر كلّ يوم تخرج فيه أن ينعى إليّ خبر موتك. صورتك تحت اللّحاف لا تفارقني... نوبات الصّراخ تلك ما زالت تقرع أذنيّ، والخدوش التي على ذراعك ورأسك لم تغب عن خاطري، ساهرةً اللّيل كلّه أفكّر في مصيرك وما عساه ينقذك من مخالبهم. أمّا بعد أن سافرت فصرتُ أكثر اطمئنانا على حياتك. فقط أدعو الله أن أراك قبل موتي...!

تخنقها العبرات وإن حرصت على أن لا تضعف أمامه. لم يقاوم هو الآخر للحظات، ثمّ دفع نشيجه ليطمئنها:
- أنا على ما يرام يا أمّي، ستتحسّن الأوضاع قريبا، وسأحزم حقائبي وسأدقّ باب دارنا يوما لأفاجئك، وأرتمي بين أحضانك، وستملّين من رؤيتي. وإنّ غدا لناظره قريب. أطال الله عمرك، لا تقلقي بشأني فأنا رجل وأتدبّر أمري كيفما كان، أتركك بخير.

تتنهّد وتقول بعد إقفال الخطّ:

- ... أراك ولتكن بعدها الموت!

تعود إلى فراشها وهي تتوكّأ على عصا خشبيّة مستسلمة للنّحيب بعد أن كانت تدفعه. تبتلّ وسادتها على ذكرى أخي، وتتمنّى لو كان بقربها حتّى تُمَلّي ناظريها منه. رجل البيت الذي تركنا في هذا الزمن الصّعب. هي تحيا على بصيص أمل أن يفاجئها يوما بقدومه ليطفئ حرقة الأمومة بين أضلعها.

أرتّب غرفتي وأتجهّز للخروج. أقبّل جبينها وأمسح دمعها المنسكب على وجنتين ضامرتين بدأت الأخاديد تأخذ طريقها إليها، وأرجوها أن تتوقّف عن البكاء لأجل خاطري قبل أن أنصرف إلى عملي بالجريدة، فتجيبني بعينين كالجمر:

- اذهبي يا ابنتي واسعي لرزقك، ولا تقلقي بشأني، أو تحملي همّا فأنا بخير.

تطمئنني وهي تداري غصّتها، تنتظر خروجي لتفرغها على مهل... وأنصرف موصدة الباب على أوجاعها، وحيدة تتجرّعها على وهنها. علمت بذلك أكثر من مرّة حين أراها عند عودتي في المساء وهي منتفخة العينين.

أتأبّط حقيبتي وغصّةٌ مثيلة في الصّدر تقهرني وتشحنني مقتا وازدراء وضغينة، تعكّر صباحي وتأتي على يومي ترديه حالكا بغير ألوان، مشوّها من غير غاية، شاحبا من غير حياة، قفرا من غير أنيس.

أدفع نفسي دفعا لتقاوم وتحيا، ولكنّها ترتدّ خلفي في انهزام متقوقعة وتقول لي امضي بدوني، أتسمّر مكاني ولا أدري ما أصنع. يخنقني عنق الزّجاجة ويشتدّ ضغطه كلّما انتفخت أوداجي، أغمض عينيّ وأنا على مقعد الحافلة جالسة، وأسترخي لعلّي أدرك شيئا من راحة البال فيتّسع لي العنق وتعود إليّ أنفاسي...

بمقرّ العمل أرسم على وجهي ابتسامة مصطنعة كلّما صادفت تلك السّيّدة التي أخذت مكانك بالجريدة في زهو. تحوّل السّيّد الشايب تحوّلا مفاجئا، نسي حضورك بل ما كان من حضورك المميّز في مكتبه. لم يعد يأتي على ذكرك، كأن لم يكن لك وجود أصلا. السكرتيرة اسمهان شغلت اهتمامه ولازمته، لا تغادر مكتبه إلاّ لبعض الشّؤون. لكنّي لا أقدر على تناسيك، ذاك البرواز المعلّق على جدار مكتبك هو ما تبقّى لي منك، شهادة على ظلم واحتقار الإنسان في هذا الوطن، وبعض من الذكريات أقتات منها. وتلك الأصابع الرقيقة التي بُذلت لأجل تلك الأعداد المنشورة من الجريدة المكدّسة في المخزن، المتآكلة بفعل الجرذان. أين هي الآن؟ بين أكوام القمامة، ذهبت أدراج الرياح كما ذهبتَ. الأيدي الطويلة تَطُول الفرحةَ فينا لتغتالها، وتكبّل أمانينا وتجهز على أيّ رغبة في الحياة.

أتصفّح العدد الأخير من الجريدة الصّادر هذا الشّهر. هذه صفحة الاجتماعيّات خاصّتي عن نزوح العائلات من الرّيف إلى المدينة بسبب الوضع الأمنيّ، وما نجم عن ذلك من مشاكل اجتماعيّة. سألت صبيحة:

- ماذا عن الصفحة السياسيّة؟

- أرى أنّ السّيّد الشايب قد غيّر سياساته بعد الحادثة الأخيرة التي أودت بحياة ياسين بعد نشر ذلك المقال المشؤوم.

- هو الآن يختبئ كجرذ يخشى الاصطياد. يتّبع سياسة الحذر والحيطة والتّرقّب التي تعمّ الوطن.

- لذا اقتصرت الصفحة السياسيّة على أخبار الدّول العربيّة والغربيّة. الخوف من الموت يكتم صوتك ويصمّ سمعك فتحيا حياة الذلّ والقهر. يسرق منك ابتسامتك، وأنت تنتظر موعدك لتوارى ظلمة القبر، وتلقى عليك الكلمات التّأبينيّة، ثمّ تصير في خبر كان.

- صار العمل في الجريدة بطعم آخر مختلف عن السّابق في الأشهر الأخيرة. صار بطعم الحنظل في هذا الزّمن.

- نحن نعيش كمن يمسك بالجمر، نترصّد أخبار القتل وإن لم ننشرها، ونترحّم على زملاء المهنة الواحد تلو الآخر، ونعدّ الخطوات الأخيرة بدقّات قلب متسارعة قبل أن نقفز لنلج بيوتنا، ونقفل الأبواب الحديديّة خلفنا، فلا يتعقّبنا أحد فيغرس سكينا في الظّهر.

صار الوطن خنجرا وخيانة وهتك عرض. ودّ الإنسان فيه لو لم يتعاقب اللّيل والنّهار، وصارت آية الليل مبصرة، فالظّلام يفتح شهيّة سفك الدّماء لديهم، والخواء والفراغ يحفّزهم لاصطياد الضّعفاء والفقراء والمنزوين في أكواخهم مع بهائمهم.

ينتهي الدّوام الثّقيل ثقل هذا العمر. أرى طريق العودة طويلا وممتدّا، وأصوات حشود النّاس المنتظرة في محطّة الحافلة ناقوسا يدقّ دقّا على ناصّيتي، ويفقدني تركيزي. أفقد شهيّة رؤية الآخرين وأتوجّس منهم خيفة، لعلّ بينهم من يترصّدني، ويتحيّن الفرصة ليفتك بي. لعلّ بينهم يقف قاتلوك، ومن نزع أصابعك، ونَكَّلَ بهما ليطعمها كلبه المدلّل.

أودّ أن ألتف على ذاتي فوق الكنبة القديمة التي شاخت معي، وأتوسّد مخدّتي المستمع الوحيد لي، لأستعيدك على مهل وأبلّلها بدموعي. تنتابني قشعريرة حادّة بعد عودتي إلى البيت حين نزعت سترتي بعد أن تعرّقت في طريق العودة، يردفها برد شديد يصاحبني بضع دقائق. أقف لأحضر دثارا سميكا من الخزانة أجلبه من غرفة أمّي. أطمئنّ عليها، هي في فراشها تتمدّد بعد القيلولة.

أفتح الشقّ الأيمن من الخزانة، فتسقط الثّياب التي كانت أسفل الدّثار، إنّها بعض من جهازي، جهاز العروس التي تحوّلت إلى أرملة مقتول زوجها قبل أن تبدأ حياتهما معا. يسقط معها كتيّب ينساب منه طوق الياسمين الذي أهديتني إيّاه ذاك اليوم في عيد مولدي.

كان تجفيف الزّهور البريّة هوايتي في آخر موسم الرّبيع. شقائق النّعمان وزهرة البابونج والزعتر البريّ بزهوره البيضاء الصغيرة المائلة إلى الغبرة، وزهرة إكليل الجبل البنفسجيّة اللّون، وكثير من أترجّات أجهل اسمها تأسرني بألوانها البكر وأشكالها. أختار الأجمل منها والأكثر إشراقا أخفيها بين دفّات كتب غليظة لتأخذ شكلا

مسطّحا. كنت أحيطها بالرّفق والعناية وكثير من الحبّ فأرفقها بأسمائها وتاريخ قطفها، واليوم الذي حلّت فيه بين حنايا دفتري، وما تُمثّل لي من وقفات في حياتي.

أحبّ أن أمسك بالجمال فيها، وبالرّبيع استحضره ساعة أريد، كلّما فتحت تلك الكتب تصفّحت الجانب المشرق والمزهر من ذاتي. فقدت تلك الشّهيّة الآن، في هذا الزمن لم يعد يعبأ بالجمال أحد. اختفى لون الفرح لتحلّ محلّه ألوان الحزن والهرم.

أقفل النّاس بيوتهم كما أقفلوا قلوبهم بأبواب حديديّة غليظة، وعدّوا الأيام وراء أسوارهم وفرائصهم ترتعد. متى ينقضي هذا الوباء الذي حلّ بالوطن. لم يشعروا بقدوم الربيع ولا إشراقة الشّمس، ولا ببقيّة فصول السّنة. فالأيام كلّها ليل طويل مدلهمّة جوانبه، لا تنقضي أهواله، يزحف كثعبان غليظ يطوّق أعناقهم، ثمّ ينفث السمّ في دمائهم.

طوق الياسمين بين يديّ أتحسّس فيه الشّذى الذي كان بيننا ثمّ ولّى، الصرح الذي بنيناه معا فهوى في لحظة دمويّة والأيّام الجميلة التي انقضت. كلّ ذلك أمسى خبرا وحديثا يروى ثمّ يطوى كما يطوى الكتاب. وتغزوني ابتسامة نديّة عندما تتمثّل لي صورتك وأنت تدّعي نسيانك لعيد الميلاد. كنت لا تقدر على إخفاء الابتسامة في عينيك، تفضحك أساريرك وتشي بما تكنّه.

كنتَ بعدها كمن كان في غمرة حلم جميل تمنّى ألاّ يستيقظ منه، وعلى حين غرّة رُمي بدلو ماء عكر. تربّد وجهك وغادرته الحياة.

أجفلت نظراتك وخفَت بريقها، وركنت إلى الصّمت، وتركتني دون تفسير أو توضيح كالزئبق ذهابا وإيّابا، أؤوّل حركاتك وانقلابك. ولم أكن أعلم أنّها آخر أيّامك على الأرض ومعها كانت آخر أحلامي.

يعيدني أنين أمّي المكوّمة في فراشها منذ الظهيرة إلى الهدوء المطبق في الغرفة. اتّجه صوبها وأجلس بقربها على كرسيّ خشبيّ قديم تآكلت أطرافه. تمسك يدي تفركها بحنوّ، وتسألني:

- في أيّ يوم نحن، فقد اختلطت الأيّام في رأسها؟ كلّها متشابهة.

تقضيها بين ألم المفاصل وتذكّر أخي، والحسرة على ابنتها التّي ترمّلت قبل أن تنتقل إلى بيت الزّوجيّة.

تذرف دموعا مريرة مرارة أيّام شبابها وشيخوختها، وتخفيها حالما تراني قادمة صوبها، أو تسمع صوتي قريبا من غرفتها وتدّعي ازدياد ألم رجليها، وأعرف ما بها من احمرار عينيها.

- غدا الجمعة يا أمّي. أترافقينني إلى المقبرة. صار لنا فيها قبران: أبي وياسين ينتظران قدومنا؟... هل فعلا ينتظر الأموات الأحياء يا أمّي؟

- يقال إنّ الأموات ينتظرون الأحياء، يردوّن عليهم السلام ويسمعون حديثهم إلى أن يقوموا. يستأنسون بهم ويفرحون لدعائهم، بل إنّ أخبار الأحياء من أعمال آخرتهم تصلهم فيسعدون بها أو يحزنون... هم يا ابنتي يعلمون ولا يعملون ونحن نعمل ولا نعلم.

- لا أدري، ولكنّي أريد أن أرى ياسين، ينتابني شعور قويّ أنّه ينتظر قدومي، فهو أقرب مكان يربطني به، لا يفصلني عنه سوى كومة من تراب...

حين تتحوّل المقبرة إلى المكان الوحيد الذي نلتقي فيه مع من نحبّ، تشيخ القلوب ويهرم كلّ قلب فتيّ، وعوض أن يتزيّن يرتدي شالا أسود ويقاطع ألوان الحياة. يطأطئ الرّأس ويقصد المكان بخطى متثاقلة.

أعود إلى سؤال أمّي بعد أن صمتت قرابة الدّقيقة:

- أمّي... هل ارتبطت بقبر أبي؟

- آآآآه يا ابنتي... لا أريد تذكّر تلك الأيّام. الموت صدمة كبرى يصعب تصديقها أو الاستيفاق منها. تمرّ مرحلة الصّدمة تليها مرحلة الحنين والشّوق، ثمّ تبدأ تلك النّار المضطرمة في الفؤاد تخمد تدريجيّا. تخبو بين الأضلع، تداريها انشغالات الحياة ومشاكلها، لكنّها لا تنطفئ أبدا. كلّ شيء يولد صغيرا ثمّ يعظم ويشتدّ عوده إلاّ صدمة الموت تكون صاعقة تحلّ على رأسك، فلا تتحمّلينها، ثمّ تخفّ رويدا رويدا ويهون هولها.

لذا الصّبر عند الصّدمة الأولى. اصبري يا ابنتي واحتسبيه عند الله شهيدا، فالشّهيد يا ابنتي يُغفر له عند أوّل دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنّة. واحمدي الله أنّه المقتول لا القاتل، المظلوم لا الظّالم، فالدّنيا كساعةٍ من نهار ثمّ يغرقون في دماء قتلاهم، ولا يعرف عاقبتهم إلاّ ربّ السّماوات والأرض... فلا أعزّ عند الله من النّفس يا ابنتي!

- كلامك بلسم يا أمّي، ولكنّي أشعر بنار الحقد تجاههم، تشتعل في صدري كلّما تذكرتهم، وسمعت أخبار قتلاهم، وشنائع مجازرهم. لن أسامحهم ما تبقّى لي رمق... هم جبناء يا أمّي، قتلاهم الأطفال

والرّضّع والنّساء والعزّل. يباغتون فريستهم في ليلة مظلمة، يختارون الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوّة، لينقضّوا على عُريهم وقلّة حالهم وبؤس أيّامهم... فيمزجونها بالدّماء.

- دعيهم لله يتولّى أمرهم يا ابنتي، "وصفّي قلبك"!

- صفاء القلب... أين أنا منه؟ أتراني أقدر يا أمّي؟!

- لا تطاوعي نفسك يا ابنتي، فالحقد نار وهشيم يأتي على صاحبه ويذره قاعا صفصفا، يحوّل حياته إلى رماد تذروه الريّاح. كم حقدت على قتلة أبيك، على المنظمة السريّة الفرنسية التي ضربت بحلمه عرض الحائط، ويتّمت ولدي وجعلت بيتي خرابا. قتلوه بدم بارد، وهو يجوب جبال المنطقة يبحث عن الثّوار ليلتحق بصفوفهم.

كانت نوبات الهستيريا تفتكّ بي، وتنسيني فلذة كبدي وهو في أمس الحاجة إليّ. كان أخوك حينئذ على وشك أن يتمّ السّنتين. عانى يتم الأب والأمّ لولا خالتك التي احتضنته في أشهر مرضي، ولكنّ الحبّ هو الذي أعادني إلى صوابي، شعوري بك بين أحشائي تتحرّكين وتكبرين لتزيدي عرى ارتباطي بأبيك.

كنتِ الخيط الذي ربطني بالحياة... الحبّ وحده هو الذي جعلني أنسى تلك الصفعة وأصفح... كنت طريقي إلى الشّفاء. اعفي واصفحي يا ابنتي، فلذّة العفو تدوم أبد الدّهر، والحقد والكراهيّة نار تنشب في صاحبها قبل غيره... اذهبي إلى فراشك يا ابنتي بقلب صاف، ودعيهم لمولاهم، وابدئي حياة جديدة...!

8- الفارّ بجلده من هذا الوطن بإمكانه العودة
ساعة استقرّ الوضع. يحجز التّذاكر ويجمع
الأغراض ويحزم الحقائب. أمّا الميّت فلا حقّ له
في شدّ الرّحال والعودة...

كان الصّباح باردا لولا ما تنثره بعض أشعة الشّمس من دفء يسري إلى كلّ جارحة... من العادة زيارة الموتى في الصّباح الباكر، تلك عادة أهل هذا البلد في إكرام موتاهم وتذكّرهم، ثمّ ينفضّون إلى مشاغل الدّنيا، وسبحهم الطّويل الذي لا ينتهي ولا يهدأ له بال، غير أنّ البرد الذي يزيد من تشنّج رجلي أمّي وألمهما أخّر خروجنا إلى حين بزوغ الشّمس وانتشار الدّفء.

أحضرتْ عكّازها الخشبيّ، وطلبت منّي أن أضع فوق كتفيها مثلّثها الصّوفيّ المتّشح بالبياض، المتدلّية شراريبه. ذكّرتني بالقفّة المعهودة كلّما توجّهنا إلى هذا المكان، مملوءة بالصّدقة على الميّت: حبّات التّمر والحلوى والكعك الجافّ وخبز الطّاجين. هي صدقة لزائريّ المقبرة من النّساء والأطفال ومن نصادفهم عند المدخل. وقارورة ماء لتفرغها على القبرين، وتملأ ذلك الطست البلاستيكيّ لتشرب منه الطيور. هذا من عادة أهل البلد للتصدّق على الميّت، ولتغفر ذنوبه ويوسّع عليه في قبره.

غير أنّي خرجت عن أعراف هذا البلد، وأحضرت لك باقة ياسمين اشتريتها من الباعة المتجوّلين. أعلم حبّك لشذاه وتعلّقك بزهره، نتذكّر به قصّتنا معا...

نقترب من المقبرة فتختلط أصوات الباعة من مختلف الأجناس والأعمار، كما تختلط الحياة والموت في هذه البقعة من الأرض. هؤلاء أطفال في العقد الأوّل يعرضون أرغفتهم السّاخنة عرضهم لحاجتهم. وهؤلاء رجال في مقتبل العمر يبيعون مختلف أنواع الخضر، وقد طرحوا بجانبها كيفما اتّفق بعض الثياب القديمة. وتلك نسوة في خريف العمر يفترشن حصيرا يتربعن عليه، ويصنّفن أشكالا من السّتر والجوارب والقفّازات المصنوعة من الصّوف، يتفنّن في مزج الألوان وحياكة التّفاصيل.

نتجاوز حشود النّساء اللّواتي كنّ أكثر الزّبائن، لتطأ أقدامنا المدخل. تخطو أمّي داخل المقبرة خطوتها الأولى ببطء شديد يسندها عكازها الخشبيّ، وهي تتمتم:

- أنتم السّابقون ونحن اللاّحقون.
- فعلا يا أمّي، في هذا الوطن الموت هو المشروع الوحيد المؤكّد الذي يشتغل النّاس به ليل نهار، فتضمحلّ أمامه بقيّة المشاريع.

أسند أمّي حتّى لا تتعثّر بين المارّين. شراريب المثلّث الصوفيّ تتطاير بفعل الرّيح، ونسيم عليل يجوب المكان.

تبدو معالم القبور مختلفة بين قديم استوى ترابه، وحديث لا تزال الأكوام مرتفعة فوقه لم تتماسك، ولم تستو. تعلق هذه المعالم في ذاكرتي، وتجعلني أدرك ضآلة هذه الحياة، فالغنيّ والفقير والصّغير والكبير والقاتل والمقتول كلّهم سينتهون إلى هذا المكان في قبر يعلوه شاهدان أو ثلاثة. وبين الحياة والموت قصص ومسارات،

وفرح وقرح تقضيها أجسادنا المتعبة في رحلتها لتخلص إلى جثوة التراب.

نصل إلى قبر أبي. تجلس أمّي أمامه تقرأ الفاتحة وتدعو له، ثمّ تطلب منّي بإشارة منها أن أفرغ على ثراه بعض الماء، وأملأ الطّست الفارغ ليُذهب ظمأ الطيّور. أشرئب بعد أن أفرغ من الدّعاء إلى قبر ياسين الذي يبعد قرابة العشرين مترا في الناحية الشماليّة. أنتقل إليه لأجلس القرفصاء. معالمه مختلفة، كانت كومة التّراب فوقه تظهر حداثة إقامته.

أبكي بكاء حارّا، وأتذكّر أصابعك التي لم تدفن معك، وينمو حقدي وغضبي. التفت إلى أمّي التي وصلت إلى قبر باسين للتوّ. جلست بجانبي مفترشة التّراب بعد تعبها، رافعة يديها إلى السّماء في هدوء وسكينة تنعكسان على محيّاها.

ترمقني ثمّ تبادر إلى القول:

- وحّدي الله يا ابنتي !
- لا إله إلاّ الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

أقرأ الفاتحة وسوراً من القرآن، فتسكن ثائرتي، وينسحب حقدي إلى قاع سحيق، وتعمّني الطّمأنينة.

- ناوليني الصّدقة قبل أن تخلو المقبرة من الأطفال، فهم الأحقّ بهذه الحلوى وهذا الكعك!

تضع الأكياس الصّغيرة التي وَزّعت عليها المحتويات بالتّساوي في يدّ كلّ من يمرّ بها، وترجو منهم الدّعاء للميّتَين بالمغفرة. تكاد تفرغ

المقبرة من زائريها عدا ذاك المكان الذي يحفر فيه رجلان يافعان منذ ساعة قدومنا. ميّت جديد مغدور به سرقت منه الحياة ليوارى ظلمة الأرض. أَلَهُ زوجة رمّلت وأولاد يتّموا، أم أنّه في أوّل الطريق قطعت عنه الحياة قبل أن يطأها؟

ما زالت باقة الياسمين بين يديّ محافظة على نضارتها لاعتدال الجوّ، بلونها الأبيض الرقيق الآسر. زهرتنا المرهفة الحسّ، القصيرة العمر قصر عمر علاقتنا. ابتعتها قبل دقائق لأضعها بين يديك، بل على قبرك، فوق الثّرى المكوّم على جسدك. أعلم حبّك للياسمين، أتراك تسعد بها وتسعد برؤيتي كما أسعد برؤيتك بل برؤية الحيّز الذي تسكنه، وأعلم أنّ جسدك كائن خلفه، أم أنّ للموتى اهتمامات أخرى تخرج عن هذا النّطاق؟

لم أهدك في حياتك هذه الباقة على علمي بعشقك للياسمين. لم يمهلني القدر لأهبك أيّ هديّة عدا خرطوشة الحبر تلك، ولم يبق لي إلاّ هذا القبر، وصورة عنك بالثّياب البيض بلا حراك محت كلّ الصّور. أضعها في الطست المملوء ماءا ليدوم شذاها وقتا أطول، وأذكر الطّوق الذي أهديتني ذاك اليوم، طوق الياسمين... ويحزنني بل يقهرني اختلاف الموقفين بين حياتك ومماتك. وتغيب كلّ أماكن الدّنيا بسحرها وألوانها وصخبها، وأحنّ إلى هذا المكان الذي يضمّك... إلى حفر ملئت بأكوام التّراب وأجساد الموتى.

رائحة الكافور والعنبر وبرودة الغرفة التي كنت ممدّدا فيها تعلق بأنفي، وصور المعزّين من رفقاء المهنة وهم يتهامسون حول طريقة

اغتيالك، وسحنة المغسّل الدّاكنة، تعلوها قترة وهو يغادر الغرفة بخطى عجلة وسط حشود الحاضرين، لا تغيب عن ناظري.

- أيدفن دون أصابعه المقطوعة ؟!

وزخّات المطر ذاك اليوم تتقاذفها السّماء لتطهّر القلوب والنّفوس... وشعوري بالضّياع يتبع نعشك. لا أعقل جوارحي، فأخرج خلف التّابوت الذي كان يحمله أربعة رجال، يغمى عليّ من الصّدمة بين رذاذ المطر، ولا أشعر بمن حولي وبما جرى لي إلاّ وأنا في المستشفى، وقد شدّ إلى يدي أنبوب رفيع منعني من التّحرّك والاستدارة. وها هي أمّي تجلس بقربي تشفق على حالي، وتنعى حظّ ابنتها في بكاء مكتوم...

الفارّ بجلده من هذا الوطن بإمكانه العودة ساعة استقرّ الوضع. يحجز التّذاكر ويجمع الأغراض ويحزم الحقائب، وتعلو وجهه ابتسامة عريضة، لأنّه سيرى أهله المحترقين من أجل غربته بعد سنوات من النّأي. أمّا الميّت فلا حقّ له في شدّ الرّحال والعودة...

الموت غدرا يقبض على حركاتك وسكناتك لتكون في حالة تأهّب دائم، يملؤك غيظا وحقدا، ويمنعك من التّسليم بقدر الله لتبدأ حياة جديدة بعد فترة من الحداد طالت أو قصرت. يجعلك تشعر أنّ أحدا يرقبك فيحدّ من مدى رؤيتك، فلا تبصر إشراقة الشّمس، ولا زرقة السّماء، ولا تغريد الطيّور وزقزقتها بين أعشاشها والتقاطها لطعامها في الصّباح الباكر، لتختزل الحياة بين دفّتي قاتل ومقتول...

تربت أمّي على كتفي وهي تخاطبني:

- هيّا يا ابنتي وحّدي الله، يكفي بكاء ولنعد إلى البيت!

فور عودتنا واجمتي الملامح، مثقلتي الخطى، نُقر الباب نقرا ضعيفا، أعقبه صوت امرأة تنادي أمّي لمّا استبطأتنا ولم تسمع حركة بالدّاخل:

- افتحي يا أمّ أحمد، أنا جارتك زليخة.

أزيل الحاجز عن العين الزجاجيّة الملصقة بالصّفحة الدّاخليّة للباب. أهمّ لأفتح بعد أن أتأكّد من وجه جارتنا، وهي تقف منتظرة خلفه، وأنا أخمّن سبب قدومها.

كانت امرأة في منتصف الخمسينات، مكتنزة الجسم، مائلة إلى القصر، دقيقة الملامح، بعينين صغيرتين حادّتين، وأنف معقوف وذقن مدبّب، وشقاء يعلو محيّاها تتلقّاه بصبر وجلَد وحزم رأي تظهره علامات وجهها. ترتدي ملاءة سوداء وتضع فوق رأسها لحافا من اللّون ذاته.

كان اللّحاف مستطيل الشّكل، مزيّنا ببعض الخيوط الذّهبيّة التي تناثرت بعض الشّيء، وذهب لمعانها بفعل قدمها. وتنتعل حذاء أكبر بقليل من حجم قدميها الصّغيرتين، تغوصان فيه بأريحيّة. كان الحذاء والملاءة ينمّان عن تغيّر حالها، فقد كانت أكثر اعتناء بمظهرها في سابق العهد.

- تفضّلي يا خالتي منذ مدّة لم نرك أو نسمع لك صوتا. أنت الوحيدة التي وفّيت بحقّ الجار، وسألت عنّا بعد سفر أخي وموت ياسين.

سرّها هذا المدح الذي مهّد لها الطّريق، مبعدا الحرج الذي اعتراها، فابتسمت أساريرها وزال عنها التّرقّب والقلق.

- كنت في "البلاد" في الفترة الأخيرة. شقاء الدّنيا ليس له حدّ يا جارتي العزيزة. ذهبت لمساعدة أمّي في صنع " المرمز". تعلمين يا أمّ أحمد كم تحتاج هذه الصّنعة من جهد وعناء من تفوير وتجفيف وتحميص ورحي وغربلة، ليكون حساء لذيذا في مائدة رمضان، لا تستغني عنه البيوت الجزائريّة.

أحضرته بعد ذلك الكدّ إلى هنا إلى المدينة لأبيعه بنفسي إلى البيوت، فأقتات منه وأقتسم الغلّة مع أمّي مناصفة.

- أعانك الله يا جارتي، لا تنسي حصّتي ككلّ سنة، فأنا أعلم أنّ عملك متقن وغير مغشوش، ولا يضاهيه صنيع امرأة. ولا أحلى من شربة المرمز على مائدة رمضان.

- طلبك على العين والرأس. ليس لهذا السّبب جئتك اليوم... أنت تعلمين حالي يا أمّ أحمد فبعد تقاعد زوجي المبكّر بسبب إنقاص الشّركة لعدد العمّال، خلُصت خدمته بنصف راتبه الشّهريّ، وهو لا يفي بمتطلّبات العائلة وإيجار البيت. وابنتاي على وشك الزّواج، ولا أدري كيف أسدّ مصاريف جهازهما.

- بارك الله لك فيهما، وفي هذا الأجر الزّهيد... الصحّة والعافية يا جارتي...

- ولأجل ذلك لجأت إليك يا أمّ أحمد...أعلم أنّك لن تردّي طلبي. زوجي مريض في المدّة الأخيرة، لذا توقّف عن بيع " الكسرة " التي

أخبزها وأتحمّل عناءها شتاء وصيفا، فصرت أوزّعها على الدُّكانيْن المجاورَين في منعطف الطّريق، فيقتطعان من الرّبح القليل الذي أجنيه مقابل الخدمة. وقد كنت عقدت الأماني على هذه اللّقمة الشّاقّة لتجهيز ابنتيّ، ومع مرض زوجي أجدني مكبّلة غير قادرة على فعل شيء.

صمتتُ أنا وأمّي لا ندري بغيتها من هذا الكلام، وما تريده من طرق بابنا...

- اعذريني يا جارتي فقد قرعت رأسك بمشاكل أنت في غنى عنها، ولكنّي فكّرت مليّا، وجُلت بخاطري في كلّ الاتّجاهات فلم أجد غيرك، وأملي كبير في ابنتك مريم...

تخاطب أمّي وترمقني بنظرات استعطاف وترجّ قائلة:

- أعلم أنّ ابنتك حفظها الله إضافة إلى شهادتها الجامعيّة وعملها في الصحافة تتقن الخياطة مثلك. لذا أطمع في اقتصاد بعض المال، فلو خاطت لابنتيّ بعض لوازم العروس، فتكاليفها جاهزةً باهظةُ الثّمن، لا أقدر على سدادها.
- لكنّي يا خالة تركت هذه المهنة منذ سنوات ولم أعد أزاولها، وتفرّغت للعمل الصّحفيّ.
- أملي في الله وفيك يا ابنتي، ولا زلت أذكر تلك التّنورة التي خطتها لابنتي الكبرى. كانت أتقن وأجمل من الجاهز...

همّت بالمغادرة ورجتني أن أفكّر قبل الرّفض. خرجت ونظرات تمني القبول وعدم ردّها على وجهها المتعب باديةٌ. عقّبت أمّي بعد مغادرة الجارة وإقفال الباب:

- لا تردّيها يا ابنتي، فمن فرّج عن مؤمن كربا في الدّنيا فرّج الله كربه يوم القيامة...

عادت إليّ صورة ابنتَي جارتنا. كانتا تبدوان كالتّوأم رغم أنّ إحداهما تكبر الأخرى ببضع سنوات. فارعتا الطّول، في رشاقة قوام ورثتاه عن أبيهما، وبشرة قمحيّة، وشعر أسود فاحم منسدل انسدال خيوط الحرير. كان جمالهما باديّا وهما في مرحلة الثّانويّة تغدوان وتروحان صباح مساء. ومع كلّ إشراقة شمس تزدادان شبابا ونضارة، ومع رواحهما وغدوّهما تشرئبّ الأعين لجمالهما. هذه بقايا صور عنهما بقيت عالقة في ذاكرتي.

لم تعر الفتاتان الدّراسة كبير اهتمام خاصّة مع طرق الخطّاب لبابهما، فلم تبلغا الثّامنة عشر حتّى صارتا على أهبة الزّواج وتكوين أسرة، بعد أن لزمتا البيت في انتظار الشّريك المناسب. خشي عليهما والدهما من تلك الأعين، ولمّا تقدّم لخطبتهما من اطمأنّ معهما على مستقبلهما وافق على الفور.

كان خطيب الكبرى مدرّسا ورث بيتا عن أهله، يبدأ به حياته الجديدة مطمئنّا. أمّا الصغرى فكان خطيبها مهندسا في شركة بناء يتقاضى أجرا يكفل لها العيش الهنيء. وها هي ذي أمّهما تضيق بها الدّروب لتجهيزهما بعد تقاعد أبيهما ومرضه. صارت الحياة نغِصة

كدِرة مع قلّة ذات اليدّ وزوال الصحّة، لكنّ رباطة جأش جارتنا وحسن تدبيرها كانا مسلك نجاة، يُخرج العائلة ممّا تلقاه من أزمات بين الفينة والأخرى.

كان الأب على خلافها، مبالغا في تدليل الفتاتين أيام سعة حاله، فلا يرفض لهما طلبا. يغدق عليهما بما تطلبانه وما لا تطلبانه، فرحا بهما تكبران أمام ناظريه بعد أن حرم من الولد سنوات. يبذل قصارى جهده لتهنآ. أمّا بعد أن أقعده المرض، فصار يطأطئ الرّأس في قهر، وزوجه تتحايل على الأجر الزّهيد لدفع الإيجار وتسديد فاتورتي الغاز والكهرباء، ومصاريف البيت، وتوفير ما تجنيه من بيع خبز الطاجين لتجهيز ابنتيها.

كانت حازمة معهما. لم ترد أن تربّيهما على سعة ذات اليد، فنشأتها الرّيفيّة القاسيّة التي تعتمد على كدّ المرأة ومرارة اللّقمة علّمتها أن تحضّر الفتاتين للأيّام العصيبة، ولا تركن للأيّام البيض التي عاشتها في كنف زوجها قبل تقاعده. وكثيرا ما انتقدته على طريقته في تربيتهما. لذا كانت تقيم البيت على حسن التّدبير، وتؤدّبهما على ذلك، وعلى اقتصاد الدينار الأبيض لليوم الأسود، تتركّح في المعيشة. وها هي اليوم أمام تغيّر الحال تجد الفتاتين امرأتين صغيرتين صاغرتين لا تمتعضان، وإنّما تسهمان في مساعدتها، ولا تطلبان منها الكثير في جهازهما. ولكنّ الأمّ أرادت لهما جهازا لائقا بما كانا عليه في أعين النّاس من يسر، وبأسرتيهما الجديدتين، فهما ابنتاها الوحيدتان...

شكلٌ للسّعادة

اربط البوصة على معصمك، ولا تلتفت إلى دماء كفّك ولا تأسف على ما أُلقي من بعضك في نهر دجلة، وآتِ بالأشكال البديعة، فهذا شكل السّعادة الذي تتوق إلى أن تقبض عليه.

9- كان وقعها يشعرني بالأمان في كنف أمّي. كانت تبذل ذلك من أجلنا في سعادة عجيبة... ولعلّ حبّها وعطاءها ورقّة أصابعها وهي تمسك المقصّ بيدٍ، وتربت على كتفي باليد الأخرى حين أصحو ليلا، وتهديني قبلة دافئة هو ما جعلني أحبّ قطع القماش وتفصيل الثّياب.

الخياطة... بدأتْ هواية وجدت إلى نفسي منفذا منذ طفولتي، وأنا أكبر على وقع تلك الماكنة كلّ صباح ومساء في بيتنا. هي مصدر عيشنا، أفتح عينيّ وأغمضهما على صورة أمّي جالسة إليها، وأمامها فنجان قهوة معتّقة برائحة الياسمين والقرنفل، تحتسيه على مهل.تنحني لتدخل خيطا في خرم الإبرة، ثمّ تتواصل ضربات رجليها على المدوسة بانتظام لتخيط ثوبا جميلا، تزيّنه بأناملها الرّقيقة بشراشف الدانتيل والحواشي الورديّة، تجعله حلّة العيد، وأنا في غبطة لا مثيل لها، أتراشق وأخي حبّات الحلوى والتّمر والتّين المجفّف التي تحضّرها أمّي إضافة إلى خبز الدّار لصبيحة هذا اليوم الذي ننتظره بشغف طفوليّ يسكننا. تجهّزها في سلّة الخبز الكبيرة المصنوعة من الدّوم، وترسلني في الصّبيحة لأضعها إلى جانب سلال أخرى أمام عتبة دكّان العمّ مختار.

كنّا نتراشقها في سعادة صنعتها أمّي بجهدها وعرقها ليالي طويلة. وتلك ملابس وأغطية تحْضرها الجارات والأقارب وبعض الزّبائن مقابل أجر ندفع به حاجتنا، ونحفظ كرامتنا.

وكم كانت سعادتي عارمة تملأ قلبي الصّغير عندما كنت أجدها بين القماش الحريريّ منهمكة، تبسطه في مَحاكتها تُعمِل فيه مقصّها الأحمر الذي لا زلت أذكره، ودبابيسَها المختلفة الألوان تحكم بها التّصاميم. تنزعها الواحد تلو الآخر من ذاك الشّيء الدّائريّ بحجم كفّ اليد، المصنوع من القطيفة مبطّنا بالصوف، غلّفته أمّي بنفسها ليجمع لها الدبابيس، ويسهّل تناولها كلّما أرادت استعمالها. كان ذاك هو المدبس الذي احتفظتُ به فيما بعد ليبارك تصاميمي.

تتراقص عينايّ بهجة، وأنا أراها تخيط من ذلك القماش المنساب ثوب عروس أكون أوّل من جرّبه خفية عنها، فقد كانت تخشى على تلك الأثواب من الاتّساخ أو التّمزيق أو ما شابه. تدفعنا للّعب بعيدا في غرفتنا وهي تردّد:

- هذه أمانة... والأمانة وصّى عليها النّبيّ.

ولكنّي كنت أهيم بتلك الأثواب... أتصوّرني عروسا أسدل شعري، وأتبختر بالثّوب الطّويل أمام المرآة المشروخة التي رماها أخي بالكرة، فشقّها نصفين ولكنّها لم تهو.

في ذلك اليوم فضحني أخي بصراخه عندما قلت إنّي سأبلغ أمّي عن فعلته. قصد المطبخ حيث كانت، ليسبقني فيعلمها بخطئه غير المتعمّد وأنّه حادث، وبأنّي أعبث بملابس الزّبائن. زمجرت أمّي يومها طويلا وعاقبتنا بالنّوم جوعاً، كما حرمتنا من لمجة الصّباح.

رغم معاقبتها لي إلاّ أنّي لم أتوقّف عن هذه العادة التي كانت تراها سيّئة، أنتهز فرصة غياب أخي حتّى لا يشي بي. أغلق الباب ثمّ أقيس

الثّوب ذهابا وإيّابا، أتطلّع في المرآة المشروخة معجبة بنفسي. كان الشّرخ يقسمني نصفين، فأسعد بهذه الصّورة. قالت أمّي إنّها ستصلحها في الشّهر القادم، فدخل هذا الشهر يسدّ احتياجاتنا بالكاد ولا يزيد عنها.

كنت أتمنّى أن لا تفعل كلّ شهر، أدعو الله أن لا يفضل المال. وقد استجاب الله دعائي ستّة أشهر، استمتعت فيها بالشّرخ، وما يصنعه بصورتي على المرآة. وفي الشّهر السّابع عادت صورتي إلى الاكتمال، فوددت لو كسرها أخي مرّة أخرى، وعدت ألوذ إلى الدّعاء ولكنّه رُدَّ عليّ هذه المرّة...

يعلق بذهني ذاك الثّوب الأبيض المطرّز في جانبه العلويّ بالخرز الذّهبيّ ذي الأشكال الدّائريّة والمستطيلة والمخروطيّة، يلمع تحت أشعّة الشّمس المنبعثة من نافذة الغرفة لمعان أحلام طفلة في مثل سنّي. وكنت أحيانا أضع القماش على جسمي الهزيل وأتصوّر التّصميمات التي تناسبه، ولعل ذلك كان بداية تعلّقي بالقماش والتّصاميم، يعبث بها خيالي الصّغير.

كان ما يربو عن حاجة أمّي من قماش وخرز زادي لتحضير جهاز عروسي الصّغيرة. كانت دميتي هديّةَ أمّي لي في عيد مولدي السّادس، هي من أخيط لها الثّياب، وأنا أحاكي والدتي في جلوسها وحركاتها والنّموذج الذي تعمل عليه. وكثيرا ما كانت تفصّل لي ثوب نومها وتنّورتها القصيرة مع جاكيت من الجينز الأسود، وتعطيني إذا ما تماديتُ في الإلحاح والطّلب الإبرة والخيط، وتراقبني لترى ماذا أصنع

بهما. وإذا ما خربصتُ يشتدّ بكائي، فتحلّ أمّي ما عقدته، وتسوّيه بصبرها قطعة أنيقة تذهلني على مقاس دميتي بالتّمام والكمال... وتراقبني بابتسامتها الهادئة وأنا أعرض على أخي دميتي في ملابسها الجديدة لأغيظه على ما خصّتني به أمّي من عطيّة واهتمام...

كانت دراستنا بمختلف أطوارها حتّى في الجامعة من عرق أمّي التي ما فتئت تقبل الطّلبات على كثرتها، فلا تردّها وإن بذلت مقابل ذلك ساعات من راحتها، تجلس إليها ولا تجلس لأحد، تحرم نفسها من الاستمتاع بحديث أو قيلولة أو سمر أو نزهة، بابتسامتها الهادئة دون تأفّف أو شكوى، تبذل جهدا أكبر مقابل كبر مصاريفنا...

أحببت ذلك الوقع في أذني، وأنا أتذكّر تلك الأيّام... تسارع ضربات المدوسة تَكْ تَكْ تَكْ... تَكْتَكْتَكْ، كان يشعرني بالأمان في كنف أمّي. كانت تبذل ذلك من أجلنا في سعادة عجيبة منقطعة النّظير من غير كلل. ولعلّ حبّها وعطاءها ورقّة أصابعها وهي تمسك المقصّ بيدٍ، وتربت على كتفي باليد الأخرى حين أصحو ليلا، وتهديني قبلة دافئة هو ما جعلني أحبّ قطع القماش وتفصيل الثّياب، وأتفنّن في ابتكار التّصاميم. ومع إتمامي سنوات الجامعة وتعب أمّي بدأت أزاولها مهنة، فكنت لا أرفض الطّلبات التي تدقّ بابنا فاتحة باب الرزق، وأحيك تفاصيل تعلّقي بهذه الهواية في ثوب أو غطاء مزيّن. وكثيرا ما سرّت أمّي بإتقاني لهذا العمل، وابتكاري لبعض الموديلات التي لم تخطها حتّى هي رغم سنوات خبرتها.

كانت أمّي قبل سنوات مزاولتي لهذه المهنة، تعمل دون انقطاع لتوفّر المال، وتحرم نفسها من ثوب جديد، أو راحة في أيّام العطل والإجازات، ساعات نهارها وجزءاً غير يسير من ليلها، لا تعرف سمَرا ولا أحاديث مع الجارات، إلى أن ظفرتْ بجمع مبلغ ماليّ، مكّنها من كراء دكّان على قارعة الطّريق، في الشّارع الرئيسيّ المطلّ على حشود النّاس المتوافدة من كلّ حدب وصوب لقضاء حاجاتهم ومستلزماتهم وابتياع أغراضهم، وعمّرته بمختلف الأصناف من المواد الغذائيّة.

لم نكن نعلم أنّ ذلك الكدّ والتّفاني والحرمان كان لأجل أخي حتّى ترى ابتسامته التي غابت فيما تأخّر من أيّام. كان مرحا مهذارا منكاتا، لا يتوقّف عن سرد أحاديث الفكاهة على مسمعنا، كأنّما جمعت بين يديه جمعا، واسعَ الكفّ على قلّة ما يملك، محبّا للحياة في شكل من أشكال الاستهتار غير مبالٍ بمشاكلها، مقبلا عليها بابتسامته المشرقة كلّ صباح وحين.

- ألم تلحظي يا أمّي أنّ أحمد لم تعد تُسمع ضحكاته بين أرجاء البيت في الآونة الأخيرة؟
- بل لم نعد نشعر بعودته إلاّ عندما نراه على سريره ممدّدا. وقد كان البيت يعجّ حيويّة بقدومه وأحاديثه.

سريرة صافية، وقلب أبيض نقيّ كالثّلج، لا يبيت نكدا أو مهموما. يرمي كل شيء وراء ظهره بضحكة تملأ وجهه، شعاره" وما الحياة الدّنيا إلا لعب ولهو" فلا شيء يستحق أن نحزن لأجله.

- دعي الهمّ يدعك وابتسمي.

كان يقولها لي كلّما وجدني حزينة أو مهمومة، ولكنّي لا أبدي له اهتماما رغم أنّه يثير غضبي، ودون أن أرفع عينيّ عن الأرض أردّ على تدخّله:

- "بارد القلب يموت سمين".

كانت أمّي تلحظ ذلك وتكتمه، وتزيد ساعات عملها اللّيليّة، فكثيرا ما استيقظ عند منتصف اللّيل، فأجد بين يديها قطعة من قماش، وعلى الكرسيّ البارد أمام الماكنة ينحني وجعها، تاركا أثره أسفل قدميها وأعلى كتفها... وها هي في المدّة الأخيرة تلبس نظّارة تسعفها في إبصار سمّ الإبرة وآثار الطباشير التي ترسمها على القماش.

كانت السّبل تضيق بأخي وهو يبحث عن عمل، وهو يقدّم الملف تلو الآخر في أكثر من شركة خاويا إلاّ من شهادته الجامعيّة التي لم تُجد أمام عدم الخبرة، منتظرا الردّ يوما بعد يوم، وشهرا بعد شهر... وها هي ذي السّنوات الثّلاثة تنقضي دون إجابة، وهو يلملم انكساره، وخيبته في إراحة أمّي من طلبات الزّبائن وساعات العمل اللّيليّة. وهي تشعر به وهو يدخل البيت مطأطئ الرّأس منكسر الخاطر أمام وقع الماكنة، فتزيد من ساعات عملها اللّيليّة...

يوم قدّمت له مفتاح الدّكان وأخبرته بالمفاجأة، سكبت عيناه ابتسامة تدلّت على وجهه، وبلغت قامة الرّجل فيه، فمحستها أمّي على عجل، وقالت:

- رجل البيت يشعر بعظم المسؤوليّة...

بكى حينها أمام تعبها وعطائها، ورجاها بعد أن يبدأ العمل في الدّكان، ويدرّ دخلا نقتات منه، أن تدع الخياطة وترتاح... وهذا ما كان... عاد إلى

أمّي الوجه البشوش النّاعم باطمئنانها علينا، وعادت إلى البيت روحُه النّضرة المختزلة في روح أخي. عاد إلى سابق عهده، يزرع قصص الفكاهة في كلّ جانب منه، فتزهر في عينيّ أمّي الدنيا.

يوم جديد، إشراقة جديدة، تؤوب نفسه إلى دأبها في استقبال المرآة قرابة نصف ساعة، يتفقّد فيها هندامه. سروال الجينز -كما يحبّ- يقف في استقامة، منتهيا إلى جزمة رياضيّة بيضاء تكسبه أريحيّة وخفّة، والقميص الأزرق الفاتح يعلوها ، بخطوط أدكن تشطر مساحته الأماميّة إلى مربّعات صغيرة. ها هو ذا يعدّل شعر حاجبيه وشاربه بمشط صغير بنيّ، ثم يحتفظ به في جيبه. وبأصابعه المبتلّة يخلّل شعره، ثمّ يلقي نظرة أخيرة على هيئته في المرآة بعد اللّمسات الأخيرة.

يحتسي قهوته الصباحيّة... ولا يرضاها إلاّ بطقوس بعينها، فإمّا أن يرفقها بكسرة أمّي فيضفي عليها نكهة الزّبدة، بوضع قطعة صغيرة منها في كوب القهوة السّاخن، فتنتشر المادّة الدّسمة على مساحة الكوب، وتضفي مذاقا مميّزا مع كسرة محشوّة بالزّبدة. وإمّا أن ينضخ تلك الكسرة بقطرات من زيت الزيتون بعد أن يحمّصها فوق المدفأة دون غيرها، ليجمع بين القرمشة والطّراوة. وبعد أن يَفرَغ من قهوته ترافقه أمّي إلى الباب الخارجيّ، وعيناها لا تريان من هو أكثر منه وسامة وجمالا، وهي تلهج بدعوات التّوفيق، وتقرأ المعوّذتين وقل هو الله أحد، تحصّنه من كلّ عين حاسدة.

كان هذا دأبه ودأبها أيام عمله الأولى... ظهرت علامات الرّاحة على وجه أمّي، فتخلّصت من آلام القدمين والكتفين. صرت أراها تحتسي

قهوتها المنكّهة بالياسمين وهي تجلس إلى التّلفاز، وصار لها برامج تخصّها. كما تفسّحت في أداء بعض الواجبات العائليّة، وفي سؤالها عن الأهل والجيران. كانت فرحة أخي تعلو بيتنا، وترتسم على وجوهنا أساريره في بهجتها، ولا تسعنا الدّنيا... قالت أمّي حينها إنّها لم تعش هذه السّعادة منذ أن مات أبي، تاركا لها طفلين وجرحا غائرا في الأعماق...

عاد ربّ البيت آخر الأسبوع بمختلف لوازم العشاء، طالبا منّا إعداد وجبة دسمة للاحتفال بربح الدّكان في الأشهر السّتّة الأولى. كان موقعه استراتيجيّا، وكان أخي بابتسامته الدّائمة، وتفانيه في العمل، وفرحته بعطاء أمّي مصدر جذب للزّبائن. يقضي ساعاته بين طلباتهم، ويغادره مساء يعلو محيّاه الرّضا على تعب يومه، وتزيّنه فرحتُه.

كانت أمّي في تلك الأجواء تستعيد عافيتها، وحياتها السّابقة قبل إجهادها بأعبائنا، تقبل الطّلبات على كثرتها فلا تردّها. عادت إلى تزيين مائدتها بكسرتها التي تنبعث رائحة نضجها أمتارا في زقاق الحيّ، وكسكسها اللّذيذ بمرق الخضر وحبّات الحمص الجيّد الاستواء، بعد أن تفتله بيديها وتقضي الأيّام في تجفيفه، أو المسفوف بلبن البقر. وثريدها الذي تخبزه رقائق بيدين تقطران زيتا، ثم تفتّته بأصابعها لقيمات صغيرة الحجم في قصعة العود، ترفقه بمرق الدّجاج، فإن غاب ذلك وتعذّر، فالحليب المالح مع بعض الزّبدة وفتات البيض المسلوق تسكبها عليه لتنكّهه...

كانت لمسات أمّي على هذه الأطباق واضحة، تضفي عليها خصوصيتها، وترتبط في أذهاننا بطفولتنا البريئة. كانت تلك المائدة التي تضعها في فناء الدّار بعد أن تفرش حصيرا يجمعنا على بساطتها تلفّنا بالسّعادة وتغمرنا سكينة في كنف أمّي...

كان أخي طموحا في توسيع عمله، بعيد الأفق في ما يراه من مستقبل الدّكان، كأنّما أراد أن يمسك دنيا التّجارة بين يديه، فلا يقف إلاّ بعد أن يحقّق أحلامه التي لم يكن يحدّها حدّ. قد خوّله دبلوم التّجارة لأن يدير المحل أحسن إدارة، ويستغلّ ما يربحه فيما ينمّيه لا أن يكنزه. حلم أن يكون له مركز تجاريّ ضخم يضاهي المراكز العالميّة. واستفاد من مبادئ الماركتينغ التي تهتمّ بكيفيّة تسويق السّلعة وعرضها بما يجذب الزّبون.

لم يكن يركن إلى الرّوتين حتّى في ديكور المحلّ، بل يضيف بعض الإكسسوارت التي تشعرك بانتعاشة التّجديد، والمفاجأة التي يحدثها منذ الخطوة الأولى التي تضع فيها قدمك في الدّكان، تجذبك بداية كلّ موسم في حلّة جديدة وتنسيق بديع يذهلك. وهذا ما كنت أشعر به في بداية كلّ سنة أزور فيها أخي في موقع عمله، فلمسات الجمال التي يتركها على الأشياء تربك أيّ زبون، ثمّ تشدّه وتجبره على البقاء واقتناء حاجياته.

كان تخصيص القسم العلوي لملابس الأطفال بمختلف فئاتهم العمريّة فكرته التي استحسنها الزّبائن، حيث كان في الأصل مخزنا كبيرا ومستودعا للسّلع.

حدّثنا بأنّه سيكتري مكانا أوسع من عدّة طوابق عندما تزداد أرباحه، فيخصّص القسم السفليّ منها للتّرفيه عن الأطفال بلعب كثيرة سيّارات ودمى وأراجيح... وتكون المساحة المقابلة للوجبات السريعة يقضون أجمل الأوقات فيه. كانت أحلامه تمتدّ إلى الغد الجميل، يخطّط لها ويتفانى في تعبيد الطّريق إليها بابتسامته الدّائمة في استقبال الزّبون وتفانيه وأفكاره الطّريفة...

كانت أيّام السعادة والهناء تنقضي سراعا كبرق خاطف، تفلت من عدّ أصابعنا، وكان القدر حليف أخي يفتح له أبواب الغنى على مصراعيها موسّعا تجارته، ناقلا لها إلى حيّ أكثر رقيّا من محلّه الأوّل. اتّسع رزقه فاشترى شاحنة لنقل البضائع، وها هي أمّي في تلك الأمسيّة الصّيفيّة تسأله أن يدلّها على فتاة جميلة من عائلة محترمة لتُقْدِم على خطبتها:

- لا بدّ من إتمام نصف الدين يا بنيّ.

قالتها يومها تجسّ نبضه، ومع ابتسامة أخي مظهرا علامة الرّضا انطلقت أحلامها بين زغاريد ومدعوين، ثمّ أحفاد تجلسهم على ركبتيها وفي حجرها. تداعب هذا، وتضع في فمّ الآخر قطعة من الحلوى، وتسأله أن يكفّ عن البكاء ريثما تحضر كنّتها. تصوّرتهم كُثرا بكثرة أمانيها، مرحين بمقدار مرح ابنها، وأصحاب دعابة وخفّة دم كأبيهم...

10- من يا ترى رآه في تلك اللّيلة المشؤومة مطأطئ الرأس ذليلا، لا حول ولا قوّة له، والأيدي الملطّخة بالدّماء تطاله، فتستولي على عرقه قبل أن يجفّ، وتركنه إلى الخوف، وإلى الخطيئة يعضّ أصابعه ندما؟

لقد كبرت بعض الحشائش على قبرك بعد أن ارتوت الأرض مطرا. أجلس قبالتك وبأصابعي أنتزعها وأدفعها جانبا حتى تشعشع نبتة إكليل الجبل، أزيحها من هذه الحياة كما أُزحت برصاصة غادرة. وبقلب منكسر تفلت مدامعي ما أمسكته بعض الوقت أمام أمّي، تنساب نفسي على مرأى البصر بين حفر تنتظر أن تملأ، وأخرى ملئت بأكوام من تراب تسكنها جثث باردة، أو هياكل ذهب عنها لحمها أو رفات نخرة، فتهدأ هذه النّفس بين جوانحي لمّا ترى هذا المآل...

باقات الياسمين التي أهديتك إيّاها كلّ جمعة لم يبق منها إلاّ بعض من رسمها، وشذى لا يشمّه غيرنا... صارت هي الأخرى شيئا من الماضي. وأرى الأحياء المنكبّين على موتاهم دِمنا تبكي دمنا سبقتها... كلّ الكائنات مصيرها إلى الفناء في مكان ما من بطن هذه الأرض الرّحبة . تلك الأصابع التي داعبت بالألوان والريشة بياض الورقة، وكتبت عن هموم هذا الوطن، عن اغتيال الإنسان فيه، عن اغتيال الأماني الدّافئة ليحلّ محلّها تثاقل عن الحياة، بل خوف منها وترقّب للمجهول. تلك الأصابع التي تحلّلت أينما كانت أو التهمها أحد الهوام، فليس في الأمر

كبير أهميّة بعد أن زهقت روحك، وانتهت إلى العدم في انتظار البعث وعودتهما إلى جسدك...

كان تصوّر البعث راحة لي... يومها يقف أصحاب الأيدي الطويلة القذرة أمام ضحاياهم من العزّل والأطفال والرّضّع، وحتّى البهائم التي تخبّطت في دمائها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. سيُقتلون بعدد قتلاهم، وتعاد إلى أجسادهم الحياة ليُقتلوا مرّات أخرى بما أزهقوا من أرواح، وما ألحقوه من ظلم بالأبرياء من النّاس. سيكونون في ظلمات ما بعدها ظلمات... سيلقاهم قتلاهم ينهشون جلودهم، ويفتكّون منهم أرواحهم، ثمّ يُلقَون في قعر لا قرار له، حيث النّار تكاد تميّز غيظا.

أوّل قتل على وجه الأرض كان بين أخوين بفعل قابيل باسطا يديه لأخيه هابيل غيرة من تقبّل الله لقرباه. كانت قربى هابيل ضرعا، أمّا قابيل فكانت قرباه زرعا. أتت النّار على الضرع علامة على القبول، في حين تركت قربى قابيل على حالها لم تمسسها نار، فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله، ثمّ لم يدر ما يفعل بجثمانه إلى أن بعث الله له غرابا يبحث في الأرض، فوارى أخاه التّراب متحسّرا على فعلته...

ثاني قتل... وثالثه... ورابعه... اعتاد الإنسان على مشهد الدّم وعلى الخيانة والغدر والخطيئة، ولم يؤرّخ للمرّات المتتالية كمّا أرّخ لفاجعة هابيل. حروب ودمار يفتك فيها الإنسان بأخيه لأتفه الأسباب... حرب البسوس حرّكها العُجب والخيلاء اللّذان دفعا زعيم القبيلة إلى منع ناقة أبناء عمومته من الاختلاط بإبله فرمى ضرعها بسهم أودى بحياته، وأشعل فتيل الحرب بين القبيلتين الأختين لأجل ناقةٍ أربعين

سنة جرّتهما إلى الفناء والدّمار... ثأر المهلهل لأخيه كُليب كم لترا من الدّماء أراق حتى يبرد الحقد فيه، ولكنّه لم يكن يزيد إلاّ تعطّشا للدّم والقتل.

حلاوة الصفح تدوم دهرا، ولذّة الانتقام تتأجّج ساعة ثمّ تذر صاحبها في ندم العمر كلّه.

حرب داحس والغبراء... فَرسان أقيمت الدنيا لأجلهما وأقعدت في سباق خيل، أثارا حربا طويلة منتنة بين الإخوة كادت تفنيهم عن بكرة أبيهم، لأنّ فرسا لُطم على وجهه فوقع في الماء حتّى لا يحوز الرّيادة... كانت الغيرة والرغبة في السّبق والسّيادة شراراتٍ تدفع إلى التّقتيل، ولا مُوقف لها ولو كان آصرة الدمّ والقرابة...

حرب الأوس والخزرج بين أبناء العمومة، الفتنة الكبرى... الحروب الصّليبيّة، الحربان العالميّتان، القضيّة الفلسطينيّة، مختلف أنواع الاستعمار... الحروب الأهليّة والإبادات الجماعيّة... يجد الإنسان في كلّ تلك المواقف القتلَ حلاّ بسيطا ينهي به صراعه بكدمة قويّة، أو عصا غليظة أو سيف بتّار أو سكين قاطع أو قنبلة ذريّة أو نووية... تعدّدت أدوات الجريمة والموت واحد... من أجل امرأة أو أرض أو عرض أو فرس أو عقيدة أو فكرة أو تعصّبا لموقف...

تفنّن الإنسان في القتل فكان غيلة بيد الغدر وخُفاتا يخفي أمره ويداريه متصيّدا الفرص، وفتكا يجاهر بالإثم... خنقا أو ذبحا أو نخعا... هو أسهل الحلول في يد الأقوى لإسكات الخصم إلى أبد الدّهر، عوض محاورته وإقناعه أو إيجاد حلول أخرى... وفي كلّ مرّة يَتبع القتلةَ الأولى

تقتيل لا تُعلم نهايته، ثأرا وانتقاما وحميّة وردّ اعتبار، وتتّسع رقعة الدّم لتطال كلّ من على الأرض فتلطّخه.

لأوّل مرّة بعد بكائي أنتبه إلى أمّي الجاثية قرب قبر أبي، تسقي شجيرة إكليل الجبل التي تفرّعت غُصيناتها فوق القبر واتّسعت مخضرّة نضرة. كيف اجتمعت الحياة والموت على هذه الرّقعة من الأرض على صغرها... تحت الثّرى رفات أبي وفوقه أينعت الحياة في هذه النّبتة. أرى أمّي تسهو لبعض الوقت فأسألها عمّا تفكّر به فتجيب في حسرة ويأس:

- أخوك... قد اشتقت إليه. أشعر أنّي سأدفن قرب قبر أبيك دون أن أراه. لقد لاح لي البارحة في الحلم من فرط اشتياقي. كان يقف مبتسما ابتسامته المعهودة...

تغرس بكلامها سكّينا حادّا في صدري فأنتفض من مكاني لأردّ عليها:

- لا تقولي هذا يا أمي... أطال الله عمرك ومتّعك برؤيته.
- هيهات يا ابنتي مع ما يمرّ به البلد. لم يَترُك لي حتّى ولدا أُملِّي خاطري منه، وأدسّ وجهي في صدره لأشتمّ رائحة ابني كلما اشتقت إليه وضاقت بيّ الدّنيا.
- أنت تعلمين أنّ زواجه كان مستحيلا، لقد فرّ بجلده من الموت... فاحمدي الله أنّه لا يزال حيّا، وفي كامل وعيه، وسيمتلئ البيت بأولاده عاجلا أم آجلا...

تحمرّ عيناها المجهدتان من الانتظار وتغرورقان، فتنسكب الدّموع على وجنتين ضامرتين أخذت التّجاعيد طريقها إليهما. أَهُمُّ إلى مسحها

ومعانقتها، وهي تتلفّظ بكلمات الاشتياق في مرارة وقهر تذبحاني، ولا أقدر على إراحتها ولا دفع ألمها. تُسْلِم نفسها إليّ كطفل صغير مبتلّ بدموعه، سُرق منه أعزّ ما يملك.

- لقد فرغت المقبرة من زائريها، علينا أن نعود إلى البيت يا أمّي!

- اتركيني قرب قبر أبيك، فهذه هي البقعة التي أشعر فيها بالسّكينة.

نقضي الصّباح كلّه بين قبرين، وبكاء غائب نترقّب عودته، وبعد أن تهدأ نفسها تمسح وجهها بمنديلها القطنيّ، ثمّ تهمّ بالنّهوض طالبة منّي أن أسندها. أمسك بيدها حتّى تستقيم، ثمّ يسعفها عكّازها على النّهوض، أنفض تراب المقبرة العالق بثوبها، ثمّ أمسك يدها لنجتاز الممرات الضّيّقة بين القبور سالكين الطّريق الأقصر للخروج من المكان.

أصادف على قارعة الطّريق الصّبيّ الذي اعتادني زبونة دائمة كلّ جمعة أبتاع منه باقة ياسمين أضعها على قبرك. لم أره هذا الصّباح، وبعينين ترجواني يسألني إن كنت أرغب في شرائها. أمسك عن الكلام وأشير برأسي بالنّفي، وأشيح بنظري عنه إلى أمّي لتفقّد حالها خشية أن تتعثّر. لا يتركني الصبيّ ويلحّ بعينيه الرّاجيتين:

- أمّي مريضة لذا لم آت في الصّباح الباكر...

أشفق عليه، وأناوله قطعا من المال، ولا آخذ الباقة...

- احتفظ بها هديّة منّي إليك... قدّمها إلى أمّك شفاها الله!

يغتبط الصّبيّ غبطة بريئة، فيشكرني بحرارة تمتلئ بها شفتاه في ابتسامة طفوليّة عذبة، ثمّ ينصرف إلى حال سبيله جذلا...

كان الطّريق عسيرا على أمّي التي ازدادت تشنّجات رجليها بعد تلك الجثوة الطّويلة في المقبرة. تمتنع عند العودة عن تناول طعامها رغم إلحاحي، وتكتفي بقرصي الدّواء تتجرّعهما على مضض، وتمرّرهما بكوب من الماء، ثمّ تتمدّد على سريرها لأدهن رجليها من أعلاهما إلى أخمصهما بمرهم مسكّن للألم. تشعر بالارتياح إثر التّدليك، فتغفو لبعض الوقت بعد تعب الصّباح.

أمّا أنا فأنسحب في هدوء لأتقوقع على الكنبة القديمة في الغرفة المقابلة، وأقضي مسائي هناك. أتوسّد مخدّتي، وفي لحاف رقيق أتكوّم، ويحضرني وجه أخي ليلتها. كان ينتفض كالطّائر الجريح ويتلفّظ بجمل لم نفهم منها إلاّ بعض الكلمات...الشّاحنة...البضائع. تسأله أمّي:

- ما بال الشّاحنة والبضائع؟ أسرقتا؟

ثمّ تردف لمّا ترى سوء حالته في هلع ولهفة:

- فداك بنيّ...

كانت ليلة عصيبة قضيناها نحن الثلاث، تكاثرت فيها علامات الاستفهام واستطالت لتطوّقنا. ناولنا أخي مسكّنا ومخفّضا للحمّى بعد أن ارتفعت حرارته، وأخذ في الهذيان ساعات اللّيل الأولى، ثمّ سكت بعدها مستسلما للنّوم العميق بعد سريان مفعول الدّواء. استيقظ صباحا في وقت متأخّر إثر اللّيلة السّابقة، عاد إلى أمّي لونها الطّبيعيّ بعد أن رأته يتكلّم ويجلس إلى طاولة الإفطار. أعادت عليه سؤال البارحة حول الشّاحنة والبضائع فأجابها بعد إنكار:

- لا تقلقي يا أمّي مجموعة لصوص حاولت أخذ الشّاحنة منّي في اللّيلة الماضية، وأنا أهمّ بإدخالها إلى مخزن المحلّ، لولا أن اللّه لطف حيث مرّت دوريّة شرطة تتفقّد المكان، فهربوا كالجرذان.

تهلع أمّي هلعا شديدا بعد أن يروي لها الحادث، تخور قواها ولا تقدر ركبتاها على حملها. تجلس أرضا في شبه وقوع، ولمّا تستفيق من أثر الصّدمة تقول وهي تبكي:

- الحمد لله على سلامتك بنيّ، أبعد الله عنك أولاد الحرام...

يخرج إلى عمله ولا نراه إلاّ ليلا على غير عادته مشغول البال، شارد الذّهن، كأنّما على رأسه الطّير. تعود إليه الحمّى ويرفقها الهذيان في اللّيلة الثّانية... الشّاحنة...البضائع...السّكّين! كانت الكلمات التي أعادها حتّى اقتراب الفجر. ترتعد فرائصه، وأمّي تبكي لحاله تخشى عليه ضياع العقل أو مسّا من الجنّ...

جلست بقربه اللّيل بطوله تقرأ على مسمعه المعوّذتين وقل هو الله أحد وآية الكرسيّ وهي تضع يدها على رأسه، يهدأ قليلا ثمّ كلّما انتفض هلعا هلعت معه، ثمّ عادت إلى قراءتها ودعائها تستجمع ما تناثر من سكينتها وهدوئها... ولمّا ازدادت حالته سوءا استنجدت بجارنا تطلب منه إحضار طبيب. حاول تشخيص حالته، ولكنّه لم يصف له سوى مسكّن للحمّى إلى أن يكشف عن علّة هذا العارض. طالبنا بإجراء بعض التّحاليل التي أكدّت سلامته الجسديّة، وأنّه لا يعاني من أيّ مرض عضويّ، ونصحنا بطبيب نفسيّ، ولكنّ أخي رفض عيادة الطّبيب النّفسيّ.

وتتتالى اللّيالي حالكة بنوبات هلع وهذيان وترداد للكلمات ذاتها، ولا ندري ما نفعل سوى الدّعاء له. تسأله أمّي:

- ما بال السّكين بنيّ؟

يتلعثم ولا يشفي غليلنا بردّ، فتعيد عليه السّؤال في اليوم الموالي بعد أن يهدأ، فيردّ عليها بقوله:

- كان أحد اللّصوص يحمل سكّينا كبيرا هدّدني به ووضعه على رقبتي لولا أنّ الله لطف.

علقت تلك الصّورة بذاكرته تقلق مضجعه كلّ ليلة، يعود إليه الهاجس حينما يحلّ الظّلام فيهذي بالكلمات ذاتها... تلازمه الحالة بضعة أيّام يذهب نهارا إلى المحلّ، ويغيب إلى المساء على غير ما ألفناه منه، ثمّ نبيت ساعات من اللّيل على حالة واحدة بين هذيان أخي ونشيج أمّي. نحدجه بأبصارنا، ولا نقدر على فعل شيء...

كنّا نرى تغيّر حاله ولا ندري سببه إلى أن عاد ذاك اليوم المشهود مساء في وقت متأخّر على غير عادته، مرتجف الأوصال يطلب منّا أن ندثّره، وهو يخفي وجهه تحت اللّحاف، ويطلب منّا إطفاء الأضواء وإحكام غلق الأبواب... كان ينظر إلى الباب بين الفينة والأخرى بعيني المترقّب الهلِع، ثمّ يعود إلى دسّ رأسه تحت اللّحاف مردّدا:

- تلك الجماعة أخذت البضائع مرّة ثانية...

علمنا بعد أن زال توتّره أنّ هؤلاء اللّصوص الذين حاولوا سرقة الشّاحنة كما ادّعى مخفيا حقيقة الأمر، كانوا في الواقع جماعة مسلّحة جاءت للمرّة الثّانية تطلب منه المؤونة من الغذاء تحت تهديد

السّلاح، فملأت شاحنة صغيرة وانصرفت، وما يزال وقع السّكين على رقبته، ومنظر المسلَّحين يقفان عند مدخل المحلّ يقضّان مضجعه.

الأيدي الطّويلة الملطّخة بالدّماء تهدر دمك، وتسرق عمرك، وتلغي عقلك، وتجعلك على حافة الجنون دون أن تملك أن تقف أمامها، أو تعترض أو تسأل عن السّبب. تفرض عليك توقيت نومك، إذ عليك إطفاء النّور، وسدّ منافذه لأنّها ستمرّ في حيّك أمام بابك وتراه، فتعتقد أنّك لم تخلد إلى النّوم، وقد تكون تراها وتترصّد خطواتها، لذا عليك أن تغفو باكرا بحظر التّجوّل المفروض عليك قصرا...

كان الظّلام اللّون الذي يستهويهم، يحيكون فيه دسائسهم ويجبرونك على العيش فيه وتقبّله. وكان أخي إذا ما جنّ الليل بين هلع وجزع شديدين تحت اللّحاف، وصورة السّكين تحزّ رقبته في برود، فيتطاير خوفه شظايا يدمي أفئدتنا...

أخذت الحياة في بيتنا مسارا آخر ما كنّا نتصوّره يوما. اعتقدنا أنّ تلك الأيدي بعيدة عنّا، ونحن بمنأى عن شرّها، تصلنا أخبارها عبر نشرات الثّامنة وممّا يتهامس به النّاس. أمّا أن تمتدّ إلى عقر دارنا فهذا ما لم نتصوّره، فبعد أن استقرّ أخي في عمله، واتّسع رزقه، وارتاحت أمّي من أعباء المسؤوليّة التي أثقلت كاهلها، بدأ كلّ ذلك يتلاشى مع كلّ غروب شمس وسريان للظّلام.

كان النّهار فسحة له، تتثاقل فيها خطاه نحو المحلّ لبيع بعض الحاجيات. لم يعد الشّاب الحيويّ بصدره المفعم بحسّ الدّعابة.... أين الضّحوك منه، لم لا يدع الهمّ فيدعه كما كان يقول؟ قضت الأيدي

الطّويلة على خفّة نفسه وجمالها، لتثقله بخطاياهم، وتقّبحه برزاياهم، صار شخصا باردا ميّت الرّوح. يقول مثل صينيّ: "إنّ الذي لا يحسن الابتسامة، لا ينبغي له أنْ يفتح متجراً"، لذا قلّ زبائنه مع عدم انتظام فتح المحلّ، وشرود ذهنه، وتغيّر معاملته لهم.

تغيّرت طباعه، وتعكّر مزاجه، وأهمل مظهره الخارجيّ، ولم يعد يعبأ بتسريحة شعره، أطلق لحيته وأرسلها على طبيعتها. قُتل في نفسه الشّاب الذي كان يقف لساعات أمام المرآة، وحلّ محلّه عجوز هرم، يحمل كفنه بين يديه منتظرا موته، فلا يعبأ بالعالم من حوله ولا برؤية الآخرين له...

نسيت أمّي الموعد الذي ضربته لأهل الفتاة التي أبدى أخي إعجابه بها. كنّا سنزورها لتحديد موعد الخطبة، أُلغيت تلك المشاريع، وصارت حلما بعيدا يستحيل تحقّقه بل التفكير فيه، وارتدت الحياة ثوب القتامة والدّمامة...

وذات يوم وهو في محله بعد مغادرة أحد الزّبائن يجد ورقة صغيرة على مكتب الدّفع... يفتحها فإذا هي رسالة من مجهول تتضمّن تهديدا بإبلاغ الشّرطة عن تعامله مع إرهابيين ومساندته لهم بالطّعام والمؤونة. بهت أخي وذعر، من عساه يكون صاحب الرّسالة، من يا ترى رآه في تلك اللّيلة المشؤومة مطأطئ الرّأس ذليلا، لا حول ولا قوّة له، والأيدي الملطّخة بالدّماء تطاله، فتستولي على عرقه قبل أن يجفّ، وتركنه إلى الخوف، وإلى الخطيئة يعضّ أصابعه ندما... تورّطه في دماء الآخرين رغم أنفه، وهو صاغر لا يحرّك ساكنا.

أراد له من تلصّص عليه تلك اللّيلة المشؤومة ذلاّ أكبر وانكسارا أشدّ، بَصُر بجرحه في تلك اللّيلة الظّلماء ولم يتدخّل. واليوم يضع يده على الجرح لا ليضمّده، بل ليذرّ فوقه مِلحا فيتلذّذ بوجعه وآهاته...أم تراه يريد مساومته على السّكوت، فلا يفضح أمره إذا ما أجزل له العطاء... أم تراه سيشي به ليقضي بقيّة حياته خلف قضبان السّجن، يترصّد نسمة من نسائم الحرية إذا ما تخلّلَتْ تلك القضبان، يروي بها ظمأً ويحيي فؤادا...

كبرت مخاوفه، وأخذت الهواجس طريقها إليه، تقضّ مضجعه ومضجعنا. قلّت ساعات نومه، وفرغ بطنه إلاّ من لقيمات تقيم صلبه، يخشى من أيّ طارق، يتصوّره شخصا من تلك الجماعة يبحث عن مؤونة، ويترك صدره خاويا إلاّ من الهموم...أو رجلَ شرطة سيعتقله، ليقضي ما تبقّى من حياته خلف القضبان الحديديّة. كان سجن أفكاره ومخاوفه مطبقا عليه أشدّ الإطباق. غيّر شخصه وصبغه بما ليس فيه، متوتّر، قلق، طريد هواجسه، شريد، يقبع بين جدران البيت، ولا يرى الآخرين إلاّ أحدا يتعقّبه ويتربّص به...

قاطع العالم الخارجيّ الذي لم يبق منه سوى صورتين بالأسود: صورة الضاغط بسكّينه على رقبته، وصورة المهدّد بكلماته وشهادته على ما رأى من تعاونه مع تلك الأيدي. كان التّهديد واقعا عليه من الطّرفين، وبينهما يقف بلا إرادة أو قدرة، مهدورة إنسانيته، مجبرا على تنفيذ ما يطلبه الآخرون من مصّاصي الدّماء تحت تهديد السّلاح، يفعل ما يريدون وإن رفضه رفضا مطلقا.

تتحايل عليه أمّي لكي يغادر البيت برفقة أصدقائه، ليرى الوجه الآخر للحياة، لكنّه أضحى يشكّ في كلّ شخص يعرفه أو لا يعرفه، يظنّه على دراية بقصّته، وهو من خطّ تلك الرّسالة... كان يلازم غرفته، وتحت اللّحاف يعيد قراءتها متسائلا عن القدر الذي ساقه إلى هذا الدّرب، وهو ينكر تورّطه في إمداد تلك الجماعة المسلّحة بالطّعام، ويتساءل عمّا يسهم فيه الآن من قتل للأبرياء. لم يغفر ذلك لنفسه ولو كان مهدّدا. تمنّى لو رفض ولقي حتفه، بدل أن يستسلم لإرادتهم، ويكون لهم معينا.

صارت أخبار الموت في نشرات الأخبار تقع في مسمعه وقعا مختلفا عن المعتاد وتعصر قلبه ألما، صار يشعر بمسؤوليته تجاهها. أحسّ بالكراهيّة نحو نفسه والاحتقار... تقزّز من فعلته. انتابه الغثيان ورغب في التّقيّؤ، تكاد أمعاؤه تقتلع من جوفه، تتقلّص وتنقبض... وها هو يحاول أن يمسك نفسه حتّى يصل إلى الحمّام فيرجع ما في أمعائه وهو يئنّ...

- ليتني أستطيع أن ألفظ ما فعلته كما ألفظ ما في جوفي...
- تمنّى ذلك من صميم قلبه محدّثا أمّي، ضاجّا بالبكاء كطفل دون الخامسة...
- ما ذنبك بنيّ، الجرم يقع عليهم.

باعت والدتي ما تبقّى من لوازم المحلّ لنفقات من عائدها، ولتقطع السّبيل أمام تلك الجماعة، وبعد أشهرٍ انتهى الأمر بالمحلّ إلى الإغلاق، وبذلك انقطع باب الرّزق الذي وفّر لنا قدرا من السّعة في فترة قصيرة

ولّت. ولمّا طال الوضع، عادت أمّي إلى جلوسها إلى ماكنة الخياطة. كنت أساعدها بين الفينة والأخرى على تفصيل الثّياب. عادت إلى الاشتغال عليها بعض ساعات اللّيل باسطة القماش في محاكتها.

كان وقع المدوسة في غرفة أمّي يدقّ في أذني أخي دقّا عنيفا، ويزيد من توتّره، فلطالما حدّثها عن رغبته في أن تدع هذه المهنة التي أتعبتها، طالبا منها إراحة بالها ليتكفّل بإعالة البيت من دخل المحلّ، ولكنّ أيام الراحة والسّعادة كانت قليلة سريعة كالبرق، وها هي أمّي تعود إلى انحناءة الظّهر ووجع القدمين. هي اليوم مع ما جدّ تشعر بمرارة القهر من ظلم تلك الجماعة التي صيّرت أخي إلى هذه الحال، وأغلقت باب الرّزق أمامنا تاركة أبواب الهمّ والتّوتّر مشرعة. كان وقع المدوسة يذكّره بعجزه وقهره...

11- الغراب المشؤوم الملطّخ بالدّماء ينقر رأسه مرّة أخرى صائحا: لا تكن كهابيل ولا تعد إلى فعلته فتستسلم لأخيك، لك أنت أيضا حقّ الحياة والبقاء... ابسط يدك إليه لتقتله كما بسطها إليك. نل بغيتك فاللّه تقبّل قربانك وترك قرباه، واتركه في العراء مُلقى أرضا، مهزوما، ولا تلتفت إليه أو تحزن.

صار رجلُ البيت رهين محبسيه: البيت ومخاوفه... تلبّد شعره، وطالت لحيته، واحمرّت عيناه من قلّة النّوم وتحوّل محجرهما إلى هالة سوداء مفزعة. ضمر جسده شيئا فشيئا، وهو يقضي جلّ وقته في إعادة قراءة تلك الرّسالة، مترصّدا أيّ طارق.

- ماذا نفعل يا ابنتي إزاء ما يحدث لأخيك؟

تبدي لي أمي حيرتها فيما يقع، فأردّ عليها بالسؤال ذاته:

- ما عسانا نصنع يا أمّي؟

شعرت أمّي بالقهر حياله لا تدري ما تفعل، تبكي خفية وهي تخيط طلبات الزّبائن بإقفال باب غرفتها، وإذا ما سمع وقع المدوسة يزداد هياجه، وتسوء حالته، ويعود إلى ترداد ما وقع في تلك اللّيلة المشؤومة في عبارات لا تفهم أكثر كلماتها... كانت تتصيّد فرص نومه حتّى تخيط تلك الطلبات.

بين الخوف والقهر قضى أشهرا من حياته... وكان في كلّ مرّة يحاول أن يخرج من هذا الوضع بمغادرة البيت يلقى تهديدا على شاكلة الأوّل،

يعيده إلى حالته أو أسوأ. مَن هذا الذي يتربّص به الدّوائر، ويزجّ به في هذه البوتقة المظلمة التي لا يقدر على الفكاك منها؟ من هذا الذي يعلم بخروجه، فلا يتركه ينهض ممّا هو فيه إلاّ ليكيل له ضربة أوجع؟

كبُر توتّره فاحتواه ولم يعد يرى في الدّنيا غيره، وصارت كلّ أوقاته في غرفته منعزلا في عالمه المظلم الذي يقتطعه باللّحاف، وإذا ما سمع وقع المدوسة رفع صوته بالصّياح، ورطم حائط الغرفة بأيّ جزء يواتيه من جسده، برأسه أو مرفقيه بعصبيّة شديدة، وحالة هستيريّة تركت عليه خدوشا وكدمات. تغيّرت هيأته، ولم يعد الشّاب الضّحوك مليح النّكتة، بل صار عبوسا نكدا بعينين منقوفتين يحيط بهما السّواد، وشعر أشعث بعد أن كان يقضي قدرا من الوقت في تسريحه.

بكت أمّي قهرها وقهر أخي... هذه الحياة البئيسة التي نُزجّ فيها دون إرادة، تلك الأيدي التي تحوّل مسار حياتنا إلى هذه الشّاكلة من الانحدار. لم تنس بعدُ ما تكبّدته في سبيل كراء ذلك المحلّ لتبعث الابتسامة على محيّاه، وترمّم انكساره بعد سنوات التّخرّج دون شغل أو هدف. تذكّرت عذابها بعد أن تركها والدي وحيدة مع طفلين، تلك السّنوات التي حملت أعباءها تترقّب أن يصير الوليد طفلا، والطفل فتى، والفتى شابّا يافعا، تعدّ الليالي تنتظر الفجر الذي طال موعده... فلمّا آن موسم الجني تأتي يد البطش والغدر لتنقضّ على تلك الأماني، تبتلعها وتمتصّ عرقنا، وتحكم شدّ الطوق علينا...

بكت فيه والدي الذي سرقت أحلامه غضّة، وشبابَها الضّائع، وراحةَ بالها وطمأنينتها. كأنّما كانت تلك الأيدي تتعقّب نجاح أمّي ونجاحه،

وفرحتنا الغضّة البسيطة لتكسر جناحيها وتحطّمها... كان داءاً عضالا ألمّ بنا، ولا ندري كيف نبرأ منه...

تحت اللّحاف يقضي السّاعة تلو السّاعة يعيد قراءة الرّسالة، بعد أن يطلب منّا إحكام غلق البابين، باب غرفته والباب الخارجيّ الحديديّ. موت بطيء ينخر رأسه ويأتي عليه، ويصيّره إلى شخص آخر غير الذي نعرف. تلك الشّاحنة اللّعينة وذاك السّكين الذي وقع على رقبته وكاد شريانه يفور دما، لا يزال يتحسّس أثره... أيّ ورطة زُجّ فيها، وأيُّ قيد أدمى معصمه وفؤاده، وصيّره مغلوبا على أمره!

كانت أمّي، مستعجلة طلب الزّبونة، تجلس في غرفتها إلى الماكنة . توصد الباب وتضع في أسفله قطعة من موكيت قديمة بنيّة اللّون، تقلّل من تسرّب الصّوت. تتسارع ضربات المدوسة تَكْتَكْ تَكْتَكْ... تتسارع ضربات قلبها، تخشى عليه وقعها ولا تجد من ذلك مناصا... وكان هو دقيق التّوجّس، ينتظر طرقا على الباب يقصده، فكان وقع المدوسة ينزل على رأسه المثقلة بالخوف والقهر أطنانا من الخيبة والمرارة، ولا يقدر على تلك الأثقال والرّزايا، فتخرّ الدّنيا بصروفها ونوائبها عليه.

يوتّره الوقع، فيصرخ العجز فيه والقهر مجتمعين صيحة واحدة: الشّاحنة... البضائع... السّكين. ليتها لم تكن...لا محل ولا بضائع ولا شاحنة، بل ليتني لم أُكن أصلا حتّى أُشرَك في تلك الدّناءة، وأكن ليد الغدر معينا. يرطم رأسه بالحائط فيدميه. تسمع أمّي الصّوت فتهمّ

إليه تهدّئه وتمسح الدّم عن رأسه، وتبكي قهرها، والظّلم الذي لحق أخي، وشدّة حاجتها إلى الخياطة.

كشف التّهديد الأخير عن هويّة صاحبه... كان موقّعا بـ "صديقك القديم صهيب". لم يستطع أن يكتم حقده ويتخفّى أكثر. أراد أن يزهو بفعلته أمامه ويقول له ها أنا ذا. ذكّره بحقوق الصّداقة عليه عندما شهد يوما قبل سنوات ضدّه في قضيّة السّرقة... سرقة حبّات الموز من دكّان ذلك الفاكهانيّ الموجود في الحيّ المجاور. فقد رآه أخي بأمّ عينيه وهو يتوارى بحبّات الموز، يأكلها بعيدا خلف أشجار البرتقال، ويترك القشور هناك. لم تك أوّل سرقة له...

تسبّبت هذه الشّهادة في معاقبة والده له أشدّ العقاب. أذكر تلك الحادثة رغم أنّي كنت أصغر سنّا، فقد قام بضربه بأنبوب مطاطيّ غليظ أمام الملأ دون شفقة. لقد صبّ جمّ غضبه عليه بحضرة ذلك الفاكهانيّ، متأسّفا على سلوك ولده الذي وصم جبينه بالعار. كما حرمه من مصروفه، وصار يتندّر به بين فتيان الحيّ.

حمل صهيب حقده على أخي وتنامى معه، وازداد كرهه للمدرسة وللأماكن العامّة التي كان النّاس وقتئذ يلوكون فيها هذه القصّة. كانت تلك الشّهادة فضيحة له رغم أنّه كانت له سوابق أخرى، ولكنّه لم يكن يترك أثرا خلفه. كما أنّ أقرانه كانوا لا يشهدون ضدّه خشية بطشه.

كان قويّ السّاعدين على صغر سنّه، طويل القامة، أهوج، أرعن، عنيفا في كلّ فعل يأتيه... لا يرغب في شيء إلاّ ناله ولو بالسّطو وقوّة

الذراع. وكثيرة هي المرّات التي سطا فيها على ما في يد أقرانه في المدرسة من أدوات غالية الثّمن، أو حلوى لذيذة لا يستطيع والده إحضارها له، أو لعب صغيرة أخفوها عن أعين المدير والمعلّمين بدسّها في محافظهم أو جيوبهم، ولكنّهم لم يكونوا قادرين على أن يخدعوا تلك العينين الحادّتين اللاّمعتين في اكتشاف كلّ ستر ومكنون، ولا ذلك الأنف الذي يشمّ روائح ما لذّ وطاب من لمجات أقرانه، خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بالشكولاطة الغالية الثمن وسندويشات الفلفل المقليّة مع قليل من الدّجاج المتبّل...

قاطع المدرسة بعد تلك الحادثة دون أن يعلم أهله. كان يحمل المحفظة كلّ صباح مدّعيّا أنّه يقصدها إلى أن أُرسل إلى والده الاستدعاء بعد انقطاع شهر في السّنة النّهائيّة من المتوسط. انتظره عند باب العمارة برفقة ابنه ليسأله:

- أعلم بُنيّ صدقك وصراحتك، أخبرني منذ متى لم يقصد صهيب المدرسة، وأين يذهب طيلة اليوم؟
- لم أره منذ ثلاثة أسابيع أو أكثر في القسم، بل كان يقصد تلك الحديقة ليدخّن برفقة جماعة من رفقاء يكبرونه ببضعة أعوام لم أرهم من قبل في المدرسة.
- أيّة حديقة؟
- حديقة البرتقال خلف سور المدرسة.

شدّ أذنه بشدّة حتّى احمرّت وركله بغضب وساقه إلى البيت وصياحه يملأ الشّارع. حكى أحمد لأمّي الحديث الذي دار بينهما فمنعته أن يحدّثه إذا لم يحسّن سلوكه ويلتزم بدراسته.

عُرف أخي بصدقه وصراحته مهما كانت العواقب كما علّمتنا أمّي. كما لم يكن يخشى عقابه وبطشه الذي عرف به بين زملائه، فقد كان صديقه الحميم في مرحلة الابتدائيّ، وبينهما ودّ قديم ظنّه متجذّرا...

ازداد حقد صهيب على أخي، وهو يظنّ أنّه يصلح حاله، ويسدّ منافذ الشّر في نفسه، ويقوّم اعوجاجه، لكنّه في حقيقة الأمر كان يغذّيها وينفخ فيها، فتضطرم نار حقده وغضبه... كان كضلع أعوج إذا ما أردت به استقامة كسرته، وأدميت يديك بخدوشه. فرّ الفتى من البيت لعدّة أيّام، ووالده يحترق لأجله باطنا، ويتوعّده ظاهرا أمام النّاس، ووالدته تبكيه وتناشده العودة. وعندما تجاوز غيابه الأسبوع اشتدّ حزنهما ويأسهما، فوعدا بعدم عقابه أمام الملأ إن عاد إليهما، كما تنازلا عن مطالبته بالالتزام بالدّراسة.

عاد صهيب وقد نال بذلك ما أراد، فلم يمتحن الامتحان النّهائيّ، وكان مصيره الطّرد من المدرسة، والتّشرّد في حديقة البرتقال مع رفقاء السّوء، وبذلك نال حريّته متخلّصا من أيّ التزام. تحصّل أخي على شهادة المتوسط ثمّ على شهادة الباكالوريا لاحقا بدرجة امتياز، وفرحت أمّي بهذا النّجاح فأقامت جلسة (قهوة) على شرفه، دعت فيها الجارات.

كان حقده ينمو بنجاح أخي ودخوله الجامعة. كان يترقّب مسار حياته، ومع سوء الوضع الأمنيّ سمعنا باختفاء صهيب لأكثر من شهر، ثمّ انتشرت أخبار مفادها أنّه التحق بجماعة مسلّحة في جبال الولاية المجاورة، ثمّ ما فتئ أن صار أميرا عليها بعد أن قُتل أميرها في مداهمة عنيفة مع الجيش، وصار المدعو أبا مصعب...

انتهت سنوات دراسة أخي في الجامعة، متوّجا بأحسن معدّل على مستوى دفعته. كرّمته الجامعة بشهادة رمزيّة ووسام عرفان. رفعت أمّي هامتها بهذا التّفوّق بين الجارات مفتخرة بصنيعها، وسنوات كدّها التي لم تضع سدى. وكانت أمّ صهيب تعقد المقارنة بين ابنها الهارب المطرود من الدّراسة وأخي، تحسده بنظراتها وكلماتها، فلِم لا يكون ولدها مكانه، وقد كانا صديقين في صغرهما؟!

تصل أخبار أخي إلى صهيب، ويرقب نجاحه في المحلّ ثمّ توسيعه إلى مكان أرقى، وكثرة زبائنه وحبّهم له. ويعلم بشرائه للشّاحنة، ويحسب عليه دخله وربحه المتواضع، ونفسه المريضة تكيل له المكاييل، وتدسّ له السّمّ، وتحفر له الفخّ تلو الفخّ، حتّى إذا ما وقع غرزت فيه أنيابها على حين غرّة. أراد أن يسرق منه نجاحه، ويدسّ هامته في التّراب، كما دسّ هو رأسه في الوحل بأفعاله الشّنيعة منذ مرحلة المراهقة.

كانت مداهمة تلك الجماعة المسلّحة ليلا من تدبيره... أرادت نفسه المريضة أن تجعله يرتعد، ويصطكّ فكّاه، ويهذي فرَقا. أراد أن يُريه أنّه بإمكانه أن يَطاله ليجعله في الحضيض، وإن علا مقامه واتّسع رزقه. لم يستطع أن ينسى شهادته، أراد أن يُريَه أنّ ذاك الفتى المطرود من

المدرسة الذي شهد ضدّه في قضيّة السّرقة، هو الآن يمسك بزمام الأمور بقبضة من حديد ونارٍ... ناصيته بيده، يدير حياته كيفما شاء بمجرّد إشارة منه. يستولي على كدّه وتعبه بتهديد السّلاح، ويخلّف له القهر والمخاوف وتأنيب الضّمير، محطّما مستقبله.

لم يستوعب أخي أن يكون صديق الطّفولة هو من سرق غلّته، وألبسه لباس الخوف بما صنعت يداه، وهو سبب معاناته. حزّ في نفسه أن يقابل صهيب صنيعه على هذا النّحو.

- كنت صادق النيّة يا أمّي في شهادتي عندما سألني والده، وفي حادثة السرقة، صافي السريرة فيما أردت له من خير. لم أرد أن يرافق هؤلاء المطرودين من المدرسة ويصير مثلهم. وما تصوّرت أبدا أنّه سيحقد عليّ ويضمر لي العداوة يوما، ويحمل لي كلّ تلك الضغينة في صدره طيلة ما مضى من سنين.

- لا عليك يا بني كنت صادقا معه، لكنّه اختار تلك الطريق. وليس عيبك أنّه حقود.

تذكّر صداقته أيام كانا يلعبان بتلك الكرّة التي كانا يصنعانها بجمع العشرات من أكياس الحليب، يطلبانها من والدتهما بعد تنظيفها، ثمّ يضغطانها في بعضها البعض في شكل كرويّ، ويحكمان شدّها بقطعة سلك معدنيّ. يقصدان ذلك الحيّز التّرابيّ الذي كان يتّخذه أطفال الحيّ ملعبا محليّا يفي بطموحهم الصّغير. كانا يصنعان الفوز معا بهذه الكرة اليدويّة.

حتّى بعد دخولهما المرحلة الابتدائيّة كانت حصّة الرياضة مرّة كلّ أسبوع فرصتهما للفوز إذا ما اجتمعا في فريق واحد. كانت الكرّة التي توفّرها المدرسة غير كرتهما من أكياس الحليب، تحدث فرقا بيّنا يؤثّر على اللّعب، ويجعلهما ثنائيّا متكاملا. كان أخي أميل إلى التّخطيط، وصهيب إلى التّنفيذ بقوّة جسده واندفاعه، وقد شكّلا مع عناصر أخرى فريقا متميّزا إذا ما أجريت مباراة ضمّتهما في ذلك الملعب الترابيّ، بما جمعاه من قوّة الهجوم والاندفاع والعقل المخطّط. فكانت محل استقطاب أطفال الحيّ، يقصدون المكان للتّشجيع والاستمتاع.

كان صهيب يملك قوّة اندفاع كبيرة على صغر سنّه، ومهارة كمُنت في قدميه، في سرعة بداهة في ركل الكرة وتمريرها في الوقت المناسب، لتكون هدفا في مرمى الخصم. كان من الممكن أن يصير لاعب هجوم ممتاز لو لقي الاهتمام، وسنحت له الفرصة.

كانت تلك الكرة المطاطيّة التي تصنعها يداهما جامعا مشتركا بينهما، يبثّ في نفسيهما روح التّعاون والتّكامل، إلاّ أن صهيب يترك الرّوح الرياضيّة في الملعب، ويحمل معه اندفاعه وطبعه الهجوميّ منطبعا بصفات كانت محل الخلاف بينهما. كان لصهيب صفة لازمته منذ صغره، واستعصى على أخي تغييرها رغم صداقتهما، ولطالما نصحه بتركها ولكنّه لم يتخلّ عنها. لاحظتها من خلال ما حكاه لي عنه.

- لم يكن يملك نفسه أمام ما يعجبه من أشياء الآخرين فينالها بالسّطو والقوّة. كان يبطش بصغار السنّ والجسم في المدرسة، وعند كلّ سطو على لمجة أحدهم أو لعبته كنت أنهاه عن ذلك، ولكنّه لم

يكن يتقبّل نصيحتي، بل يدعوني لأشاركه فيما غنمه باقتسام لمجته أو مشاركته اللّعب.

- إيّاك وأكل الحرام وظلم الآخرين، كُلْ لمجتك ولا تمتد يدك إلى لمجات زملائك مهما أعجبتك إلاّ إذا أعطاك أحدهم نصيبا منها.

كانت أمّي تحذّره من عواقب هذه الصّداقة كلّما سمعته يتحدّث عنه. وفي مرحلة المتوسّط كبرت الهوّة بينهما، فلم يكتف صهيب بعدم الأخذ بنصائح صديقه، وإنّما صار يعيّره بأدبه وصدقه في إنكار تصرّفاته أمام زملائه ويقول له:

- أنت شخص ضعيف وجبان.

كان يتصوّر أنّ الأطفال الذين كانوا من عائلات غنيّة أو ميسورة ينعمون بأكثر ممّا يحتاجون إليه، وهذا البذخ وكثرة اللّعب والثياب الفاخرة يجب أن يناله الفقراء من الأطفال:

- ما ذنبنا إن كان أولياؤنا لا يقدرون على توفير متطلبات الحياة لنا. لذا فإن لم تعط لنا هذه الحقوق فيمكننا أخذها ولو عنوة، فمن الظلم أن يتمتّعوا بما غلا ثمنه من الثياب والأدوات المدرسيّة واللّعب ومختلف أنواع السّكاكر، ولا يملك الفقير في يومه قطعة حلوى صغيرة، بل تكفيه كسرة الخبز الحافّ، والمحفظة القديمة ذات الرّقعتين، وسروال أخيه الأكبر الذي تغيّر لونه من كثرة الغسل.

كان أخذه ما في حوزة الآخرين مرضا تأصّل في نفسه يوما بعد يوم، يجد له المسوّغات التي تبرّر فعلته، وهو ما كان حائلا دون استمرار صداقتهما، غير أنّ أخي رغم ذلك كثيرا ما كان يذكر حنوّه وطيبته،

عندما كانا يقضيان المساء في تقاذف الكرة في ملعب الحيّ، فيتطاير الغبار على جسديهما الصّغيرين، ويصيران أشعثين أربدين، ممّا يجلب لهما المتاعب عندها يعودان إلى البيت.

كان بيت صهيب أوّل البيوت في الشّارع الأوّل من الحيّ. كانت أمّه تستقبله بالصّراخ والضّرب على ملابسه المتّسخة، ولمّا تنهي عقابها وتنصرف لأشغالها البيتيّة، ينادي صهيب أخي ويعطيه دلو ماء خفية لينظّف يديه ورجليه، ويخلّل شعره، فلا يناله من العقاب والوعيد ما ناله، ثمّ يواصل سيره إلى الشّارع الخامس بعد بيت صهيب.

كبر الصديقان... لم يعد أخي مهتمّا بالكرة، جامعهما الوحيد، بل انقطع إلى الدّراسة ولم يعد يرى صهيباً أو تربطه به علاقة، غير أنّ ذلك الأثر الطيّب هو ما علق بذهنه، ولم يتصوّره يؤول إلى هذا المصير بسبب شهادته التي كان دافعها الصّدق، وإصلاح شأنه بعدم إخفاء أفعاله عن أبيه لعلّه يرتدع، وما ربّتنا عليه والدتي: إيّاكم والمال الحرام... وشهادة الزور.

رآه يوما يخرج كيس الموز الذي كان يدسّه في محفظته، ليقتسمه مع رفقائه في حديقة البرتقال. كانت شهادته فاصلة في هذا الموقف، وسببا فيما ناله من عقاب. وهي اليوم بعد كلّ هذه السّنوات وباء على أخي الشّاهد بالحقّ، تصيبه بالسّهاد وهو يفكّر في عواقبها.

ازدادت حالته سوءا وفقد ثقته بالآخرين. نما شعوره بتأنيب الضّمير حيالة تلك الشّهادة في الماضي وما نجم عنها في الحاضر، وحيالة تورّطه مع الجماعة المسلّحة متسائلا عن حياته ومصيره.

لم تعد له حياة أخرى خارج ذلك اللّحاف، يغطّي رأسه ويعيد قراءة التّهديد الأخير الموقّع بقلم صديقه القديم صهيب. صورة القضبان الحديديّة في السّجن بين ناظريه المتعبين، وذاك السّكين ينغرز في رقبته، فينهمر الدّم فائرا يغمره في لحظات...

كان الغراب أسودَ، أشدّ ما يكون عليه السّواد منتوفا بعض ريشه، يضرب بمنقاره رأس أخيه الغراب المضرّج بالدّماء بعد أن قتله. كان يشرب دمه، وينهش لحمه، وينقف رأسه كالفرخ ينقف البيضة بمنقاره ليطلّ على الحياة. وفي اليوم الموالي يعود فيجد جثّة أخيه في العراء فلا يخفيها أو يدفنها، بل يعمد ثانية إلى الدّم اليابس على ريشه ينقره متلذّذا بما يصنع. كان الغراب أسود أشدّ ما يكون عليه السّواد، ملوّثا بدم أخيه نتنا...

يفيق من نومه بعد أن غفا، ورأسه مدسوس تحت اللّحاف والورقة بين يديه. ينادي أمّي هلعا، وهو يتصبّب عرقا ليقصّ عليها رؤيا الغراب شديد السواد.

يستعصي عليه النّوم إذا ما خلد النّاس إلى الرّاحة من تعب النّهار، لتسكن أنفسهم وأجسامهم، يخشى أن يرى مجدّدا الغراب المشؤوم الذي علق بمنقاره ورجليه دم أخيه المتروك في العراء دون أن يواريه التّراب... كان نتن الرّائحة تتقاسم ما تبقّى منه الطيّور والحشرات. تحمر عيناه من أثر السّهاد، وتسودّ الهالة المحيطة بهما. ولمّا لم يغمض له جفن تلك اللّيلة ابتلع في اللّيلة الثانية قرصا منوّما لعلّه ينال راحة استعصت عليه.

كان الغراب الحالك كظلام دامس قائمَ ريش الرّأس، محمرّ المنقار ينحدر الدّم منه قطرة بعد قطرة. يقترب منه وينعق نعيقا حادّا ليشدّ انتباهه، ولكنّ أخي يتجنّب النّظر إلى عينيه المحمرّتين، ويسدّ أذنيه في حركة عصبيّة. يدنو منه أكثر وينقره، فيبتلّ رأسه بالدّم العالق بمنقاره فيدفعه بيده. كان غراب الشؤم يوبّخه، ويحثّه على قتل أخيه قبل أن يقتله، فهذا ليس صديق الطّفولة وإلاّ لما فعل بك ما فعل. لا تعد إلى ما فعله هابيل ذات يوم من استسلامه لأخيه!

الأخ يراود أخاه ويسأله عن قربانه الذي أكلته النّار، وأبت أن تقرب قرباه. يحمل سكينا يراوده ليقتله، فيمتنع وهو يصيح:

- لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك...

الغراب المشؤوم الملطّخ بالدّماء ينقر رأسه مرّة أخرى صائحا:

- لا تكن كهابيل ولا تعد إلى فعلته، فتستسلم لأخيك دون أن تدافع عن نفسك... لك أنت أيضا حقّ الحياة والبقاء... أبسط يدك إليه لتقتله كما بسطها إليك، نل بغيتك فاللّه تقبّل قرباك وترك قرباه، واتركه في العراء مُلقى أرضا، مهزوما، ولا تلتفت إليه أو تحزن. دعه لهوام الأرض تأتي على سوأته، وانصرف لحياتك غير آسف... لا تعد إلى فعلة هابيل، فتكن ضعيفا مستسلما منهزما... دافع عن نفسك!

يدنو الأخ منه في يده تلك الكرة المصنوعة من أكياس الحليب مغبرة بالتّراب، وفي اليد الأخرى السّكين التي تقطر دما. يعود أخي إلى الوراء مردّدا:

- لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك...

يكرّرها مرّات.

يتفصّد جبينه عرقا وتبتل وسادته... كان إذا ما استفاق ممّا يتراءى له كلّ ليلة استقبلته الرّعدة، فارتجف لَحياه، وتصبّب عرقه، وتتابع نفَسه، وأصابته الرُّحضاء حتّى ابتلّت ثيابه ولزمته الحمّى، وتربّد وجهه ثمّ علاه شحوب، وتباطأت كلماته، وخفت صوته وهو ينادي:

- أشعر بالبرد يا أمّي دثّريني...دثّريني.

تعانقه أمّي وتهدهده، وتعود بها الصّورة إلى يوم كان صبيّا محموما، تقرّحت لوزتاه من أكل المثلّجات خفية عنها... تضعه في حجرها وهو يتألم، ويبثّ شكواه إليها، وتحاول أن تمسك بالألم وهي تتحسّس رقبته بيديها الحانيتين. وتتذكّر ما يطلبه منها كلّما أصابه التهاب اللّوزتين. فقد عوّدته أن تسلق له بيضتين تتّخذهما كمّادة وهما ما تزالان ساخنتين، أو تضع في قطعة قماش رقيق مقدارا من الملح السّاخن يؤدّي الوظيفة ذاتها. كان يشعر بالرّاحة وهي تفعل ذلك لذا يطلبه كلّما مرض... أمّا اليوم فماذا يا ترى تفعل لتضمّد جرحه، وتكمّد ألمه؟

يعيد علينا ما تراءى له في منامه، يقصّه مرتعدا مردّدا قوله: لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك...

ترى أمّي حاله فيزداد خوفها على عقله، وتخشى من سطوة أبي مصعب وحقده على حياته. لقد طال فرحتنا ومسرّاتنا على قلّتها ليشركنا في قذارته رغم أنوفنا. خشيتْ أن تفقده في زمن هذه الأيدي التي تطالك لتسحقك كذبابة... شعرت أنّ المعركة معركتها، فقد

ضربت بجهدها في السّنوات الماضية عرض الحائط، لتصيّر أخي إلى ما هو عليه من الاضطراب والتّوجّس.

كانت تخيط الثياب في صمت، مشتّتة الفكر تحت وقع المدوسة، تسهر اللّيالي داسّة قطعة الموكيت أسفل باب غرفتها، وقطعة أخرى منها أسفل باب غرفته. كان صوت المدوسة صوت العجز والقهر في داخله. مطرقة الرّأس كانت تفكّر فيما عساه يكون الحلّ.

ينقضي اليوم واليومان، والأسبوع الأوّل يتلوه الثّاني والحال على حاله، مرتميةً على فراشها بلا حراك، مهمومة البال . تركت أعمالها على الماكنة واختلت بنفسها عسى الذّهن يخلو، فيسعفها بما يخرجها من محنتها...

- ذاك هو الحلّ، أن ينأى عن هذا الحقد، ويبدأ حياة جديدة خارج هذه الأرض التي صارت تلفِظ أبناءها، فتضطرّهم إلى الهجرة، أو تدسّهم بين أضلاعها وتلتهمهم في أحشائها، فلا يبقى منهم إلاّ مجرّد ذكرى وقبر يحمل شاهدين وشهادة وفاة...

تراقصت الفكرة في عينيها وعلى صفحات ذهنها وهي تذكرها لي، وركنت إليها تأمل فيها الخلاص والسّكينة...

- نعم، هذه هي، يجب أن يرحل في أسرع وقت، سينتشله ذلك من حافة الجنون. أعلم أنني سأحترق بغيابه، وأنه سيعاني في غربته، ولكنها الضّرورة، وأرض الله واسعة، يجب أن يرحل ولو أقام على حوافي بيوت الآخرين يحقن دمه ويحفظ روحه ملتفًا في معطفه البارد، تقرص مفاصلَه لسعاتُه، ولا تغنيه اللّقمة الزّهيدة الباردة،

ضامر البطن يبيت على الطّوى ويظلّه، ولكنّه رغم تلك الحياة الضّنكة ينجو من يد الغدر، ويحيا ما قدّره الله له أن يحيا.

- لكن، إلى أين يا أمّي، الأمر ليس بهذه البساطة، يحتاج إلى المال في سفره، كما يستدعي تأشيرة عزّ مطلبها في هذه الأيام، وإجراءاتها تحتاج إلى وقت طويل لا نملكه.
- يا ألله، رحمتك، هذه أكبادنا تمشي على الأرض.
- لكن، لماذا لا يسافر إلى تونس، أو إلى ليبيا، لا يحتاج الأمر إلى تأشيرة، ولا إلى وقت، فقط يستقل أوّل حافلة إلى تونس أو طرابلس، وليستقرّ بين إخوانه وأهله هناك، فهم إخوة لنا في الدّين والدّم واللسان، حتى تهدأ نفسه، وتستقرّ وضعيته، ثم ليتدبّر أمره بعد ذلك، فأنت أعرف بأحمد وحسن تدبيره.

جمعتْ أمّي بعض ما ادّخرت من مال بعد بيع مقتنيات المحلّ، وباعت قرطها على مكانته في نفسها، فقد كان هديّة أبي في عرسهما، وأعدّت العدّة لأخي حتّى يستقلّ الحافلة اللّيلية المتّجهة إلى ليبيا من محطة الخرّوبة رفقة أحد الجيران، لعلّها بهذا تدفع عنه الموت وتحفظ ما تبقّى منه...

وفي مساء اليوم الموالي حزمت حقيبته في سريّة تامّة بدمع منهمر تدفعه، وتُمنّي نفسها بأنّ في ابتعاده الخير كلّه، بدل أن يلازمها وهو على حافة الجنون والموت. وأعطته مبلغا ماليّا يكفل له العيش الكريم في أيّامه الأولى، بعدها سيتدبّر أمره كبقيّة شباب هذا البلد الفارّين بحياتهم وما تبقّى من عقولهم... وسرّبت قولا لجارة سليطة اللّسان،

حتّى تنشر بين الجارات في العمارات المجاورة أنّه سافر إلى الصحراء بحثا عن عمل.

في ذلك المساء الكئيب بكينا بكاء حارّا ملؤه القهر... قهر الإنسان في هذا الوطن واغتيال أمانيه. لكن رغم شعورنا بالقهر يذبحنا من الوريد إلى الوريد كنّا في حالة اطمئنان عليه في بلاد الآخرين، ممّا عساه يصيبه في هذه الأرض. شدّدت أمّي في توصية جارنا على أخي، لما رأت فيه من اضطراب وتوتّر، بعد أن أعطاه الطبيب مهدّئات، وطمأنها بأنّه سيرتاح إذا ما ابتعد عن سبب الأزمة. كان سفره راحة لنا وله، رغم أنّه لم يعد يجمعنا سقف واحد، ولا أرض واحدة...

وبعد أشهر من استقراره في طرابلس حدثنا عن أهلها وطيبتهم، وكرمهم وحسن طباعهم، وعمّا حباهم الله به من أمن ومال وعيشة رغيدة، وأنه لا يشعر بالغربة بينهم، وقد صنع لنفسه رأسمال صغير يريد أن يستثمره في أمر من الأمور، فقد أسرّ إلي -بعد أن ائتمنني على الأمر إلى حين- بأنّ الله أخذ بيده وقد يسّر له سبيلاً للسّفر إلى أوربا، بعد أن تعرّف في عمله على موظّف يعمل في مصلحة التّأشيرات في القنصليّة الإسبانيّة.

12- أرى وجهي وقد تغيّرت ملامحه عمّا كانت عليه قبل سنة، أكان لبضعة أشهر -على قلّتها- كلّ هذا الصّنيع، أم هو فعل البشر القذر الذي يشيب له الولدان؟ هل يبلغ تأثير الخطوب ونوائب الدّهر هذا المبلغ في رسم تفاصيل هيآتنا؟ وهل تعمل الحوادث والصّروف ريشة في يد رسّام تعكس قتامة القلوب وبؤسها على صفحات الوجوه؟

زهدت أمّي بعد حديثها عن حلمها الجميل بأخي في تناول طعام العشاء في اليومين المواليين لزيارتنا للمقبرة، رغم ما أحاول بثّه في البيت من روح الفكاهة.

- فقط هذا الطبق الصغير من الأرز.

- لا أقدر يا ابنتي...

- تذوّقيه أوّلا، طعمه لذيذ.

كانت ذكرى أحمد الفارّ بجلده وما تبقّى من إنسانيته تنغّص عليها أوقاتها، وتوقظ في أعماقها حزنا يصعب محوه، بل قهرا يدفع دمعها لأن ينسكب دون أن تقدر على إيقافه.

سطت على ذاكرتها صورته في توتّره وهذيانه، وهي تتحسّس ناصيته وأنامله وأصابع رجليه المرتعشتين، وصورة السّكين الواقع على رقبته تنغرز في فؤادها الذي لم يعد يحتمل، وتشهق بالبكاء كلّما تذكّرتها، وتصوّرته غائرا في شرايين عنقه، والدّماء تندفع منه دون توقّف. تعود بذاكرتها إلى تلك الأيّام التي تلت سفره حيث أصبح فؤادها فارغا،

تحدّثني عنها ولا تدري أتبكي غيابه، أم تفرح لأجله، وتحمد الله على نجاته من شفير الموت والجنون.

كانت الخياطة في تلك الفترة من الغياب والفراغ وسيلتنا في طلب الرّزق والنّسيان. كانت روح أخي قابعة بين جدران البيت وغرفه... هذه صورته وهو يجول بقامته الفارعة وسروال الجينز الأزرق وجزمته الرّياضيّة، وهو ينثر أحاديثه ودعاباته. صورته بيننا لا تزال تسكن الديّار كما تسكن القلوب، وها هو ذا يطرق الباب عائدا من عمله، فيقبّل رأس أمّي، ثمّ يسرع إلى المطبخ ليسألني عمّا أعددت للغداء... صار اليوم مجرّد ذاكرة متعبة حزينة، تنبش في أرض خربة مثقلة...

يجفوني النّوم على عادتي كلّ ليلة، ونبش الأحزان يوصلني إلى صورتك، وتسطو الثّياب البيض على بقيّة الصّور ككلّ مرّة، ولا تستطيع ذاكرتي الفكاك منها. أتصوّرك والثرى يُنثر عليك، وأنت ترقد في صمت وسكون وثبات كما كنت تقف في حياتك. ويكوّم عليك مغطّيا جسدك في مثواك الأخير. هذا الجسد الذي عبث به دود الأرض الذي يأتيه رزقه حيث يكون.

لا يبقى منك إلاّ الرّوح بين جوانحك تنتظر البعث بعد أن رأت مقامها أشقيّة أم سعيدة. قد خلا ذهنك من مشاغل الدّنيا وترّهاتها التي تضمحلّ أمام تلك اللّحظة البرزخيّة. يأخذني تفكيري إلى أسئلة كثيرة عن الإنسان في ذاك المقام... عن روحه ومشاعره، وما يحبّ ويكره، وما يرى ويسمع ويُكشف له... عن حدود الزّمان والمكان والجسد لديه... وتحيط بي الاستفسارات من كلّ جانب، وأودّ أن أجد إجابة عنها.

الحياة كذبة كبيرة صدّقناها ولهثنا وراءها فألهتنا عن الحقيقة الكبرى التي تعقبها. الحياة قشر، فلِم نشتغل به عن اللبّ؟

فوق التّراب معالم مختلفة، وحدود ندركها بأمّ أعيننا وسائر جوارحنا، وتحته حيث الجسد الفاني والرّوح الباقيّة حياة على شاكلة أخرى، وإن بدت ساكنة خامدة، فهي في انتظار بعث لحياة باقية لا ظلم فيها ولا تقتيل... الجزاء فيها من جنس العمل. يحلو لي هذا المقام البرزخيّ راحة من دموية هذا الزّمن، وأتوق إلى حياة تتحقّق فيها إنسانيتنا ولا تداس، تجمعني بك وبأبي في لقاء أبديّ لا فراق بعده.

تشحنني هذه الأفكار راحة وطمأنينة تمتدّ إلى أعماق النّفس وشغاف القلب، وتغسلها من أضغانها... حينها أعانق مخدّتي التي أثقلها بهمومي كلّ ليلة، وأتوسّد أفكاري وأنا أشرئبّ بكلّي إلى هذه الحياة الأخرى، وأستسلم للنّوم والابتسامة تعلو محيّاي...

أحمل قدميّ بدل أن تحملاني في الصّباح الباكر بخطى متثاقلة إلى مكتب العمل... أطأ عتبته كارهة. ما تزال تلك الأوراق التي خلّفتُها حيث تركتها، قبل أيّام العطلة السّنويّة التي دامت شهرا، قد غطّتها طبقة من الغبار. الدّرج بما يحويه من وثائق وأعداد من جريدة "الحقيقة" على حاله، لم أتخلّص ممّا لا حاجة لي به طيلة السّنة حتّى صار مكتظّا يصعب غلقه أو إيجاد شيء فيه، تعمّه الفوضى كبقية المكاتب وحال هذه الجريدة.

العددان الأخيران... ومجموعة إضبارات عن بعض التّحقيقات حول النّزوح الريفيّ والهجرة إلى بلدان أجنبيّة. وأنا أتناول الإضبارة الأخيرة

التي دوّنت عليها آخر مرّة ببنط عريض بالقلم الأسود "سميّة النّاجية الوحيدة تحت جسر المدينة"، دخلت صبيحة المكتب فوجدته في حالة فوضى عارمة:

- أنت منغمسة في قراءة ما بين يديك والمكتب على هذه الفوضى!
- أتذكرين صبيحة تلك الطّفلة السّمراء التي لم تتجاوز العقد الأوّل من العمر، يومها شلّت آلة تصويري أمامها كما لم يحدث لي من قبل وتلعثم لساني.
- تبدو في الصّورة بادية الملاحة رغم ثيابها الرثّة وقدميها الحافيتين وشعرها الأشعث الأغبر. ما هذا الشيء الذي تحمله؟
- هذه دميتها الطينيّة تخفيها بين ذراعيها ولا يبدو منها إلاّ قدماها وجزء من ثوبها الأبيض المتّسخ... هي الآن تعيش برفقة عائلة من العائلات الريفيّة التي تركت بيتها وأرضها لتتشرّد في أزقّة المدينة، وتقيم تحت الجسور مفترشة الرّصيف وقطع الكرتون في الشّتاء القارس والحرّ اللاّفح. كان الخوف دافعها، ترتعب من الموت، وتخشى سطوته وطريقتَه في كبس الأنفاس...جسّت يومها كاميرتي بائسةً ارتجافها والخوف في عينيها. هي تخشى من الأيدي الطويلة تفتك بها، وتمارس عليها جبروتها بعد أن تزحف إليها في الظّلام الحالك...
- لا تفرّق هذه الأيدي في زحفها بين الرّاعي والبهيمة، ولا بين الشّيخ والرّضيع. تنهي حياة عائلة بأكملها، أو حيّ من الأحياء المبنيّة بالطّوب الممزوج بعرق هؤلاء القليلي الحال بتمريرة سكين أو ضربة فأس.

- وقعت المجزرة ليلا كالعادة حيث اشتغلوا اللّيل كلّه بسرقة أعمارهم واغتيال أمانيهم على بساطتها، ثمّ تركوهم في برك الدّم يتخبّطون، ولمّا نبحت كلابهم، اختلطت دماؤها بدمائهم كما اختلطت في حياتهم وغرف نومهم...

- ولكن أخبريني كيف نجت هذه الطّفلة من المجزرة ولم تلق مصير عائلتها؟

- السبب يعود إلى تلك الدّمية الطينيّة. كانت الطفلة تلك اللّيلة في بيت أحد الجيران الذي يبعد حوالي ثمانين مترا عن بيتهم على عادة أهل الرّيف والقرى النّائية، تتناثر بيوتهم هنا وهناك على المساحة الشّاسعة.

أبقتها دمية صديقتها التي تقاربها سنّا، المصنوعة من الطين المحشو بالقصب، حيث سمح لها والدها بعد إلحاح شديد بالمبيت عندها، وهو أمر لا يحصل إلاّ لِماما، حتّى تعود إليهم في الغد بدميتها الخاصّة بعد أن تلقّنها قرينتها طريقة صنع الدّمى القصبيّة ثمّ تغليفها بالطّين، وإضافة التّفاصيل من ملامح الوجه واليدين والقدمين، لتكسوها بثوب تعلّمها أيضا حياكته، بعد أن اقتطعت لها والدتها من ثوبها الأبيض البالي ما يصلح لدميتها.

باتت أوّل اللّيلة تترقّب أن ينبلج الصّبح حتّى تعود إلى البيت بدميتها التي صنعتها لأوّل مرّة على هذا النّحو من الإتقان، فيشاركها أخواها في اللّعب، ويفرح والداها بما أجادت أصابعها الرّقيقة.

غير أنّ الهزيع الأخير من ليلتهم حمل لهم أشياء لم يعتادوها، صراخ وعواء مكتوم وأصوات حركات تحوم حول البيت. قضوا ليلتهم يترقّبون دورهم ويمسكون بالطّفلة التي أرادت أن تخرج لتعرف ماذا يحدث، ولِم ندت من بيتهم تلك الصّرخة وعوى الكلب على ذلك النّحو ثمّ كُتم صوته فجأة، لكنّها أغمضت عينيها على حيرتها وتساؤلاتها بعد أن انكمشت العائلة في ركن بارد من الغرفة. غطّتها المرأة حتى الرّأس برفقة ابنتها، وتوارت معهما تحت اللّحاف وهي ترهف السمع لما يقع في الخارج في هذا الوقت المتأخّر إلى أن سمعت غطيط الفتاتين، ولكنها لم يغمض لها ولا لزوجها جفن وظلاّ ينتظران دورهما.

وفي الصّباح الباكر كعادتها في الاستيقاظ كلّ يوم، سبقت سميّة الجار وعائلته إلى البيت، تغمرها نشوة طفوليّة بكبر أحلامها. لم تقو طفلة في عمرها على الصّبر، أرادت أن تطمئن وتريهم الدمية، لكنّها لم تجد عينا تراها إلاّ عيونا شخصت بأبصارها إلى السّماء، ولا يدا تلامس فرحتها، فكلّها قد تصلّبت في دمائها، باردة لا حياة فيها...

أرادت أن تباغتهم مع أوّل إشراقة للشّمس، وتريهم صنيعها، ولكنّ الخيانة افترستها، ورمت بتلك النّشوة في قعر لا قرار له، بل اجتثّتها من جذورها فما عاد لها وجود، وغرزت خنجرا في صدرها النّديّ بأحلام الطّفولة، وأدمَتْ قلبها الذي لم يعرف إلاّ أسرتها الصّغيرة وصديقتها وهذه الدّمية الطينيّة...

لم يقدر الأخ الأصغر ذو الثلاث سنوات على تحريك يديه ودفع قدميه نحوها، لينتزع منها تلك الدّمية على عادته عندما يرغب في أخذ أشيائها

ليستحوذ عليها. كان ذاك اليوم بلا حراك تاركا لها الدّمية لتتفرّد بها. كانوا مفتوحي الأعين متجمّدي النّظرات، وزهومة الدّم تعمّ المكان...

- لم تدر أنّ تلك الدّمية ستصير سلوتها وكلّ أهلها، وأنّه لم يبق لها من البيت إلاّ ما تحمله من ذاك السّرير الصّغير الذي يبدو في الصّور، والوسادة والغطاء التي تضع فيه دميتها، ومن رائحة أمّها إلاّ تلك القطعة البيضاء البالية التي اتّخذتها ثوبا للّعبة... لم يبق لها منهم إلاّ تلك الأشياء، تتخذ السّماء سقفا، والأرض الإسمنتيّة العاريّة فراشا.

- كانت كاميرتي حزينة لأجل هذه الطّفلة وهي ترصد وحدتها وفجيعتها، تلتقط تفاصيل ما تركته تلك المجزرة في حياتها، وأنا لا أستطيع أن أغيّر من الأمر شيئا.

كان الأب الأربعينيّ منبطحا أرضا، خامدا في مدخل الغرفة التي جمعتهم أحياء وأمواتا، وقد انغرز منجله في صدره، وبقع الدّم متجمّدة على ثيابه وجزء من الأرضيّة الترابيّة. أمّا البقيّة فلقوا حتفهم بتمريرة سكين قاطع دون مقاومة، وهم على فراشهم الدّافئ يتقلّبون في أحلامهم، لا صريخ لهم.

كان المنجل في مدخل غرفة القمح والشّعير مع بقيّة لوازم الحصاد والحرث... إلى جانب فأس ومحراث اتّكأت بعد تعب في انتظار أن تعيد يد مالكهم لهم الحياة بعد انتهاء استراحة المحارب... كان المنجل ملكا لأبيه ورثه عن جدّه، حيث لم يترك له والده سوى هذه الأرض الممتدّة الصّعبة المراس، وهذا المنجل يصاحبه عند جني الغلّة من الحبوب.

كان حادّا لامعا يصنع سرورهم، والأهازيج تملأ حناجرهم القويّة السّمراء جماعات جماعات تحت لهيب الشّمس الحارّة، يجتمعون للتّويزة كلّ سنة حول هذه الأرض الطّيّبة مترنّمين بأغاني الفلاحين، يدفعون بها تعبهم، ويوقظون ما فيهم من عنفوان الشّباب وجماله الذي خبا بين أضلعهم، وعلاه التّعب والهمّ وقلّة ذات اليدّ.

كان حادّا في وقعه عليه تلك اللّيلة على غير عادته، وآخر ما اندسّ في صدره تاركا كَلْما غائرا أودى به إلى القبر. روت لي العائلة التي صحبت سميّة بعد الحادثة تفاصيل ما وقع لهم في ذلك الهزيع الأخير من اللّيل وانكماشهم في أماكنهم وتقوقعهم على خوفهم حتّى الصباح وفظاعة ما رأوه.

كانت صرخة الطّفلة السّمراء حينئذ تصمّ الآذان حسب شهادة جارهم... ثمّ أغمي عليها، ونقلت إلى المستشفى تستعيد ألمها وصرختها أيّاما وأسابيع، يتابعها طبيب نفسيّ، ثمّ سكتت عن الكلام، ولم تنبس ببنت شفة بعدها، وانطوت على نفسها. صحبتها هذه العائلة التي ذعرها المشهد، وخشيت أن يحين أوانها ذات ليلة حالكة حمراء. جمعت أشياءها... بعضا من الثّياب والغطاء والطّعام، وخرجت إلى المدينة المجاورة ليس لها من تقصده، وهي تسوق بعض الغنيمات لتبيعها في سوق الماشية فتقتات من المال الذي يدفع لها، وتحفظ به ماء وجهها ما قدّره الله من زمن. تفترش فقرها، وتستتر بالجسر الكائن وسط المدينة تتخذه سقفا. لازمتها عدستي المصوّرة تنقل حياتها البئيسة وما صارت إليه.

تجرّ الطفلة يتمها وفجيعتها، وتحبس الغصّة بين أضلعها ولا تفشيها لأحد... تحمل دميتها الطينيّة البيضاء الثّوب بيدها اليسرى بقبضة قويّة على صغر سنّها ووهن جسمها، كأنّما تخشى أن يطالها أحد، فيسلبها إيّاها كما سُلبت عائلتها. كانت تُسِرّ إليها آهاتها ولا تفشيها لأحد... تحمل كسرة يابسة باليد الأخرى تقتات منها، أردت أن أصوّر هذه الكسرة، لكنّي لم أتمكن من ذلك. فقد نهشت منها نهشة ثمّ أخفتها تحت ثوب دميتها.

اكتفت بالبكاء والرّجل يروي لي قصّتها، لا تقدر على أن تفصح أو تبوح، تخفي حشرجتها بدمية القصب المكسوّة طينا. كأنّما تخشى من آلة التّصوير التي أمسكها بيدي، لتكون الشّاهد.

أجمع أوراق هذه الإضبارة وصورة الطّفلة السّمراء تعلق بذهني، وتحزّ في نفسي. صورها تحت الجسر، وبيدها دميتها، والارتجاف في عينيها كلّها ضمن الإضبارة، وصور أخرى عن النّازحين، وقصص شتّى عن حيوات مسروقة. أسعى لترتيب الدّرج المكتظّ بالأوراق التي لا حاجة لي بها، فأفرز الغثّ منها لأطرحه في سلّة المهملات.

السيّد الشايب غائب معظم أيّام الأسبوع في أشغاله برفقة إسمهان المسؤولة عن الأقسام كلّها، وعندما يحضر إلى المقرّ لا يغادر مكتبه الوثير، ولا أريكته الجلديّة. يتبادلان القهقهات التي تسمع من مكاتب الموظّفين. عادت إليّ صبيحة بعد فترة كنت قد أنهيت خلالها توضيب المكتب.

- على فكرة هناك اجتماع طارئ دعا إليه السيّد الشايب في المساء،فلا تنصرفي باكرا.
- يبدو أنّه يتعلّق بالرّكود البادي للعيان في الجريدة وآخر التّطوّرات.
- من المؤكّد.

كانت رائحة الأثاث الجلديّ في مكتبه تمنعني من التّنفّس، وتشعرني بشيء من الغثيان مع ضيق المكان، وصغر حجم النّافذة المطلّة على المزبلة العموميّة. فسحت لي صبيحة المكان بقربها لما رأتني أدخل رافعة كعب حذائي حتّى لا أحدث جلبة، والمدير بصدد الجمل الأولى من حديثه:

- أمام هذه المضايقات في أداء المهنة بدءا بالوضع الأمني وحال حريّة التّعبير، وتفاقم اغتيالات العاملين بهذا الميدان وتوالي الهجرات، قرّرت تغيير طابع الجريدة إلى مجلّة فنيّة عن الموضة والأزياء عالميّة التّوجّه والاهتمام.

صارت تلك الأعداد المكدّسة من " الحقيقة " في خبر كان، وما كلّفك حياتك لم يعد له وجود. تحوّلت الأزياء وصيحات الموضة في العالم إلى بديل عن أحزان النّاس وآلامهم، وهم لا يجدون قوت يومهم، ولا راحة بالهم. يختبئون في جحورهم المظلمة في انتظار ساعة انقضاض الصّيّاد، تصطكّ أسنانهم فَرَقا، وتتزايد ضربات قلوبهم، وهم لا حول لهم ولا قوّة...

فقدت شهيّة العمل بعد كلام المدير... فأن تكتب عن هموم الإنسان في هذا الوطن يعني أن ترتدي السّواد وتحكم قفل الأزرار، وتمتنع عن

التّعطّر، وتتأبّط قضيّة واحدة هي العمر المسروق والأماني المغتالة، لا أن تلتقط صورا لمن يعرض تفاصيل جسده أمام الملأ وتكتب عنه...

ذاك البرواز المعلّق في المكتب الحامل لشهادة عرفان بتفانيك في أداء مهنتك رغم التّهديدات وترحّمٍ، سينزع ويوضع في علبة من علب الكرتون ويحال على الأرشيف. سيتكوّم عليه الغبار، وتتلاعب به صراصير المجاري والجرذان القادمة من المزبلة العموميّة، ويذهب كما ذهبت أصابعك أدراج الرّياح.

أفقد شهيّة الحياة وحتّى الرغبة في الانتماء إلى الجريدة، وأنا أسمع هذا الحديث. أشعر اليوم أنّك تُغتال للمرّة الثانية بقرار السّيّد الشّايب. حبّ ياسين للحقيقة ودفاعه عنها وإمساكه بها كالقابض على الجمر هو ما ألقى به بين أيديهم. هذه الحقيقة التي يقفل ملفها اليوم، وتحفظ جانبا في صندوق قديم لن ينفض عنه الغبار ثانية...

لم ينبس الحاضرون ببنت شفة إثر هذا القرار، وإن ارتسمت على وجوههم علامات تفاوتت بين الرّفض والقبول والحيرة. وراح السّيّد الشايب يوزّع الأدوار ومجالات العمل على كلّ واحد منّا، ومؤشّر الغثيان يتصاعد إلى رأسي إلى أن بلغت درجة لا يمكن أن أنتظر بعدها ولو دقيقة. قاطعت حديثه:

- اعتذر أشعر أنّي مريضة، أستأذن...

حدجتني صبيحة بنظرة استفسار، وأشارت إليّ أن أنتظر لننصرف معا في السيّارة بعد أن يأتي زوجها خلال ساعة لاصطحابها، ولكنّي أومأت إليها أن لا داعي لذلك، فأنا لا أستطيع أن أنتظر دقيقة واحدة.

- لا تقلقي سأكون بخير.

يقودني الشّعور إلى خارج المقرّ، حيث يتناقص تدريجيّا، وتعود إليّ أنفاسي. أتذكّر عند مروري بالصّيدليّة في شارع ثانويّ من شوارع المدينة دواء الروماتيزم الذي نفد. عليّ أن أقتنيه، فقد صارت أمّي لا تستغني عنه مع تفاقم ألم مفاصلها.

أهيم على وجهي بعد أن سقط البيت الذي كان يجمعنا، وأقيم على حوافي بيوت الآخرين أرمّم ما انكسر من ذاتي، ولا أشعر بالرّاحة في أيّ سكن. كانت "الحقيقة" وطنا بديلا مصغّرا من ورق يسكننا ونسكنه، ونقيم فيه بكُليّتنا لنقول ما في أنفسنا وأنفس النّاس، ونمسح بالكلمة والصّورة دموعهم، ونربت على أكتافهم ونفرح لفرحهم. أمّا اليوم فصرتُ بلا وطن، هائمة لا وجهة لي...

وكبرت قليلا

كم... ثمّ كم خانني وطن

خانني الصّحب والسّاقية

فارتميت بحضن الرّياح

فذي الرّيح خيمتي الباقية

كانت السّاعة تشير إلى الثّالثة عندما كنت أَذرعُ على عجل الشّارع الرئيسيّ لأصل إلى منتهاه قبل مغادرة الحافلة التي تقلّني إلى وجهتي. ملصقات الحذر والحيطة تعمّ المكان وغيره من الأماكن العامّة تنبّهك إلى احتمال دسّ قنبلة، وتذكّرك بمن يتربّص بك وتصرخ:

أنت غير آمن... أنت على بعد خطوة من الموت، بل أنت في فوهته بقنبلة موقوتة تنسفك من على وجه هذه البسيطة. تذكّرك بمكانتك في هذا الوطن، وما أُلت إليه إن تناسيته، وحاولت التّغافل عنه.

أركب الحافلة وقد امتلأت عن آخرها، ثمّ سارت عبر تعرّجات الطّريق الطّويل، والهواء العليل يلامس وشاحي ويداعب مسامات وجهي، ويشعرني بشيء من الارتياح بعد الدّوار الذي انتابني. فكّرت طيلة سيرها في قرار السّيّد الشايب، ومحلي من هذه المجلة بعد أن كنت أرصد هموم النّاس وانشغالاتهم، ونما شعوري بالنّفور من العمل بها.

كان طولُ الطّريق فسحة لأسترجع أنفاسي، وأفكّر في قرار مدير الجريدة. عادت بي الصّور إلى الأيّام الأولى من التحاقي بها بعد تخرّجي بسنتين... كنت ميّالة منذ بادئ الأمر إلى الصّحافة الاجتماعيّة، تشغلني هموم النّاس وتلفت انتباهي تقاسيم الحزن على وجوههم. شقاؤهم لأجل الرّغيف يأسرني ويملك حواسي، وعرقهم البارد المتصبّب لكي يحفظوا كرامة فلذات أكبادهم، ويصيّرونهم إلى حياة أفضل من حياتهم.

كانت المرأة التي تسكن في الحيّ المجاور عند مفترق الطّرق أوّل نموذج كتبت عنه. رحمها اللّه بعد أن عانت في زيجتها التي أقدمت عليها رغم رفض أهلها وتحذيراتهم. كانت دائمة الدّفاع عنه تجد له الأعذار تعلّل بها تعاطيه للحبوب المهلوسة. وقعت تحت تأثير قصصه التي رواها لها عن ظروفه العائليّة التي دفعته دفعا إلى طريق المخدّرات، تجد له الأعذار مفنّدة ما يقال عنه، يزيّنه في عينيها لسانه العذب.

وبعد أشهر من الزّواج بدأت الغشاوة تنجلي عن عينيها وصارت تراه على حقيقته. تلبّست حياتها المهانة والذلّ والانكسار أمام لا مسؤوليته واستهتاره. خاصّة بعد أن أنجبا صبيّا كالبدر التّمام. كان يقسو عليها ويضربها لأتفه الأسباب، ولكنّها تدعو له لأجل ولدها لعلّ الله يغيّره. كان يكره فيها شهادتها على حاله، ويمقت حالة الوعي فيها، ويبغي أن يظلّ على سكره وخدره. كانت تذكّره بأسرته ومسؤوليته فينهال عليها ضربا وشتما وتقبيحا يسكت صوت الصحو فيها.

لم يتمكّن أهلها ولا أهله من إصلاح حاله بالتّدخّل بين الحين والآخر، إلى أن اشتدّ بينهما الشّجار ذات ليلة، وفي حالة سكر غرز سكين المطبخ فيها، وأرداها قتيلة بثلاث ضربات متتاليات في الصّدر، ولم يلتفت إلى صراخ ولده. وانتهى أمره إلى السّجن.

كانت هذه المرأة الشّابّة بما لاقته أوّل ما نقله قلمي إلى صفحات الجريدة. كان لوفاتها عظيم الأثر على الحيّ كلّه، وعلى كلّ من قرأ قصّتها.

صورتها غارقة في دمائها هي أوّل اصطدام عنيف لي ولكاميرتي بالحوادث، حيث لم يعتد كلانا حينها على مشهد الدّم، ولا على ما تتركه الخيانة من آثار شديدة القبح، ترتجّ لها النّفس ارتجاجا، وتجعلك تعيد التّفكير بعلاقتك بالآخر قبل أن يغرس في ظهرك سكينا وأنت تهبه حياتك ورضاك وصبرك، وتستدير لتنام مطمئنّا له اطمئنانا خادعا.

خلّفت تلك الحادثة في نفسي شرخا وهوّة اتّسع غورها مع مزاولتي لمهنة الصّحافة. كانت هذه هي الصّورة الأولى الدّمويّة في ملفي

الصّحفيّ، ثمّ امتلأت الأضابير بما بشبهها، تسيل دماؤها على مكتبي، ويمتلئ معها الصّدر بالفجائع. وبدأت أتقوقع على خوفي، وأستأنس إلى وحدتي، وأقتات من ارتيابي من الآخرين.

استدعت صورتها صورا أخرى في ذهني عن هموم النّاس وقضاياهم، ولا أتصوّر قلمي قادرا على الإحساس بغير ذلك، فليست الموضة في هذا البلد، وفي هذا التّوقيت بالذّات ما يستهويني ويشدّ انتباهي...

أرى وجهي على الزّجاج الكائن قبالتي في الحافلة، وقد تغيّرت ملامحه عمّا كانت عليه قبل سنة. أكان لبضعة أشهر -على قلّتها-كلّ هذا الصّنيع، أم هو فعل البشر القذر الذي يشيب له الولدان؟ هل يبلغ تأثير الخطوب ونوائب الدّهر هذا المبلغ في رسم تفاصيل هيآتنا؟ وهل تعمل الحوادث والصّروف ريشة في يد رسّام تعكس قتامة القلوب وبؤسها على صفحات الوجوه؟

أنعطف إلى الحيّ حيث أقيم... ها هو بيت أمّ التّوأم جارتنا زليخة بائعة الكسرة في أوّل الشارع، لم تكونا توأما بل هكذا تبدوان كالتّوأم، هذا الانطباع الذي يشاركني فيه الكثير ممّن يراهما. قررت أن أزورها السّاعة لأردّ على طلبها، فلا مجال للتّأجيل.

أنقر الباب نقرا خفيفا، فأسمع خلفه صوت شبشب قادم من الدّاخل بخطوات متسارعة، خفتت لمّا اقتربت تستطلع من الطّارق بالنّظر من فتحة الباب، تسبقها هسهسة مسبّعة أساور الفضّة في التقاء بعضها ببعض، تذكّرني بتلك الحليّ التي كانت تتزيّن بها في الأعراس والمناسبات في ساعة اليسر.

أمّا الآن قد باعت أكثرها، وأبقت على البعض منها لابنتيها وصارت عُطُلا إلاّ من قرطين صغيرين بخرص أبيض. دعتني إلى الدّخول في حفاوة وترحاب، ثمّ سألتني بعد جلوسي عن أمّي، وعن أخبار أخي المسافر إلى إسبانيا. فوجئت بعلمها بالأمر، فقد أشعنا أنّه وجد عملا في أقصى الصّحراء.

قالت: أعلم أنه ليس في الصحراء، بل سافر إلى إسبانيا مع ابن جارتنا. سرّت لي بذلك في حالة إحباط واشتياق شديدين.

انتابني خوف شديد، وتساءلت إن كان يعلم بالأمر غيرها. شعرت جارتنا بخوفي فأسرعت بالقول تطمئنني:

- لا تخشي ذيوع السرّ، فقد حلفت على المصحف أمامها أن لا أتحدّث به لأحد. تعجّ شوارع إسبانيا وإيطاليا وكثير من الدّول الأوروبيّة بشبابنا المغترب. هذا ما قاله ابن جارتنا عبر الهاتف.

كانوا في اللّيالي الأولى يبيتون في العراء وفي الحدائق العامّة وتحت الجسور، ثمّ بعد أن وجدوا عملا في المطاعم وبعض المحلاّت صاروا ينامون حيث يعملون في مستودعات السّلع، وفي أحسن الأحوال يكترون غرفا يقتسمون ثمنها. رغم ذلك هم الآن في منجاة من أيدي القتلة، وأهلهم أكثر اطمئنانا عليهم، ولن يقتلهم الجوع أو البرد أيّاما... سيتدبّرون أمرهم.

سكتت هنيهة ثمّ رفعت يديها بالدّعاء:

- أعاد الله كلّ غائب إلى أهله.

أتنهّد بدعائها مردّدة: آمين يا خالتي... آمين...

انصرفت بضع دقائق ثمّ عادت بصينيّة نحاسيّة من الطراز القديم عليها كوبا عصير. أدنت الكوب منّي ودعتني لشربه، ثمّ عادت إلى كلامها عن الغربة، وانشطار العائلة حتّى في البلد الواحد، متذكّرة يوم كانت ابنتاها صغيرتين، وزوجها يسافر إلى الصّحراء لعمله بين الحين والآخر ما يقارب الأسبوعين. والوحشة التي كانت تسكن قلبها، فكأنّ الدنيا خالية على عروشها.

أطنبت في تذكّر تفاصيل لياليها الشتويّة الطويلة لولا صغيرتاها اللّتان تؤنسانها، تبكيان حينا وتلعبان آخر. وفيما كان يعود به من سفره من هدايا وحلويّات خاصّة عرجون التّمر...

- لم أتذوّق مثله في حياتي كلّها...

ثمّ أردفت قائلة:

- أيّام الشباب... كانت أيّاما سعيدة لولا ما كان ينغّصها من وقت إلى آخر من ذلك السفر.

تركتني وانصرفت بضع دقائق فور سماعها لنداء زوجها. أنتبه بعد أن يعمّ الصّمت إلى أنينه المنبعث من غرفة غير بعيدة من مجلسي. كنت أسمع كلامه إليها يصلني خافتا ضعيفا، يبثّها أوجاعه، فتناوله قرص الدّواء المسكّن. هي يداه اللّتان صارتا محجوزتين في جسده المريض، ورجلاه التي لم تعد تعمل إلاّ مواضع للألم...

- أنا ضجر من ملازمة الفراش.

- اليوم جميل والشّمس دافئة سأدنيك من الشّرفة لترى ذلك بنفسك.

أسمع صوت عجلتَي الكرسيّ المتحرّك، وهي تنقله إلى شرفة الغرفة المحاذية والأنين يصحبه إلى أن ينقطع بإقفالها الباب.

تفتح الشّرفة تشرعها عن آخرها، لتتسرّب إليها أشعة الشّمس، تدفئ عظامه وتلطّف مزاجه.

كانت غرفة الاستقبال التي أجلس فيها تنتهي كذلك إلى شرفة واسعة، يظهر من صوتهما الذي صار يصلني واضحا أنّ الغرفتين تشتركان في شرفة واحدة. كانت مزيّنة بأُصُص مختلفة الأحجام لنباتات شوكيّة متنوعة بعضها مزهر، والبعض الآخر من غير زهور يزيّنه الاخضرار.

كانت هوايته كلّما ذهب إلى الصّحراء في مهمّة عمل جلب أصيص صغير ممّا تشتهر به المنطقة: الصّبّار، والتين الشّوكيّ... ما زالت تحضرني الدّهشة عند رؤيتي لها في طفولتي، ويعاد على مسامعي حديث زوجته إلى أمّي عن تلك النّباتات الصحراويّة، وما تستغربه من ذوقه عند قدومها لبيتنا.

أتحرّج لسماعي لما يدور بينهما دون انتباههما لجانبي الشّرفة المفتوحين... يسألها عن الفتاتين في صوت مبحوح، فتخبره بأنّهما في الخارج بصحبة خالتهما تقتنيان ما يلزمهما من جهاز العرس والحياة الجديدة. أسمع ما يشبه حشرجة الباكي يكتم أنفاسه... ثمّ تفلت منه حسرة ممزوجة بما يبدو لي فيضا من العبرات:

- ابنتاي الوحيدتان انتظرت أن تصيرا عروسين أجهّزهما أحسن جهاز وأزفّهما إلى زوجيهما، واليوم لا أدري إن يطول بي العمر ويمهلني المرض لأشاركهما الفرحة...

بكثير من التّجلّد والمداراة تردّ عليه:

- الحمد للّه فأنت بخير في المدّة الأخيرة، هذا ما قاله الطبيب، وسترى أولادهما بأمّ عينيك يكبرون أمامك، فلا تعد إلى هذا الكلام... مريم ابنة جارتنا الخيّاطة في غرفة الاستقبال لا يجوز أن أتركها بمفردها أكثر من هذا...

أجول ببصري في غرفة الاستقبال الواسعة، تبدو أوسع ممّا كانت عليه آخر مرّة زرتها. كانت زيارتي الأخيرة قبل حوالي سنة، بل إنّ الغرفة لم تتغيّر، وإنّما هي الآن تخلو من أثاثها المعتاد عدا الأريكة الجلديّة القديمة تتصدّر المكان، وطاولةٍ من خشب الجوز، وكرسيين فاخرين من طراز قديم تشبه النّقوشُ التي تزيّنهما الأرابيسك.

كان زوجها رغم دخله المتوسّط مولعا بهذا النّوع من الأثاث يقتنيه ليزيّن به بيته، أمّا هي فقد كانت لا تجد لذلك داعيّا أو ضرورة، فهي ابنة الريف اعتادت البساطة وشظف العيش، يكفيها فرش بسيط تستقبل فيه ضيوفها.

وذاك إطار على الحائط في فسيفساء رفيعة، نقشت عليه آية الكرسيّ وضع في واجهة الغرفة، وتلك مِسرجة زجاجيّة تزيّن سقفه وتضفي عليه عبقا من الماضي، يتلألأ خرزها البلوريّ المتدلّي من الحلقات الدّائريّة بتناسق يذهل النّاظر. وذاك أثاث مكوّم بالقرب من

الأريكة مغطّى بإزار واسع يضمّه، هو كلّ ما تحويه الغرفة على اتّساعها، تعرضه جارتنا للبيع لتتدبّر بثمنه مصاريف الكراء والمعيشة.

بدت الشقّة شاغرة من الأثاث ذي الطّراز القديم الذي كانت تحدّثنا عنه أمّي معجبة به. اقتناه زوجها قطعة قطعة بثمن باهظ، وها هي اليوم تحت ضغط الحاجة تبيعه قطعة تلوى الأخرى بثمن بخس، وهي تتحسّر على ما كان من حياتها الميسورة، وما آلت إليه بعد تقاعد زوجها المسبق واعتلال صحّته...

وقفَت عند مدخل الغرفة معتذرة عن غيابها:

- منذ أن أقعد المرض زوجي لا غنى له عنّي في أبسط الأشياء ليلا ونهارا، ومع طول ليالي الشّتاء يزداد ألمه، فألازمه إلى الفجر إلى حين أن يخفت وجعه فينام.

تنتبه إلى صمتي فتمسك عن الحديث عن مرض زوجها، وتسألني مرّة أخرى عن حالي وحال أمّي، لتعيد الحديث إلى نقطة البداية، ولتعرف سبب الزّيارة. أجبتها:

- ... قرّرت أن أعود إلى الخياطة يا خالة، وستكون البداية جهاز ابنتيك.

تتّسع عيناها فرحا على صغرهما، وترتسم ابتسامة عريضة على محيّاها الذي انكمشت ملامحه بعد مرض زوجها، وتزدان أساريرها المتعبة بكلّ معاني الشّكر والامتنان، كأنّما تنطقان من غير كلام، ثمّ تقول:

- لا أنسى فضلك يا ابنتي... ستكون فرحة ابنتيّ كبيرة، فأنت سليلة أمّك في هذا المضمار. أمّك التي لبس كلّ أبناء الحيّ أيام أعياد الفطر

من صنيع يديها. عُرفت بإتقانها لحرفتها، أمدّها الله بالصّحة والعافيّة وشفاها، وأعاد إليها فلذة كبدها.

- أنصرف الآن يا خالة، فأمّي تنتظر عودتي بالدّواء الذي يسكّن ألم مفاصلها، لقد نفد ليلا.

- هو البرد الذي نخر عظامها في فترة الطفولة، وماكنة الخياطة التي شلّت رجليها من شدّة الإجهاد والعمل ليل نهار، فقد كانت تبعة العائلة تثقل كاهلها.

- أتركك بخير...

أنصرف وقد ارتاح بالي إثر اتّخاذ هذا القرار، وإعلام جارتنا به. وبعد يومين من هذه الزيّارة اتّصلت بي الفتاتان لأخذ المقاسات، وتحديد التّصميمات التي ترغبان في خياطتها.

في مكتب العمل، يعيد السّيّد الشّايب توزيع المهام في مجلّته الجديدة. تختلف طبيعة معظم الوظائف الموكّلة إلى العاملين بها عمّا كانوا يشتغلون به في الجريدة، لإسمهان منصب السكرتيرة... أمّا أنا فقد أُوكلت إليّ مهمّة التّدقيق اللّغويّ بطلب منّي، فكثيرا ما استهوتني الحصص الإذاعيّة عن " لغتنا الجميلة " وعن " قل ولا تقل " أتتبّعها، فكانت خير عون لي فيما كنت أكتبه في الاجتماعيّات، وشيئا فشيئا كوّنتُ رصيدا من الكلمات والتّعابير لا بأس به، واكتسبت ذوقا لغويّا يستشعر الخطأ حيثما كان. إضافة إلى مهمّة الإخراج التي لا خبرة لي بها، لذا كانت مناصفة مع صبيحة الضالعة في هذا المضمار، آخذ منها وأتدرّب على يديها.

لم يكن معظم العاملين بالجريدة خاصّة ممّن يسدّون جوع الأفواه المفتوحة من عائلاتهم، ولا سند لهم غير هذه الوظيفة مخيّرين في تولّي المهام التي أنيطت بهم، فلا ملاذ لهم غيرها، فزمن الحريّة قد ولّى منذ أن ولّت "الحقيقة" وحلّ محلّها "ستيل STYLE" المجلّة الفنيّة عن الموضة والفنّانين، في زمن يقتل فيه الإنسان أخاه، ويفرّ المرء من وكره إلى أوكار الآخرين، يقتات من فتات موائدهم، ويبحث عن مكان بينهم ودفء مستحيل...

- هذه ليست الحريّة التي نريدها. الحريّة يا صبيحة أن تختار طريقة عيشك، والمهنة التي تعشق حتّى النّخاع، لا أن تغيّر وظيفتك على هذه الشّاكلة مسلوب الإرادة بقرار مدير عملك، لأنّ الموت ينتظرك في كلّ زاوية وحين، وقد تنتهي يداك أو كلّ جسدك بين أكوام القمامة عمّا حبّره قلمك. الحريّة أن تقصد عملك منبسط الوجه والسّريرة، وأن تستمتع بالحياة إلى حين قدوم أجلك، لا أن تتسمّر مكانك خوفا عند كلّ منعطف أو مكان خالٍ، وعند سماع أيّ خبر قتل، تعدّ أنفاسك خشية طعنة في الظّهر بكلمة قلتها أو رأي أبديته...

- صارت الحريّة في هذا الوطن كلمة غريبة... مبهمةً، تتقزّم حدودها ومعالمها كلّ يوم وليلة، في زمن تطالنا فيه الأيدي الغادرة أينما كنّا. – إنّها تنقضّ على رقبة أحلامنا وطموحنا وإنسانيتنا لتفصلها عنّا بآلة حادّة كما تفصل الروح عن الجسد، وتنتفض في شراسة مزهوّةً، تمسح دماءنا عن أنيابها الوحشيّة، ثمّ تنصرف إلى حال سبيلها...

الحريّة فطرة يولد عليها الإنسان، فترفض الجِبلة فيه الرّضوخ والعبودية. قالها يوما عمر بن الخطّاب، ولا زالت تسري إلى يومنا هذا بين صفحات الأيّام وطيّات النّفوس: " متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا"، بل تتوق إليها حتّى الطيّور في أقفاصها، والبهائم في معاقلها.

الحريّة أمل الشّعوب المضطهدة... نار تضطرم، ونور يتلألأ في عتمة الاستبداد والظّلم. ابنُ الخطّاب الذي قال فيه رسول كسرى:

"حكمت فعدلت فأمِنْت فنمت يا عمر".

الحريّة أن تغدو لبعض شأنك مرتاح البال، مطمئنّا على بيتك وأهلك، ثمّ تروح ساعة تشاء، لا أن يفرض عليك حظر التّجوّل، وحظر الابتسامة وحظر الحياة... يحدّد موعد نومك وطريقته. مَثلك كمَثل دجاجات أدخلها مالكها الخمّ باكرا، تاركا لابن عرس الفرصة ليلوي أعناقها ليلا... يشرب دماءها ثمّ يتركها جِيَفا. ليست الحريّة أن تخشى الظّلام في غرفتك بعد أن تطفئ الأضواء... تتخيّل صورا وأحداثا رأيتها على نشرة الأخبار فيما تبثّه عن ضحايا العبوات النّاسفة والمجازر. تصيبك بأذاها لتصير أشلاء يضمّها كفن توجّساتك، أو رمادا تذروه رياح مخاوفك...

الحريّة أن تزهر حياتك مع من تحبّ زرعا يُخرج شطأه أبناء وحفدة، يملؤون بيتك ثمّ يبكونك بعد طول عمر، ويشيّعون جنازتك إلى مثواك الأخير، لا أن تفقدهم الواحد تلو الآخر قتلا وغيلة أو فرارا أو جنونا أو تغييبا... وتتحسّر عليهم، وتخنقك غصّتهم إلى أن تودِيَ بك إلى حتفك.

الحريّة أن تتزيّن للحياة وأن تتعطّر، وتقضي زهرة شبابك في تحقيق طموح يليه طموح آخر في سلسلة أمانيك مفتخرا بنفسك، تصنع مجد وطنك، وتكتب تاريخك بيديك، لا أن يُفرض عليك تاريخ أسود مسكوب على كلّ جانب منه الدّم القاني، يزكم أنفاسك وتتنفّس زهومته مجبرا، وتُلغى من حيّزك روائح الحياة الأخرى... رائحة الدّفء والطّمأنينة وسط عائلتك ليالي الشّتاء الباردة الطّويلة، ورائحة الدّعة والاستجمام أيّام الصّيف الحارّة بين تلاطم أمواج الأماني مدّا وجزرا، وصوت نوارس القلب في توقها إلى راحة أبديّة.

هذه هي الحرية...لا أن ترحل فارّا مرتجفا إلى بلاد الآخرين، تغسل أوانيهم وتحمل مقتنياتهم، وتميط الأذى عنهم، لتضع في جيبك ما فَضُل عن جيوبهم، متدثّرا في آخر النّهار بغربتك وارتيابهم...

الحريّة أن تفكّر في غدك، وأن تكون لك خطّة مستقبليّة فيما ستنجزه، تعدّ له العدّة بهمّة عالية تتفانى لتحقيقها، لا أن تعيش كالأنعام والدّواب تأكل علفها، وتشرب ماءها وتساق إلى معاقلها لتنام، تجترّ ليلا مخاوفك كما تجترّ ما علفَتْه نهارا. تحيى بغير رغبة، مسلوبةٌ إرادتك تترقّب موعداً تُنعى فيه إلى ذويك.

أمّا عدا ذلك، فأنت عبد ذليل، أُسرت كلّ مسرّاته وأُجّلت إلى أجل غير مسمّى... بل أهدرت إلى غير رجعة.

أعبر الطّريق عبر ممرّ الرّاجلين بعد أن أودّع صبيحة، وأسير بين زحام المارّة لا أدري أيّ وجهة أقصد، وأنا أقلّب حديثي معها.

تدفعني قدماي بغير غاية من زقاق إلى آخر، وبين الشّوارع الواسعة أضيع. ملامح النّاس تغيّرت عمّا كانت عليه، صار كلّ فرد يتوجّس من الآخر، ويبني المسافات الفاصلة جدارا منيعا، ويضع حول الصّدر قدرا من الاحتياط والتّرقّب. غابت عن الوجوه راحة البال وطمأنينة النّفس، وعبست البهجة، وقطّبت الابتسامة راكنة بين خبايا القلب، وادّثرت في ارتجاف بلحاف من خوف.

ملصقات الحذر والحيطة ذاتها تكيل لي صفعة بعد أخرى كلّما لمحتْ رسمي، تترقّبني من بين المارّين، وهي تتسمّر على جدران الشّوارع، وفي محطّات الحافلات تزيد من تعكّر مزاجي. أشيح بوجهي عنها فلا أراها ولا تراني، وأفرّ أحمل كآبتي وحزني وأسير بغير هدى... هذه الشّوارع الطويلة عريضة الحوافي... أنثر عليها ما يثقل كاهلي، وأقتسم كآبتي مع كلّ جانب منها.

محلات ما فخر من ثياب، ومحلاّت الأحذية المنتظمة في الرفوف التي طالما لم أتمالك نفسي أمام سحرها، وذاك محل ساعات اليدّ من آخر طراز... السّاعة السويسريّة والألمانيّة والفرنسيّة... ورفوف الكتب في تلك المكتبة التي كنت أدخلها كلّما مررت من هذا الشّارع، أنتقل بين عناوينها في لمح البصر بنهم خرافيّ... لم يعد كلّ ذلك يستفزّني... تجتاحني الكآبة وتغمرني، وتمنعني من رؤية الحياة.

أسير إلى غير ضالّة رغم تعبي، أحمل كآبتي بين جوانحي حينا، وألبسها حينا آخر وتلبسني، صارت بيننا ألفة واعتاد كلّ واحد منّا على الآخر، واستبدلتُ بها الصحب، أركن إليها صباحي ومسائي رفيقة دربي، لا

يفارق محيّاها محيّاي، أهشّ في وجهها حينا أنفّس عنها، وتنفّس عنّي حينا آخر. أسير لا وجهة لي، ولا أعبأ بالزّمن الذي تذكّرني به السّاعة الكبيرة التي تقف في صرامة كسيف بتّار فوق ذاك العمود في رأس الشّارع الرّئيسيّ.

رذاذ المطر... أوّل قطرات منه تنقر رأسي، وتبلّل بعضا من ثيابي. أقفل عليّ كآبتي، وأتدثّر بحزني، وأحثّ الخطى إلى غير وجهة بين زخّاته، وبين الشّوارع الواسعة يتّسع ضياعي.

المطر... السّير على رذاذه يذكّرني بك ككلّ مرّة ذاك اليوم وأنت تُنقل إلى مثواك الأخير. تبتلّ عيون السّماء تبكيك... تبكي الغدر على أرضها، لتسلمك طاهرا مبتلاّ بندى أمانيك إلى الأرض لتحفظك منهم، وتبقيك بين أحشائها إلى أجل...

أسير تحت زخّات المطر، وشعوري بالضّياع يستحوذ عليّ، ويرديني ريشة في مهبّ الرّيح، تنتابني رغبة في أن أهيم ما تبقّى من عمري، وأقيم على حوافي بيوت الآخرين أرمّم انكساراتي.

تجذبني الشّوارع الطويلة والأرصفة الممتدّة، فأواصل طريقي من غير وجهة. كانت الطريق في ذهني غير واضحة المعالم، تتقاذفني الذكريات والجراح والأماني المغتالة في كلّ صوب. وأشيح بوجهي مرّة أخرى عن السّاعة الكبيرة في ذاك الشّارع تتلقّفني أينما حللت، تذكّرني بضرورة العودة، وتقول لي كفّي ضياعا، وابدئي من جديد فلا زال في الحياة بقيّة... فما ولّى لن يعود ، وهذه عقاربي شامخة تدور بانتظام على مرّ الأيام والسنين مهما جرى، وما انقضى من أوقات وإن بدا بسيطا هيّنا

دقائق وساعات وأيّاما يستحيل عودته، فأوبي إلى صوابك وابدئي من جديد... وارفعي رأسك وظلّي شامخة كسنديانة، فها هي الشّمس على ما جرى تحت ناظريها على هذه الأرض الجريحة، تشرق على الدوام، تدفئ بأشعّتها القلوب العارية، وتؤنس وحدتهم، وتشحنهم أملا...

لا تمكّني الأيدي الطويلة منك، فقد أرادت أن تقتل حبّ الحياة فيك بعد أن أجهزت على ياسين غيلة... أَيْ مريم، لا تدعيها تنال منك، قفي شامخة كعقارب السّاعة الكبيرة، ولا تتوقّفي مهما كانت الظّروف والمحن. لا تدعيها تنتصر على الحبّ فيك، فقد غسل هذا المطر هذا المساء كلّ الضّغائن التي رست في الصّدر، وأرداك كيوم ولدتك أمّك، وفي صفاء قطرة ماء، فانهضي ودعي الأمل يشرق بين حناياك، ففي الحياة جوانب جمال وخير، نقّبي عنها لتريها بعينيك الوادعتين الحالمتين واسعدي مرّة أخرى...

13– الإبرة والخيط القرمزيّ يغوصان بين ثنايا المخمل ومعهما أغوص في ذاكرتي. بقايا القماش وما تناثر منه تملأ محاكة أمّي تطلب منّي إعانتها على جمعها في كيس من قطن خاطته لهذه الغاية. أجمعها وأجمع معها قصّة كلّ ثوب، والمرآةُ المشروخة وجهي وشاهدي على الحكاية.

المحلاّت تتتالى آخذة أعناقها بأعناق بعض... الأوّل والثّاني والثالث كلّها للأقمشة على اختلاف أنواعها وألوانها. شارعان مخصّصان لعرضها يكادان يخلوان ممّا عدا ذلك إلاّ كافيتيريا "السّلام" في الشّارع الأوّل، التي يقصدها كثير من النّاس مقابل فنجان قهوة شديدة التّركيز، في طاولة منفردة مع تصفّح لجريدة أو أكثر، وقراءة لمختلف الأخبار في هدوء، ونادلةٍ تنبري مطواعا، وأنت تراقب الحياة التي تبدو من زجاج المبنى هادئة وبعيدة كأنّها لا تعنيك.

وينزوي في احتشام محل صغير يتخلّل الشّارع الثاني للأقمشة، محلّ للأكل الخفيف، وتصحو بالقرب منه نشطةً مخبزةٌ واسعة برفوف كثيرة لمختلف الأصناف، تعجّ بزبائنها ككلّ صباح. يتخصّص كلّ شارع أو شارعين في بيع سلعة ما، فتتراصّ جنبا إلى جنب، مقدّمة للزّبون أكثر من فرصة ليجد ضالّته بأسعار يكون الفرق بينها ضئيلا.

أمّا الشّارع المقابل من الطّريق فخصّص للذّهب والمجوهرات الثّمينة، تقف النّساء أمام واجهته ينتقين خاتما أو قرطا أو عقدا أو ما شابه، يدفعن ثمنه بالتّقسيط لجهاز بناتهنّ. والشّارع الآخر لبيع

الأدوات الكهرومنزليّة، هكذا أرادت التّجارة وأرباب المال تقسيم الشّوارع وفق الاختصاص والتّحكّم بجغرافيّة المكان.

ما يلائم ملاءات السّرير وشراشفه وغطاء النّوافذ من قماش هو ما أبحث عنه اليوم في محلاّت القّماش. الورديّ بتدفّقه اللّونيّ يغري النّاظر، يسحبك إليه... وكذلك الأزرق والأخضر والبنفسجيّ... كلّها فاتنة. المخمل والسّاتان والكتّان، الشّتويّ منه والصّيفيّ والرّبيعيّ، مبسوطةٌ في أعمدة متراصّة يميل أحدها على آخر من جنسه، ثمّ يُترك فراغ بين النّوع والنّوع الآخر لتنسّق هي الأخرى في أعمدة تقف مائلة لتصنع ذلك التّدرّج اللّونيّ، وفرجة تشدّك إليها.

ألوان الحياة في هذه المحلاّت كثيرة ومختلفة، تدعوك لأن تعيشها، لأن ترتديها وتتلبّس بها، وتفتح الصّدر لتعبر إليك دفعة واحدة، فتمحو الألوان القاتمة وتتربّع عليه وتقيم فيه، لتصيّرك إنسانا آخر مفعما بالحياة وألوانها الضّاجّة نشاطا وعنفوانا وأملا. هل يمكن لهذه الألوان مجتمعة أن تحدث هذا التّأثير في النّفس الذي شعرت به، أم تراني أتشبّث بأيّ قشّة أصادفها لأكون إنسانا جديدا؟

أبدع الباعة في عرض سلعهم، وجذب العين إلى ما رسم من تدرّجاتها. تلك أقمشةُ ستور النّوافذ التي أبحث عنها، لكم هي منسقة وجميلة! أختار لون الفرح والنّقاء والطّهر، يأسرني إليه ويحوز الرّيادة على بقيّة الألوان. البياض سِترا للنّافذة، فسحةٌ تدعو الشّمس لأن تحطّ عليها بأشعّتها، لون راحة البال وإضاءة القلب،

يلائم بداية حياة زوجين سعيدين. وذاك اللّون القرمزيّ المخمليّ لِينسدل على جانبي السّتر يكسر البياض، ويزيّن أحدهما الآخر.

الفُرُشُ ورديّة، والبُسط والنّمارق على السّرير تعتليه متناظرة، وعلى أرضيّة الغرفة تنسدل في دلال، أراها وأتصوّرها. ذاك الدانتيل الورديّ الموشّى في اتّساقه معها على جوانبها أتخيّله مع ديكور البيت جميلا منسجما، كأنّما أريج الورد يفوح منه، ويملأ المكان عبقا.

- قصّ لي ستة أمتار من القرمزي، وخمسة من الأبيض.

- بكم مجموع قماش النّافذة والسّرير؟

- ...

أدفع ثمنها وأغادر المحلّ إلى الشارع المقابل. تنقصني بعض لوازم الخياطة من إبر وخيوط ملوّنة وأشياء أخرى أبتاعها من دكان مجاور في عجل، وأعود إلى البيت أحمل مغانمي.

بؤبؤ العين يتّسع بعد أن صيّرته النّوائب ضيّقا كخرم إبرة، ضبابيّا ومنطفئا كالنّفس المنزوية المتقوقعة في انكسارٍ داخله. يتّسع ويزداد بريقه، كأنّي أرى الحياة للمّرة الأولى بجمالها وألوانها وبريقها. تزيده الألوان اتّساعا ودهشة، والأماكن الواسعة تفتح له الآفاق، بعد أن غار بين جدران الغرفة الواحدة في البيت أو الجريدة. النّاس في الشّوارع يتدافعون لأجل اللّقمة، تدفعهم غريزة البقاء لأن يستمرّوا، وإن فاضت أعينهم حزنا.

الحياة مخلوق غريب يقتات من أحزاننا تماما كأفراحنا. تتوالى صفحات أيّامه وتستمّر، وإن سقطت ورقة هذا أو ذاك. الحياة

مخلوق فتيّ لا يخطّ مفرقه شيبٌ، شامخ بابتسامة دائمة وإن أخفى بين جوانحه حزن الخليقة. الحياة كأمّ تبدي لصغارها الوجه البشوش ترسم معالمه، وتغضّ الطرف عمّا ينخر أحشاءها وما تراه من أحوال الدّنيا... تواريه ولا تفكّ أسره إلاّ ليلا تسكبه على مهلٍ لتستعيد نفسها صباحا. يدفعني تيار الحياة بين حشود النّاس، ويُلبسني ثوبَه وسَمْتَه، وأتأبّط مهمّتي الجديدة وكلّي عزم لأن أقاوم وأكون، فمن لم يعرف الألم ولم يذق مرارة الحنظل، فلن ينتشي بالسّعادة التي تعقبهما، ولن يشعر بآلام الآخرين وجراحهم.

تنتظرني أمّي اليوم على خلاف العادة على المائدة، وقد أعدّت الغداء. أُفاجأُ...

- مفاجأة سارة، كم مرّ من وقت لم تفعلي فيه ذلك، ولم تغادري سريرك إلاّ قليلا وللضّرورة الملحّة!
- شعرت اليوم بتحسن قدميّ، وأنّه بإمكاني تحريك يدي اليمنى قليلا. انظري، لعلّه دفء الجوّ وزيادة الحرارة في موسم الرّبيع.
- ولعلّه الدّواء الجديد الذي وصفه لك الطّبيب الثّاني في المدينة المجاورة أحرز نتيجة وتحسّنا ملحوظا.
- الحمد لله على كلّ حال.

أمّي تضفي على الطبق طعما مميّزا ممزوجا بالدّفء والأمان. كان بهارَها الخاصّ الذي لا تجده في محلاّت الدنيا. تعيدني إلى رائحة الطّفولة... واجتماعنا حول المائدة نتبادل الحديث، ونلتهم بشراهة ما أعدّت. آتي على طعامي كلّه الذي سكبته بيديها الواهنتين في

الصّحن، ثمّ أكرمه تماما كما عوّدتنا في صغرنا تعيدنا إلى المائدة إذا أبقينا على لقمة أو لقيمات قائلة:

- إكرام الصحن مسحه كليّة، ثمّ شكر الله على نعمته.

أشكرها على صنيعها الشّهيّ وأوضّب المكان، ثمّ أحضر أكياس المشتريات لأريها ما اقتنيت. تفرك الأقمشة بين يديها ثمّ تنظر إليّ مبتسمة:

- نوعية جيّدة من المخمليّ في الأسواق لم أخطها قبلا، ولكنّها أكيد ستكون زلقة أثناء الخياطة وتحتاج إلى يد متقنة وصبورة. عليك أن تكوني عند حسن ظنّ جارتنا وثقتها بك، إذ تركت لك حريّة شراء القماش.

- سأكون عند حسن ظنّها إن شاء الله.

أنفض الغبار عن آلة الخياطة، وأنزع ما بقي ملتصقا بها من خيوط أو ما شابه، وأجرّها من غرفة أمّي إلى غرفتي. أبسط القماش الأبيض ومعه أبسط نفسي، وأُعملُ المقصّ فيه بعد أخذ المقاسات، وأحاول معها أن أقطع شوائب علقت بين جوانحي، فاسودّ لها القلب، وأجتثّها وأرميَها بعيدا كما أفعل بالقماش الذي يفضل عن الحاجة.

هل اجتثاث السّواد من القلب بهذه السّهولة كمن يطرح ما فسُد من أطعمة أو حاجيات؟ وإذا كان كذلك فلم تبقى القلوب سوداء تنفذ سوداويتها من مسامات الجلد، وتطفو على السّطح، فتظهر القتامة على الوجوه لا تنفع المساحيق ولا الأصباغ في توريتها؟

أَنظُم الإبرة وأضع قدميّ على المدوسة، وأشرع في الخياطة، وصوتها هو صوت أمّي في انحنائها عليها ليالي الشّتاء المرعدة على طولها وبردها. تتلقّفني بنظراتها أوّل ما أخرج من غرفتي دافئةً، وفي وجنتيّ وعينيّ احمرار أفركهما وأنا أبحث عنها.

الفراش الدافئ فارغٌ والوسادة خاليةٌ، وعلى الكرسيّ البارد تلتصق ساعاتٍ طوالٍ على انحنائها... أسألها أن تناولني شربة ماء. دون تذمّر تُسرع الخطوات إلى المطبخ لتسكت عطشي، وتختم قبلة على جبيني لتعيدني إلى فراشي، وتطفئ النّور. أعود إليها مرّة ثانية ملحاحا، أجذبها من أطراف ثوبها القطني السابغ... تستدير إليّ بانحنائها وتُباغَتُ... تتلقفني هذه المرّة بنظرات قلق واستفسار... أسألها مرّة ثانيّة بعينين شبه مغمضتين يؤذيهما ضوء المصباح، وأنا أفركهما من النّعاس باليد الأخرى:

- أمّي اتركي لي ما فضل من قماش لأخيط لدميتي ثوب زفافها؟

تبتسم وتومئ لي برأسها بالإيجاب، فأعود إلى غرفتي لأتمّ الحلم الذي بدأته عن زفاف دميتي، وثوبها الأنيق الذي أخيطه بنفسي.

لون الأمان الدافئ الوديع هي أمّي، ورائحة الفرح النّديّ، وصوت العطاء الغضّ الذي لا يأفل، تعمل ليل نهار، وعزمها لا ينقطع، وهمّتها لا تلين أو تخبو، لا تشكو ولا تتذمّر. تسكنها طاقة خرافيّة وإرادة فولاذيّة تدفعها لنحيا حياة كريمة هادئة دون مكدّر. وكان أخي يغار ممّا تخصّني به من بقايا القماش، فيفتعل أيّ مشكل ليشبّ الشّجار بيننا منتهيا بمعاقبتها لنا معا.

هي الأب الذي لم أره، وبرنسه البنيّ الوبر الذي يدثّرني في اللّيالي الحالكات، ويبثّني شعلة وقّادة بين شعاب ومفاوز هذه الحياة الصّعبة، غير أنّ دفأها وحنانها لم يمنعاها من الحزم والصّرامة في مواطن التّأديب، خاصّة إذا تعلّق الأمر بدراستنا وعلاقتنا بالأصدقاء والجيران. كانت تقسو علينا لتصنع منّا ما أرادت.

الخطّ مستقيم ترسمه الإبرة على القماش المخمليّ القرمزيّ، وعلى مساره تتبدّى تعرجات حياتي بين الصحافة رئيسةً لقسم الاجتماعيات، ثمّ تنعرج بي السّبيل إلى مصحّحة لغويّة في مجلة للموضة. انحناءات الطّريق تقصيك عن بغيتك، وما يحفّها من مكاره يجعلك تعدل عن المسار المستقيم الذي رسمته، لتتيه بين الدّروب الضيّقة، فيتوارى فيك الإنسان الذي كنت تبغيه يوما. وقد يجذبك التّيار إلى شفا جرف هارٍ، وأنت تعتقد أنّك قد وصلت إلى أعلى القمّة. وقد يلقيك على حافّة الحياة، يركنك جانبا لا حول لك ولا قوّة، فلا تصدّق أنّك ذاك الفتى اليافع الحالم الذي كنته يوما. الحياة تعرّجات وتقطّعات، ولا وجود للخطّ المستقيم فيها.

الإبرة والخيط القرمزيّ يغوصان بين ثنايا المخمل، ومعهما أغوص في ذاكرتي. بقايا القماش وما تناثر منه تملأ محاكة أمّي، ها هي تطلب منّي إعانتها على جمعها في كيس من قطن خاطته لهذه الغاية. أجمعها وأجمع معها قصّة كلّ ثوب، والمرآةُ المشروخة وجهي وشاهدي على الحكاية.

القماش الأبيض الرّفيع المطرّز جوانبه بين يديّ على الماكنة، تُوثّقُ الإبرة مسار الخيط عليه. المسار الأخير، وبعده أجمع القماشين واللّونين أضمّهما وأضعهما جانبا. بعض أوراق لم أُتّم تصويبها اللّغويّ وتنظيم فقراتها وإخراجَها على مكتبي في الزاوية تنتظر. أُتمّها على تعبي ساعات متأخّرة من الليل.

ذاك فراشي الدّافئ، وتلك مخدّتي التي بلّلتها ليال كثيرة أشركها في فجيعتي. اليوم سأحكي لها عن فرحي، عن رغبتي في العطاء، عن حاجة الفتاتين إلى تصاميمي ولمسة يديّ، وحاجتي إليهما أبعث كياني بهما، وحكايتي مع الإبرة والخيوط الملوّنة... أحكي عن القماش المنساب إلى النّفس الحزينة، يمسح عنها ما علق بها من شوائب، فيعيدني إلى أيّام الطفولة الهنيئة بلون أمّي وصوتها ورائحتها عندما أندسّ بين ذراعيها، وهي تنهر أخي إذا ما أراد ضربي... ويذكّرني بالمرآة المشروخة، وتباهيّ أمامها طفلةً تسبح في خيالها بأثواب الزبائن البيضاء والورديّة المبهرجة بفصوص ذهبيّة وأخرى فضيّة...

يومان آخران وأنهي شراشف السّرير، وعليّ بعدها أن أخرج مع الفتاتين للتّسوّق لمساعدتهما في اختيار القماش الذي أخيط به ثياب عرسهما.

صباحات الرّبيع باردة، يلفّها قليل من الضباب الذي تزيحه الشمس بعد ساعات من إشراقها، ثمّ ترتفع الحرارة فيعمّ الأجواء إطلالة ربيعيّة بهيّة. أدقّ الباب فإذا بصوت جارتنا زليخة يستقبلني سائلا:

- من الطّارق؟

تدعوني للدّخول فور سماعها لصوتي.

- مرّة أخرى يا خالة، اعذريني أنا في عجلة من أمري، وعلينا الإسراع، لأنّي سأعرّج على مقرّ الجريدة لأضع عملا أنجزته، وأستلم آخر.

تستعجل ابنتيها، ثمّ نخرج معا نركب الحافلة إلى وجهتنا. كان الفرح يشرق في عينيهما يزيدهما نضارة، وتتلألأ الابتسامة على وجهيهما، تشي لكلّ ناظر بمبلغ غورها في الصّدر.

في بهو المحل حيث مختلف أنواع الأقمشة منضّدة أجمل ما يكون عليه التّنضيد، أستعيد نفسي بما أهديه لهما من تصاميم، بما يوطّن الابتسامة على وجهيهما. أحاول أن أوقظ الفرح فيّ بما أمنحهما من عطاء، ففي العطاء راحة وارتقاء وحياة للقلوب. أتصوّر الأقمشة المزيّنة عليهما بمختلف الألوان كقوس قزح تختالان فيها، وتزينّهما فرحتهما بهذه الحياة الجديدة التي تقبلان عليها بكلّ ما فيهما.

تنتقي الفتاة الكبرى قطعتين من قماشٍ، واحدةٌ من الإيطاليّ الرّفيع الشّفيف الموشّى بفصوص دقيقة تزيّن الورود التي رسمت من قماشه. وأخرى من الساتان السّميك الذي يوضع أسفل الشّفيف منه. أمّا الصّغرى فقد مالت بي إلى قطيفة عنابيّة محبّرة بأشكال من الجُمّان رفيعة، تسألني رأيي عمّا يلائمها من أنواع الفصوص الذّهبيّة وأشكالها لتوشيتها.

نصادف محلا لبيع إكسسوارات لديكور البيت. لمسات الجمال بادية في عرضها، تنسيق ألوانها مغرٍ على اختلاف مادّتها:

- أنظرا إلى هذه التّحف من الخزف والكريستال والنّحاس والفضّة... مروة أنظري سآخذ طقم الكريستال، ما رأيكما؟

- أنا سآخذ الطقم النّحاسيّ.

تنتقي منها الفتاتان توليفتين جميلتين لغرفتي النّوم والاستقبال. تحوز عليّ من بين المعروضات دمية متوسّطة الحجم بها شَبَهٌ لا أدري كنهه بدميتي -دمية الطفولة-التي أهدتني إيّاها أمّي في عيد مولدي، والتي أفسدها أخي بعد سنة من فائق العناية بكسر ذراعها، بعدما حاول نزعها من بين يديّ عنوة ذاك اليوم... شهقت يومها شهقة أفزعت أمّي، ثمّ أجهشتُ بالبكاء كمن يبكي عزيزا من لحم ودمٍ.

- أتراه ثوبها الأحمر؟... أجل كنت أميل إلى إلباسها هذا اللون بالذات... وذاك الثوبُ يشبهه...كانت تأسرني البهرجة فيه، فأفضّله على غيره من الفساتين على كثرتها بكثرة القماش الذي يفضل عن حاجة أمّي. أم تراها ابتسامتها غير المكتملة المبتورة ونظرة عينيها؟

سأثبّتها في غرفتي بالقرب من سريري على تلك القطعة الخشبيّة المزيّنة في الزاوية، إلى جانب العربة الرخاميّة التي يجرّها حصانان أبيضان ناصعان، وتركبها أميرة صغيرة من زمن غابر، أكيد أنّي سأسعد بهذه التّوليفة، تعيدني إلى الطّفولة الهنيّة الطاهرة!

- سآخذ هذه الدّمية.

- بالقرب منها قطعة خزفيّة بديعة بيضاء بشكل دائريّ، بل يميل قليلا إلى البيضاويّ. منقوشةٌ جوانبها، لامعةٌ. سألتهما بحركة من يدي أن يأتيا ليقولا رأيهما فيها.

- صفاؤها أجمل ما فيها.

قالت لبنى، وعلّقت مروة:

- يبدو أنّها زجاجة عطر، ثُبّت على طرفها خيط به مضخّة يدوية، بعد أن يُملأ بالأريج الذي يريده الزّبون.

- ستكون لأمّي، وسأملؤها بعطر الياسمين الذي تحبّه، وأبثّه في مخدعها. أدفع ثمنهما، ويناولان هما أيضا صاحب المتجر ثمن الطّقمين، ثمّ ننصّ السّير بين حشود المارّة. أستعجل ذهابي إلى مقرّ العمل، فأودّعهما إلى حين أخذ المقاسات، تحملان فرحتهما، وتتوقان إلى أن تعرضاها على أمّهما. أَدَعُهُما ورغبة جامحة تتملّكني أنا أيضا في أن أباغت أمّي بهديتي.

رائحة المزبلة العموميّة القريبة من المقرّ يتّسع مداها اليوم أكثر من عهد مضى تستقبلني... النّوافذ الصغيرة مغلقة، هاربة من نَتْنها على دفّتيها تتقوقع، وباب الغرفة شبه مفتوح. وعلى المكتب يجابهني العدد الأوّل من مجلّة "ستيل" بحلّة قشيبة ملوّنة. الغلاف أملس رقيق، تعلوه صورة مكبّرة تكتظّ بالمساحيق، ويشحّ قماشها قائما بكعبين عاليين ناتئين، ووريقاتٌ بين دفّتيه مدسوسة بين صور أشخاص، وعرْضِ آخرِ صيحات الموضة، تتخلّلها عناوين ملوّنة فيما

يشبه المقالات. وفي الدّرج تنكمش الأعداد الأخيرة من الحقيقة بالأبيض والأسود، يتيمة شريدة في ظلمته...

طرق خفيف على الباب... يتبعه دخول صبيحة التي أسندت لها ضمن التغييرات الأخيرة مسؤولة إخراج المجلة لخبرتها:

- صباح الخير مريم، تبدين مرحة اليوم.
- كنت في السوق مع ابنتي جارتنا لاختيار القماش سأخيط لهما بعض جهازهما.
- والله أحيّيك على هذه الروح. ولكن أخبريني كيف تستطيعين التوفيق؟
- هو في الحقيقة بطلب من جارتنا لذا لم أستطع أن أردّها، ولأجلي أيضا لعلي أخرج ممّا أنا فيه من توقوقع.
- فيها خير، على كلّ حال العدد الثاني ينتظر تصويباتك ليصدر، ثمّ علينا أن نجلس معا لمونتاجه فيما لا يتجاوز الأسبوع.
- قضيت ليلة البارحة في إنهاء هذا العمل إلى ساعة متأخّرة، وقد صار الآن جاهزا. تصفّحت مجموع المقالات التي وجدتها على مكتبي هذا اليوم. سأعيد قراءتها فيما بعد على مهل، وفي غضون هذا الأسبوع ستكون جاهزة، أمّا المونتاج والإخراج فأنت الخبيرة لا أنا.
- أحتاج مساعدتك على كتابتها، وتوضيب الصور والألوان وتوزيعها على مساحة الكتابة.

جلست بجانبي نتبادل أطراف الحديث قبل أن نشرع في الإخراج:

- هل السّيد الشّايب في مكتبه، لم أره عند دخولي.

- لم يحضر هذه الصبيحة لا هو ولا السكرتيرة، قيل هو في سفر.

أعود إلى البيت بمجموعِ المقالات، ودميةِ الطفولة ذات الثوب الأحمر المبهرج، وقارورةِ العطر بعد أن عبّأتها بأريج الياسمين، أفاجئ أمّي وأباغتها، فكم مرّ من وقت لم أهدها شيئا.

أحثّ الخطى وأذكر ابتسامتها العريضة، وتلألؤ عينيها حين كان أخي يعمل في الدّكان، ويهديها بين الفينة والأخرى ثوبا أو ملحفة مطرّزة. سيول السّعادة تفيض من عينيها، فتدعو له بزوجة صالحة وابن بارّ.

14- بين هذه الأسوار تحفّني السّكينة كأنّما هي عازل بين حياتين متنافرتين، وإن أسلمت أولاهما إلى الأخرى. هل الموت تحرّر من الخوف، وراحة من ضغائن النّفس؟

قبل خلودي إلى النّوم في آخر يوم قبل نهاية الأسبوع أقطع عهدا على نفسي أن أجتاز أشواطا في خياطة هذا الطّلب الذي لم يكن كبقيّة طلبات الزّبائن بالنّسبة لي... سيحدّد مسار حياتي، وقدرتي على العطاء والاستمرار والانتصار على تلك الأيدي. يختبر الإنسان فيّ، الإنسان الحيّ الطّموح ويخلّصني من أدراني، من الضّغينة التي اسودّت لها شراييني، وقتم لها وجهي، وغارت لأجلها أمانيّ، وغدوت شيئا آخر هشّا غير الإنسان الذي كنته.

أشمّر عن ساعديّ في الصباح الباكر، وأشدّ المئزر لأشرع في تفصيل ثوبَي عرس ابنتي جارتنا. المقصّ الأحمر -خاصّةُ أمّي- احتفظ به منذ زمن ليبارك تصميمي، والمدبس -باللّون ذاته ، فهو أحبّ الألوان إلى أمّي- المصنوع من قطعة المخمل، دائريّا ومبطّنا. هما أكثر الأشياء التي كانت تستهويني جمعتُهما معا عند توقفها عن الخياطة في الكيس القطنيّ الذي خصّصته لجمع زوائد القماش، واحتفظت بهما لمثل هذا اليوم أقتطع بهذه اللّوازم تلك الأيّام لأبعثها فيّ من جديد.

أذكر كلامها تحذّرني ممّا يصنعه المقصّ، حيث لا مجال للعودة بعد أن يفعل فعلته:

- أَعمِلي ذهنك في التّصميم، الطول والعرض والأكمام والطيّ وموضع الأزرار وبقيّة التّفاصيل.

كانت تشتغل على التّفاصيل تدهشني لمساتها.... وهي تقف على رأسي لتوجيه أوامرها التي كانت قاطعة لا نقاش فيها:

- أُحسبي لكلّ ذلك حسابا، ثمّ ليكن المقصّ آخر المطاف له سلطة التّنفيذ، ولا مجال للعودة بعد الطّريق التي يسلكها. لا تكوني شحيحة في القصّ، اتركي مساحة صغيرة للخطأ حتّى تتداركي بعض الهنات.

قطعة الطّبشور والدّبوس هي لمساتك الأولى على القماش، وبعد إعمال المقصّ تتّخذ الإبرة مسارها لتصنع أناقة القطعة، وبأناملك الفائقة الحساسيّة لتفاصيل الجمال اضبطي ما نقص في الموديل بذوقك، لتكون تحفة بديعة من يديك.

كانت هذه الكلماتُ دروسها الأولى... لا تزال ترنّ في أذنيّ، تُعاد على مسامعي كلّما لمست القماش، وسمعت تكتكة الماكنة.

أزيح اللّحاف عن آلة الخياطة، وأجلس إليها أسمع قصّتها مع انحناءة أمّي على الكرسيّ البارد ساعات اللّيل الطويلة. القماش الإيطاليّ بين يديّ الشّفيف منه والسّميك، والفصوص الدّقيقة عليه هي معالم الطّريق... وصورة الثّوب في واجهة المحل الأنيق المكوّن من طابقين للتّقليديّ والعصريّ من الملابس تحْضرني، وتأسرني لمسات الجمال فيه، وتستحوذ عليّ تفاصيل أناقته...

- ثوبٌ نَمِيقٌ مُوَشّى بفصوص من الخرص، ورصائع نيطت إليه تعتلي الصّدر، وعلى حوافي الكوعين، تنساب إلى أخمص القدمين... تحفة من قماش لو رأيتها يا أمّي! أتراني أقدر على إنجازها كما في مخيّلتي؟

- ستقدرين، بل ستكون أفضل إذا كانت من صنع يديك...

قطعة أنيقة منسدلة تصل الماضي بالحاضر. والقطيفة العنّابيّة متدليّة الأهداب بكمّين عريضين تنساب هي الأخرى في ثوب سابغ، مبهرجةٌ جوانبه تقف في دلال وتغنّج.

كانت البهرجة نقطة ضعفي ألتقط ما سقط عن أمّي من فصوص ذهبيّة أو فضيّة أو ألوان أخرى، لألصقها على ثياب دميتي. كنت أحاكي أمّي في عملها وحركاتها. وكثيرا ما لعبت دورها جاعلة الدّميّة زبونتي أكلّمها، وأسألها عن ذوقها، وما تريده في الثّوب بعد أخذ مقاساتها: طول القامة واليدين وعرض الكتفين ومقاس الخصر...

مرّت الأيّام سراعا بين المدوسة وقطع القماش، والإبرةُ ترسم مساراتها عليه تزيدني ثقة بنفسي، وتفسح لي المجال بما تتيحه لي من وقت وخلوة، لأطرح أسئلة ثارت في خلدي حول محلّي من المجلّة، ومدى ارتباطي بها، وهل هي المسار الذي بدأته يوما مع ياسين، ولأجله يرقد في كومة التّراب، أهي ما أريده لقلمي؟

العروسان ترتديان ثوبيهما منسابين على القدّ الميّاد، وزغرودة قويّة تلهج بها جارتنا ودموع تفلت منها، تشاركها أمّي تشدّ عقيرتها بعد أن تستجمع قوّتها، فقد شهدت طفولتهما ورأتهما أمام عينيها تكبران.

جهاز العروس... الفلّ والياسمين مبثوث عليه، وربطات الدانتيل الورديّ تلفّه بربطات العنق من شرائط حريريّة، كما تلفّ الشّريكين في هذا الرباط المقدّس. بعض ممّا جمعته لجهازي، وما أهداني إيّاه ياسين من ثياب في الفاتحة ألفّه بأشرطة بيضاء وأخرى ورديّة، وألفّ معه حزني نائيا أُبعده. وتنفلت من النّفس زفرة أُسرِع لمحوها، فليس الحين حين بكاء، ولن أسمح لذكريات الموت أن تطفو على المآقي أو الوجوه، فالأيّام أيام فرح وزغاريد، وقد عاهدت نفسي أن أفرح لفرحهما. أجمع ما لففته في الشّرائط، وفي كيس رُسمت على جانبيه ورود بمختلف الألوان أضعه، لأهديه إلى العروسين في أسبوعهما الأخير في البيت الذي ترعرعا فيه، وشهد طفولتهما.

سأزورك غدا في المقبرة لأحكي لك عن فرحي، وسأتّشح بالوشاح الذي تحبّ، وباللّون الذي راقك ذاك اليوم الذي تظلّ قسماته رسما لا يمحوه كرّ الزّمان. اليوم الأوّل من الشّهر الذي تلا فاتحتنا. كان قميصك يومها آجريّا، وبيدك اليسرى حملت حقيبتك البنيّة الصغيرة، وباليد الأخرى تأبّطت فرحتنا تخفي وردة حمراء عنّي في كيس به بعض الأوراق والملفّات. وكانت عيناك تفضحانك وهما تشيان لي بما في الكيس. الوردة لا تزال في دفتر أزهاري بعد أن جفّفتها، محافظة على اللّون واللّحظة والابتسامة. وأنت لم تعد موجودا إلاّ في ذاكرتي، وعلى مسامات وجهي تتشرّب ما انهمر من دمع ولا تحرّك ساكنا...

وقفت أمّي بجانبي ثمّ دنت إلى مجلسي حتّى شاركتني مقعدي ففزعت من شرودي، حيث لم أنتبه لدخولها الغرفة، وقالت بعينين تأملان منّي شيئا:

- أحبّ أن أتصدّق على أبيك بطبق كسكسي كما يشتهي بلحم الضأن والمرق الأحمر والخضار.
- على عيني يا أمّي سيكون جاهزا صبيحة الجمعة...
- وأحبّ أن أهدي جارتنا زليخة صحنا منه، فهي بعد أن تزوّجت ابنتاها وحيدة تشتاق لمن يدقّ بابها.
- على العين والراس يا أمّي...

لا أدري لم للوليمة في عرفنا طعم الكسكس بزبدة البقرة الحارّة، وللفرح نكهة القرفة المزيّنة للطبق تعتلي حبّات الحمّص المتراصّة وسطه. أعددت لأمّي ما تريد فلم أستطع ردّ طلبها وأرسلته لجارتنا التي فرحت بقدومي إليها، ثمّ انصرفت لاستعجالي ولم أدخل بيتها رغم إلحاحها...

المقبرة مكان اللّقاء، وإليها أشرئبُّ وأمنع العين أن تفيض... أقاوم حزنا تلبّسني أشهرا... نسائم الحنين تهفو بي تسرّع خطاي، وابتسامتي تعلو محياي على أمل اللّقاء. ألم أقل إنّي امرأة بدأت بعد نقاط النّهاية وإسدال السّتار، مقلوبةُ الأوصال، ومسرحي أحاديٌّ، ولوني السّوادُ؟

على الحجر الصّلد هناك في المنحدر الشّمالي اعتدتُ أن أجلس القرفصاء أتأمّل صمتك وحضورك، وأحدّثك بين الشّفاه عن حال الدّنيا. كان الكلام بيننا لا يعرف التّوقّف ولا نقاط النّهاية، تماما

مثلما كان الحال في حياتك. حتّى بعد أن أغادر المقبرة أواصل حديثي إليك، تستمع إليّ مخدّتي بسحنة فيها الكثير من القلق حول المآل الخطير لهذه العواطف المستحيلة المجنونة، ثمّ ترقّ لحالي فتهديني أحلاما ورديّة، وتسكنني غيمة، ووعدا باللّقاء يوم المحشر...

الأسوار الخارجيّة من إسمنت، تنتظم في ارتفاع لا يتجاوز المترين، يعلوها سياج يلفّ المقبرة كمن يحمي الأموات من الأحياء. الطلاء أبيض يتوشّح به الموتى، كما غطّاهم البياض يوما من أعلى الرّأس إلى أخمص القدمين قبل أن يُدلى بهم إلى تلك الحفر المظلمة. وأشجار الصّنوبر باسقة في الجانب العلويّ منها، وشجيرات من نباتات شتّى تتناثر هنا وهناك، فيمتزج في العين الاخضرار والبياض ولون التّراب، ترتاح لها العين، وتُسْلمُ النّفسُ لها صاغرةً تسليمها بحتميّة الموت.

بعد دقائق نصل أسوارها الخارجيّة حيث يتجمهر الباعة المتجوّلون، الحياة الصاخبة والموت الوديع الصّامت جنبا إلى جنب، لا يفصلهما سوى سور من إسمنت، والأحياء لقلّة حالهم وبؤسهم يقتاتون من حزن أهالي الأموات وما يجودون به في زياراتهم. مختلف أنواع النّباتات بروائحها العطرة تصلح لتغرس على القبور وتُبقي جثوة التراب مخضرّة نديّة، ومادام القبر أخضر نديّا مازال صاحبه في مأمن من النّار.

هذه اعتقادات النّاس من أهل هذه الأرض سواء أكانت صحيحة أم خاطئة. وقنينات الماء والحلوى والكعك أنواع من الصدقة على الميّت، وأحسن الصدقة صدقة الماء خاصة إذا صادف الزّائر يوما قائظا. وهؤلاء الأطفال المتسوّلون يتناثرون على امتداد المدخل، وفي

جوانب منها بثيابهم الرثّة وأكفّهم الممدودة ينتظرون صدقة المقبرة. أرزاق تساق لهم من أيّام الجمعة في هذا المكان الذي يتصوّره كلّ ذي عقل جدبا، غير آهل إلاّ من دمع أهالي الأموات ودعائهم. أضع بين أيديهم صحن الكسكسي وأخاطب أكبرهم:

- أبقي الصحن هنا حتّى أعود لآخذه.

- صدقة مقبولة يا خالة.

أرى صبيّ الياسمين عند عتبة المقبرة استبطأ مجيئي بعد غياب أسابيع. تسألني ملامحه لم قطعت عنّا بعض النّقود لأمّي المريضة؟

أختارُ لَفَّات ياسمين أجمعها في باقة كبيرة الحجم، وأعبر سور المقبرة، وفي جعبتي قصص شتّى أحكيها لك، وهرولةً آتيك لا تقدر قدماي على حمل شوقي... الياسمين يلفّ محيّاي بشذاه، ووريقاته الصّغيرة النديّة تحمل أنفاسي إلى جثوة التّراب، هناك حيث ذاك الحجر الصّلد الذي افتقدني هو أيضا. أخاطبني:

- أي مريم انثري الياسمين... ومن بياضه املئي الرّوح، وأغدقي العطاء على كلّ من حولك... وأينما حللت ازرعيه، بين حنايا الصّدر وبين جنبات هذه المقبرة، واحملي ما استطعت منه لياسين، فلعلّه في تلك الظلمة أحوج ما يكون إلى نفحاته...

أهديتني ذات يوم ياسمينا في أصيص بزهور بنفسجية، قلت لي إنّ صديقا لك أحضرها من بلد أجنبيّ... كان لونها بلون دهشتي، ولا زال نداها عالقا بأصابعي. صنعت لي في الأيام الموالية عندما قدمت إلى بيتنا في زيارة طوقا من الياسمين ببياض فؤادك، بعد أن علمت

حبّي له. قلت إنّك قطفته من ياسمينة في الحي تعرش أغصانها عند مدخل أحد البيوت القديمة. غرس أريجه في نفسي أقحوانا وزنبقا وفلاّ، وأسكنني حدائق بابل وقصر منيف. أراك اليوم مكتوف اليدين لم تحمله كسالف الأيّام، ولم تشمّ أريجه. طوق الياسمين مازال على الثرى أصمّ، يؤرّقه غدر السنين، ذاويا على جثوة من تراب، ينتظر أن تلتقطه.

أرفقتَ يومها الياسمين ببطاقة من زجاج رقيق مصقول بخط النسخ عليها كلمات لي. حروفك مرمر، صهوة جواد ممشوق تجوب البوادي والحواضر.

كنت بأناملك الرقيقة تمسك بالقلم لترسم الحرف، تستنطق الجمال فيه، وتعزف على أوتاره الرفيعة، تطرّز حواشيه، تفخّمها، لترفع هاماتها. صوت الحرف بين يديك أسمعه كأنّما يلقى إليك إلقاء ثقيلا، الصلصلة بين مسامعي تحضرني الآن، ثمّ يُسرّى عنك وقد تشكّلت حروفك جسدا مرمريّا ممشوقا يذهل كلّ ناظر.

سأوصي خطّاطا مجيدا ومتقنا برسم اسمك واسم أبي على شاهد القبور بالخطّ الذي تحبّ، خطّ النّسخ.

أهرول هرولة لقبر أبي أقرأ فاتحة الكتاب، وأدعو له ودموع القلب تبكيه، تبكي صورة لم ترها، وصدرا لم تنعم بدفئه، وأمّي تمشي الهوينى. عكّازها الخشبيّ يسندها ورجلاها تخطوان خطوات مرتعشة. أعود إليها بعد أن استبطأتها أُعينها لتجلس إلى قبر أبي. وقبر ياسين هناك في المنحدر يبدو لي من هذه الزاوية واضحا.

صار القبر رمسا سويّ ترابه. تتطاير الأتربة هنا وهناك بعد أن تعبث بها الرّيح. وأنا أرمقه وأشتاق إلى الحجر الصّلد، وإلى المكان الذي يجمعنا، وإن كان الثرى فاصلا بيننا، جالسة القرفصاء ما شاء الله من زمن أحدّثك.

نمت حشائش حوله... وشجيرة اليازير أورقت وأينعت، والطست قد تغيّر لونه، صار باهتا بفعل الحرّ والقرّ. وأنت لا تزال قابعا حيث أنت تنتظر منّي زيارة، وهذه باقة الياسمين إليك تذكّرك بما كان بيننا شاهدا على تلك الأيّام الجميلة على قلّتها.

بين هذه الأسوار تحفّني السّكينة كأنّما هي عازل بين حياتين متنافرتين، وإن أسلمت أولاهما إلى الأخرى. خارجها حيث الأيدي القذرة تطالك وتعبث بحياتك، وداخلها وتحت التّراب حياة لا تقدر هذه الأيدي أن تصل إليها، هل الموت تحرّر من الخوف، وراحة من ضغائن النّفس؟

أشعر بالأمان بين أسوارها كأنّما لا تصل إليها تلك الأيدي، أم هو حنين إلى الأصل والمآل، فمنها خلقنا وفيها معادنا، ومنها نُخرج تارة أخرى؟

تتملّكني رغبة عارمة في الحديث إليك عن عودتي إلى ذاتي، وفضل جارتينا في ذلك، عن حاجتي للعطاء ونَفَسٍ آخر للحياة. عن قصّتي مع الخيط والإبرة وما رسماه في نفسي من تعاريج، وعن الدّفق الذي أمدّاني به... دفق الحياة والاستمرار... عن ألوان الحياة التي انتشلتني من كآبتي وأحيت الإنسان فيّ... عن الغادين والرّائحين بين قماش

شفيف وآخر نميق مزدان بهرج جذّاب، عن حشود النّاس في معترك الحياة تقبل عليها رغم الجراح لأجل فلذات أكبادها، ولأجل نفْس جبلت على حبّ الحياة.

عن المصحّحة اللّغويّة التي صرتها بين أشباه مقالات تعجّ بالمساحيق، بين قماش شحيح وابتسامة ملفّقة...عن قلمي الذي أُخرسَ متتبّعا الهنات اللّغويّة والدّمُ على الأرصفة قد اسودّ.

لا يزال الحجر الصّلد على حاله، عليه أجلس أحكي لك عمّا حجبني عن زيارتك، عن صوت المدوسة وهي تصنع فرحة جارتينا، وعن الثّوب النّميق الموشّى والقطيفة العنابيّة السابغة تنثر على النّاظرين بهاءها، وزغرودة أمّي على ضعفها... التي طالما ادّخرتها لعرس أخي الذي صار أملا مؤجّلا إلى حين غير مسمّى، ولفرحتنا التي سرقت، ولمّا طال انتظارها وهبتها لابنتي جارتنا واهنةً مبحوحة.

سأحكي لك عن الشّرائط الحريريّة، وربطات الدانتيل الورديّ التي لففت فيها سعادتنا ذات يوم، أَجمعُ هداياك لأهبها نَفَسًا جديدا بين يديّ عروسين تنتظرهما حياة جديدة بزرقة السّماء، وعطر الورد وندى الصّباح واخضرار العشب الغضّ... سأحكي لك عن فرحتهما، وقلقهما في الآن ذاته لدخولهما بيتا لم يألفاه. فرحةٌ ممزوجة بدموع فراق عشّ طفولتهما، ووداع أبيهما المقعد وأمّهما المتحايلة على المعاش. عن مَحَرْمة الفْتول التي ارتدياها وخيط الرّوح والكراكو، هذه الملابس والحليّ العتيقة التي لا تزال تقاوم غدر الزمن، وتصحب أفراحنا رغم مناظر الدم.

سأحدّثك عن بريق عينيهما وهما تُزفّان وسط زغاريد المدعوات، وعن فرحة والدهما الذي أقعده المرض، وكأنّما زال ما به في تلك اللّحظة التّاريخية في حياة الأسرة. وهما تحنيان رأسيهما إلى مقعده المتحرّك ليُلبسهما البُرنُس، ميراث جدّهما منذ ثورة التّحرير، لتعبرا عتبة الدّار إلى بيت الزّوجيّة. وتقبّلان رأسه وتنصرفان راضيتين مرضيتين على وقع الزّغاريد ودموع الفرح.

أتلمّس -وأنا أرنو إلى أشجار الصّنوبر- المشبك في يدي لا يزال في إصبعي... هو ما أبقيتُ عليه من بين ما أهديتني، أقلّبه يمنة ويسرة، وبريقه يأخذني إلى تلك الأيّام البيضاء. أيّامٌ كانت قليلة انقلبْتَ بعدها رأسا على عقب.

الكتابة حياة ترفض التّجزئة وأنصاف الحلول، حرف يسكن الرّوح فتصدّقه الجوارح، وترسم تعاريجه على البياض. الكتابة في هذا الوطن شهادة من نار في لحظة تجلّ حارقٍ تصيّره الأيدي الطويلة دمويّا، تحجز لك إقامة إجباريّة تحت الثرى، ليُقدَّم إلى عائلتك بروازٌ بأطر مذهّبة يحمل اعترافا بجهودك وترحّما على روحك، وقصيدةٌ مهلهلة باردة لتأبينك، واسمٌ لأحد الشوارع المغمورة، هذا إن كنت محظوظا وذا شأنٍ.

كنت بكتابتك عن أحزانهم، وأحلامهم كمن يلتقط القذى ليكف أذاه عن طريقهم، فانعم بشذا الياسمين أضعه على ثراك غضّا تستنشقه إلى أن تُبعث، واترك تلك الأيدي لزهومة الدمّ تكدّر حياتهم، ونتانة الحقد تمتصّ جشعهم وغطرستهم، وتنغّص

مغانمهم. واهنأ تحت الثرى، فما من مجروحٍ جُرِح في الله إلاّ بعثه الله يوم القيامة وجرحُه يَدمى، اللّون لون الدّم، والريح ريح المسك.

صارت المقبرة ممتلئة في الآونة الأخيرة. معاول الحفر تشتغل في الجانب العلوي منها والسفلي والغربي أيضا، لا يكاد جانب فيها إلاّ وصار رمسا ينتظر مقيما جديدا. نبشٌ عن الأحزان وقبرٌ للأحبة الذين سرقت حياتهم غدرا. أرى جنازة فأقوم عن الحجر الصلد، وتدمع عيناي فإنّ للموت فزَعا، ومرارةً أُشربتها، وما من حيّ إلاّ ذائق من حياضه. أرى العيش كنزا ناقصا كلّ ليلة، يستوي في ذلك كلّ حيّ، غير أنّه في هذا الوطن كنز تسرقه الأيدي الهمجيّة غدرا بسكّين تستلّه ليلا، أو رصاصٍ تطلقه عنوة، ثمّ تنصرف مزهوة دون رقيب.

أشتاق إلى صفحتي، وإلى الحقيقة منّي تجوب الشّوارع، تلتقط عدساتها جروحا غائرة، وابتسامات موءودة، وأحلاما مسروقة. الفاعل والمفعول، الجار والمجرور هي قصارى اهتمامي، في تصويب لغوي تراق على جوانبه الدماء. المجلة التي تركت هموم هذا الوطن تحت ضغط الرّصاص وحزّ السّكين والخناجر لتشتغل بموضة ثوب، ومكياج مدلّس، وقَصّة شعر في بلد يغتال قهرا، وتُوأد أمانيه حارة ولا يلتفت إليها أحد. مسار قلمي الذي انعرج إلى طريق لم أرده له، وحاد عمّا رسمناه معا ذات يوم في جريدة الحقيقة.

الحقيقة التي وُوريت التّراب مع كلّ اغتيال لصحفي أو كاتب، ولُحدت في كفنٍ مكدّسةً في أرشيف الجريدة. هل هذا هو المسار الذي أردته لقلمي وأردناه معا لحياتنا؟

أعود من المقبرة برفقة أمي وقد سكبت فرحتي بين يديكَ، قصصي مع القماش، مع العطاء، حاجتي إلى العفو والحبّ لأحيا، وتعبي من الحقد، ورغبتي في الحياة، ففرح الصفح لا تعادله ساعة انتقام وكدر. لذة العفو تدوم أبد الدّهر فاعفي واصفحي أي مريم، ولذّة الانتقام لا تتجاوز الساعة، ثمّ تصير نارا وندما يحرق صاحبه...

دوّى الرّعد صباحا، ففزعت في مكاني ألجأ إلى الدّثار وأنا لا أزال في الفراش، وأنّت السماء فوق هذه الأرض الجريحة تفرغ غضبها، تغسل النّفوس والشّوارع. كبستُ على فزعي حتّى لا يحتويني، حيث عليّ المداومة في العمل والذهاب إلى المقرّ. تأبّطته وأنا في عجلة من أمري أقصد الحافلة. ملصقات الحذر والحيطة تصفعني ككلّ صباح، لم أستطع الاعتياد عليها رغم أنّها تكتسح الشوّارع والممرّات كطوفان، فتزرع في داخلك بذور الموت وترعاها. كانت خنجرا وخيانة، تسوّد صباحي وتهتك أمني المفتعل، وتهدر إنسانيتي. تصيّرني أشلاء متناثرة لقنبلة مدسوسة تحت مقعد أحد الرّكاب، أو في زاوية من زوايا محطّات المسافرين، فأتكوّم في ثيابي وأزداد رعبا... أو تصيّرني خروفا يذبح صباح أعياد الأضاحي، فأمشي وأنا أتحسّس رقبتي، وأودّ لو كنت شيئا، حجرا أو شجرا. أشارف على الموت في ذهابي وإيّابي كلّما ركبت الحافلة، أو مررت بين جموع النّاس بما تبثّه هذه الملصقات.

ابتلعني الشّارع وأنا على تقوقعي على أحد كراسي الحافلة. وفي المساء عدت يتلبّسني الشعور ذاته، حيث لم أستطع الفكاك منه هذا اليوم بالذات ولا أدري السبب، والتففت على نفسي في طريقي

إلى البيت، أحاكي السلحفاة إذا ما رأت غريبا، في توجّس منّي شديدٍ. شعرت بغربة موحشة قاتلة، وكان كلّ النّاس غرباء في عينيّ...

قبل أن أصل الطّابق من العمارة الذي يقع فيه بيتنا وجدت خالتي زليخة تنتظرني، لفّتني حيرة أُشربتْ بكثير من الخوف والارتياب، وكبُرت حالة التّوجّس التي تلبّستني منذ الصّباح عند رؤيتي لها فاحتوتني. أتراها أمّي لم تقدر على النّهوض وفتح الباب لها؟ بادرتني بالقول باكية آسفة، فتناثر في نفسي آخر ما جمعته طيلة اليوم من محاولة للسكينة:

- أمّك في المستشفى أغمي عليها بعد رؤيتها للمجزرة في نشرة الأخبار.

- أيّة مجزرة؟

نطّت كلّ الأسئلة ترتطم في ذهني وتصطكّ لها ركبتاي، وعتّمت الدّنيا من حولي، ولم تقدر قدماي على حملي، وأتى عليّ الوهن الذي شعرت به منذ الصّباح مطبقا فكّيه.

- المجزرة التي أودت بحياة أمّها وأخيها وعائلته.

أمّي، جدّتي، خالي، زوجه، أبناؤه، العفو... تساؤلات كثيرة تزاحمت في رأسي، ولم أدر ما أفعل. أين أنت يا أخي لتكون سندي، أبي ببرنسه حضر فجأة أمامي كما صوّرته لي أمّي، أحتاج إليه بقربي... أخذتني خالتي زليخة إلى المستشفى حيث ترقد أمّي غائبة عن الوعي إثر انخفاض السّكري وارتفاع الضّغط بعد الصدمة.

نما الحقد بين أضلعي جبلا شاهقا ودكّ كلّ رغبة في العفو، وكلّ جميل. تراجعتُ أشواطا عمّا رسمته، وما قطعته من عهد على نفسي

بأن أصفح وأجبّ الماضي، لم أقدر على الوفاء. أيديهم القذرة طالت فرحتي التي بذرتها في نفسي فاغتالتها وهي لا تزال برعما، تتهجّم على عفوي فتشعله قهرا ثمّ حقدا، وتحوّله إلى دم يسيل على مسار حياتي، يلطّخ الأثواب التي أخيط، والتّصميمات التي أبدع، والأمل الذي أحيك على وقع المدوسة. يصيّر تصويباتي اللّغوية على شبه المقالات سوادا وجرما ارتكبته في حقّ نفسي، وحقّ ياسين وحقّ هذا الوطن. طوفان الدّم يجذبني إليه ليغرقني، وأشعر بالاختناق وأنا أجتاز عتبة المستشفى.

أخبار الموت التي يهديها موجز الأخبار على ذلك الجهاز الصدئ تشظّيني وأنا في قاعة الانتظار في قسم الاستعجالات، المجزرة الرهيبة، عدد الموتى، الرّؤوس المفصولة والأجساد التي لا تحمل هويّة، هناك في الكوخ الترابيّ بين سنابل القمح التي طالما زرته برفقة أمّي أيّام العطل...

التِّيه ثانية

أيعقل أنّي في المكان ذاته لا أبرحه، وما من أمل في الخلاص؟!

15- لمّا فتحتْ عينيها بعد أن رسم ابنهُ معالم وجهها بطبشوره الأحمر ووالدُه يحمله إلى قامتها الفارعة، كان أوّلَ من رأتْ فأحبّته، وبدأ دفء ابتسامته يسري فيها أوّل ما دبّت الحياة بين أوصالها.

على مرأى البصر تتهادى الحشائش في السّهل الغضّ، يداعبها النّسيم العليل، وتحطّ الفراشات البيض على الأزهار البريّة الممتلئة بندى الصبّاح ترتشف الرّحيق. بدت الأزهار بساطا أخضر تزيّنه الألوان على اختلافها، تتجمّع هنا وهناك، الأحمر والأصفر والنيليّ تأخذ النّاظر وتأسر ذا اللبّ. في منتهاه شجرة تين معمّرة تمتدّ أفنانها بأوراقها العريضة، تجذب كلّ مارّ إلى ظلّ وارف تحتها، أو إلى ثمر يستلذّه بين جنباتها. حاول الصغير أن يعتليها ليقطف بعض الثمر لأبيه.

- اتركها وانزل، لا يزال أمامها بضعة أشهر حتّى تستوي.
- سأنزل يا أمّي، ولكن عندما تستوي سأكون أوّل من يقطفها.

غير بعيد عن السهل حقل فسيح تفتّقت براعمه بعد طول انتظار، تقف وسطه فزّاعة فارعة الطول تعتمر قبّعة. وإلى جانبه دار واسعة صُنعت من التّراب والطوب مسقّفة بالقرميد الأحمر، واصل طريقه إليها بعد أن نزل من شجرة التين ونفض ثيابه من غبار التصق بها.

- هاك خذ الغداء لوالدك في الحقل، وعد في الحال. أمسك به جيّدا.
- حاضر جدّتي، سأقطف بعض شقائق النّعمان وأعود...

كانت دار الطوب مكوّنة من غرفة طويلة على شكل مستطيل في جانبها السفليّ أُعدّ التّنور. وهو مكان منخفض قليلا ببعض سنتيمترات عن الأرض على شكل حفرة صغيرة، امتلأت جوانبه رمادا مع بقايا خشب محترق وآخر قد تفحّم. أجيجها يُسمع ليالي الشّتاء الباردة، يبعث في النّفس الدّفء والرّغبة في الالتفاف في الفراش.

ها هي النّار تحتدم ويعلو لهيبها، والقدر تغلي بين الأثافي، والأمّ تخلطها بالملعقة الخشبيّة الطويلة الساق بين الحين والآخر. إذا ما رفعت غطاءها جاءها الصّبية يتدافعون بعد أن تجذبهم الرّائحة، يستعجلون موعد العشاء. وإلى جانب القدر إبريق الشّاي ينتظر.

- حذار أن تقعوا في القدر كأم جعران !

- من هي أمّ جعران يا أمي ...؟

- اذهبوا إلى جدّتكم تروي لكم الحكاية.

تحلّقوا حولها يستعدون لمعرفة قصّة المرأة التي سقطت في القدر.

- هي ليست من بني البشر بل خنفساء كبيرة كانت تعدّ العشاء لأطفالها.

لا أدري لم بقيت أتصوّرها امرأة حتّى بعد توضيح جدّتي، لعلّها طريقة الجدة التّمثيليّة، تلين بصوتها مرّة وتحزم أخرى فتدفع بأقصى ما في نبرات كلامها من غلظة وقوّة، فأعجب لها كأنّها ليست جدّتي، وتضرب صدرها بين الفينة والأخرى محاكية أهل أمّ جعران من أخواتٍ وعمّات وخالات في بكاء فقيدتهنّ. كانت تُسهِم كلّ جوارحها في الحكي، هذا لمّا كانت تنعم بالصحّة والعافية، وتُبصر

الطريق وتستطيع حتّى نظم ما دقّ من الإبر لتخيط لنا ثيابا لدمى العرائس.

عادت مقتطفات من حكايات جدتي تملأ عليّ خواطري وأنا في قاعة الانتظار. تقاسيم وجهها وهي تحاكي شخوص الحكاية التي ترويها لنا ماثلة أمامي في الكوخ ونحن نتحلق حولها بعد أن أبعدتنا عن التّنور. وتحضرني كلّ التّفاصيل ...

لم يكن الحطب ينفد من مخزن المؤونة، تضرم زوج خالي قِطَعا منه كلّ مساء ليتدفّؤوا، وتطهو به عشاءهم. فوق التّنور مدخنة ترابيّة عريضة تحفظ الحرارة في أسفلها، فيجتمعون قربها كلّهم، يفركون أيديهم من شدّة البرد، وحِلق نَفَسهم البارد تتصاعد كلّما تجاذبوا أطراف الحديث، أو بدرت عنهم قهقهة لما تحكيه الجدّة، غير أنّها تضيق في الأعلى ويشتدّ سوادها بفعل اللّهيب منتهيّة بفتحة في السّقف.

كانت مدخنة ترابيّة اعتادها سكّان الأرياف في تصاميم بيوتهم، يتوارثونها كابرا عن كابر، تصرف ما يتصاعد من دخان إذا ما اشتعلت عيدان الحطب، وتأجّجت النّار. وفي الجانب العلويّ من الغرفة حصير مهترئ تناثرت خيوطه، يمدّدون عليه أجسامهم بعد كدّ النّهار، كثيرا ما تشاقى الأعمام عليه في صغرهم. وأسفل منه قليلا مكان يتّسع للعب الأطفال ومشاكساتهم التي تطول ليالي الشّتاء الزّاحفة ببطء شديد، إلى أن يناموا صرعى تبتسم الطفولة على ثغورهم الصغيرة الحالمة.

خصّصت الغرفة الثانيّة للضيوف، فـ "البيت الريفيّ كثير الرّماد لا يخلو من عوّاده، وجلب بعض التّراب وبذل مزيد من الجهد ليومين أو ثلاث يفي بالغرض ويحفظ ماء وجوهنا"، هذا ما قالته زوج خالي، ووافقتها وباركت رأيها جدّتي التي أعياها المرض، ولم تعد تبصر إلاّ ظلالا وأوهاما بعد وفاة جدّي تتلمّسها، وتتثبّت منها بيديها المرتعشتين.

أمّا الغرفة الثالثة فكانت مخزنا مليئا بشوالات من الخيش، معبّأة بالقمح والشعير والدقيق، هي رأس مالهم وثروتهم، مع بقرة وعنزات وبعض أغنام تنام في الجانب الشّمالي من فناء البيت الواسع، في حين تجتمع غرفتا المعيشة والضيوف ومخزن المؤونة في الجانب الجنوبي منه.

بضعة أمتار من الباب الخارجي القصديريّ الذي لا يغلق إلاّ بعصا غليظة، قُدّتْ من شجر الصّنوبر، توضع عليه تثبّته فلا يتأرجح بفعل الرّيح، على بعد منه تستقرّ غرفة صغيرة يضع فيها علف بهائمه، يحرسها كلبه النّباض المتوقّد الذي كان يترك مهمّة الحراسة بين الحين والآخر لينام غير بعيد عن صاحبه، فلا يقدر على فراقه طيلة اللّيل بعد أن يلازمه اليوم كلّه في الحقل والمرعى، قائما يحرسه. يضرب بذيله ينشّ ويطرد الحشرات اللّيليّة من ذباب وبعوض، يحلو لها أن تصطاد فريستها حينما تغفو إغفاءتها الأولى. يهشّها بذيله بين الفينة والأخرى ويعود إلى استسلامه، إلى تخدير النّوم وسلطانه. صار ابنه البكر ومن يليه رجلين يعتمد عليهما، تركا المدرسة باكرا،

والتحقا بالحقل يساعدان والدهما. أمّا الصّغيران فكان أحدهما يحبّ كراسه وكتبه يصحبها معه إلى المرعى، والآخر لا يزال فتى شقيّا لم يفارق حجر والدته.

كانوا هنا وهذه آثارهم وما تبقّى منهم، القدرُ والنّار الخامدة خمود الحياة في أجسادهم، ودماءُ الغدر على الحائط الترابيّ سيّالة في ليلة بهيميّة، نزفوا فيها حتّى آخر قطرة من إنسانيتهم ودمويّة تلك الأيدي وتعطّشها. وتلك أسنان الجدّة الاصطناعيّة معفّرةً بالدّم والرّماد قرب القدر نزعتها لتنظّفها بعد آخر وجبة لها، ولم تعد لتضعها وتثبّتها في فمها المتضوّع برائحة الطيب والقرنفل. كانت الجدّة رائحة الطيب والقرنفل، وكان الطيب والقرنفل هو الجدّة تُذكَر به ويُذكر بها، غير أنّ رائحة الدّم ألغت الرّوائح الأخرى بزهومتها.

وذاك كلبهم باسط ذراعيه يحرسهم، يكاد يسقط رأسه عن جسده تمسكه جلدة فروته، مفتوح العينين متجمّد النّظرات يتوعّدهم بنظرته الشّزراء. وبهائمهم لم يبق منها إلاّ بعض تبنها اقتيدت في ليلة ظلماء، وذاك ماؤها مدلوق، والإناء على رأسه مطروح أرضا كُسِرَ أعلاه، والمكان مبتلّ بالجريمة، وآثار اليد الهمجيّة عليه تخرس كلّ الأفواه.... وغرفة مؤونتهم مشّرعة الباب، بعد أن كانت ربّة البيت تحكم غلقها حتّى لا تعبث بها يد الصغير بحبل تشدّه إلى مسمار كبير ثبّت في حائط التّراب.

الباب مشرعة... والمؤونة ناقصة بل تكاد تنفد، تبقّى منها بعض شوالات فحسب، فبماذا سَتَسُدّ أفواه أبنائها الجياع وتسكت

صرخة الصّغير في الأماسي الشتويّة الباردة، وماذا ستخبز من الدّقيق، وماذا ستضع على التّنّور والنّار محتدمة متأجّجة تتنظر، والحطب متراصّ بعضه فوق بعض في الغرفة الخارجيّة احتطبه من الغابة المجاورة والعرق يتصبّب عن جبينه، والحرارة تلسعه في أواخر فصل الصّيف، وهو يقول بعد أن أنهى عمله:

- يكفي هذا ذخيرة للشّتاء القادم...

قالها وهو يمسح بطرف قميصه عرقه المتصبّب... الأفواه زرقاء باردة، والرّقاب من الشّريان إلى الشّريان تنزف الطّفولة المستباحة على الحصير البارد، وكسرة الصّغير لا تزال في يده الغضّة، نام لاعبا وأبى أن يتركها، قد تجمّدت أصابعه عليها واصطبغت بحمرة دمه الطّاهر... كنت أرى معالم المكان الذي أعرفه جيّدا على الشاشة بعد أن عُبث به، وأتصوّر أحاديثهم وما جرى لهم...

وتلك رائحة الخرّوب في ساحة البيت، لا تزال تتضوّع من أزهاره الصّغيرة بعد أن تسقط لتحلّ محلها قرون برائحة زكيّة، رائحة الأرض العذراء النّقيّة... اعتادت أن تقطفها الأيدي الصغيّرة لتأكلها، وتمتصّ حلاوتها، ثمّ تطرح ما بها من بذور. ستجفّ حبّات الخرّوب في أعلى الشّجرة، وسيمرّ الصّيف ثمّ الخريف دون أن يقطفها أحد، وستظلّ على حالها إلى أن تسقط على الأرض المنتهكة الملطّخة بالدّماء يابسة كليلة...

تلك الجنّة الوارفة خلت على عروشها، قاعا صفصفا صارت ما تبقّى منها إلاّ الفزّاعة... تمنيت أن أكون هناك لأحضر الجنازة وأتلقّى

التّعازي، ولكن على كتف من أبكي موتانا السبع، ولمن أبثّ خوفي على أمّي الفاقدة للوعي؟ لم أستطع أن أجابه الصّدمة بمفردي، ولن أقدر على رؤية تلك الجثامين، ولا الحقل الشاغر إلاّ من الفزّاعة التي بقيت وحيدة في الحقل الفسيح تجترّ صمتها، وتعيد مشهد الدّم صورة صورة.

تستعيد تلك السّاعة التي لم تسمع فيها إلاّ شهقات أَنْفُسٍ تودّع سبعة أضرحة... يخرج الضريح تلو الآخر، والنّفوس تكاد تؤوب إلى بارئها معها، وهي من علٍ ترقب اليوم الجَلَل.

تسيل دموعها من غير عينين، والقلب يتمزّق من غير مضغة. نحيب وعويل لا ينقطعان تسمعهما من الدّار... لم تعد تسمع الآن إلاّ رجع التّكبير... التّكبير ثمّ التّكبير. التّكبير يعيد النّفس إلى صوابها، ويردّها إلى الإيمان بقضاء الله وقدره، شرّه قبل خيره. يطمئنها إلى أنّ فوق تلك الأيدي الطويلة الغادرة يدا عادلة تُمهلها ولا تُهملها إلى يوم يُقادون فيه إلى قعر لا قرار له، يسمعون حسيس ناره، ولا مناص لهم منها، فهم حصبها، تنمو لهم أجساد وتتجدّد بعد أن تفنى. يشربون من حياض الموت مرّات غير مسمّاة لا مرّة واحدة كما سقوا قتلاهم...

الفزّاعة كئيبة دون أهلها... دون من صنعها وكساها بتلك الثيّاب، لكنّها كانت رغم ذلك شامخة في مهبّ الرّيح تحت الأنواء ولهيب الشمس، لا تزال واقفة تحرس من يريد أن يأكل الغلّة. تتوعّده بالخوف... بأن تزوره ليلا لترعبه بأطيافها.

كانت دَمِعةً في جوّ اللّيل الممتدّ الآفاق المطبق صمتا رهيبا، بعد أن قضت اليوم كلّه أبيّة شامخة. تخفي بين يديها وخز الضّمير، فشلها في إخافة الأيدي الطويلة. وتعزّي نفسها بأنّ تتصوّر أنّ تلك الأيدي لم تعبر الحقل، بل مرّت من الباب الخلفي وإلاّ لكانت لها بالمرصاد. لم تعلم أنّها لا تخيفها آلاف الفزّاعات، ولا أنياب أغوال عماليق، ولا وحش الخوف نفسه. ترمي بأطنان منه ثقلا كابسا على الأنفاس كلّما مرّت جالبة الموت والدّمار والدّماء القانيّة.

كانت تنتحب... نحيبا مريرا، فهي مدينةٌ لفلاّح هذا الحقل بحياتها. جمعها من الخشب والقصب قطعة قطعة، ونشزها فشكّلها من يدين ورِجل واحدة، وألبسها بنطاله الأسود الشّاحب الذي بلغ في فؤاده مبلغا، حيث لم يفارقه طيلة سنوات من حياته. كان شاحبا كثير الرّقع تمزّقت بعض جوانبه... ومعطفَه الرّماديّ، أدخل يدها اليمنى ثمّ اليسرى، وشدّ بحزامه السّميك ذاك الخصر النحيف، وثبّته عليها ثمّ رفعها في السّماء، وغرس فرعها في حفرة ذات غور، ثمّ أعاد التّراب إلى حالته الأولى.

كانت من رجل واحدة... لعلّها لذلك كانت عاجزة تلك اللّيلة الحالكة الظلام، فلم تقدر أن تحرّك هذا الجسد الخشبيّ الذي تأوّه ممّا سمع من صرخات استغاثة، لكنّه ظلّ قابعا في مربضه لا يغيّر من الفجيعة شيئا. هل أمكن لهذه الفجيعة ألاّ تحدث إذا ما سمعهم أحد فانتشلهم من براثن الموت، أم أنّ الآذان صُمّتْ وغارت النّفوس

الرّحيمة، ولم تبق إلاّ الأجساد الخشبيّة ذات الرّجل الواحدة يشدّها القاع والتّراب مغروسةً في حفر المخاوف الغائرة؟

هل يمكننا أن نغيّر الأقدار، ونحسّن وجه الحياة بأيدينا أم نحن دمى خشبيّة تحرّكها يد خفيّة؟ " الخير فيما اختاره الله وقدّره"، هل يمكن أن يتصوّر الخير في صورة هذا القدر الدّامي على فجاعته، أم أننّا نعلّق فجائعنا على هذه اليدّ وهذه المشيئة، وندّعي أن لا خير إلاّ فيما أصابنا رُكونا منّا إلى الخوف والجبن واستسلاما لليد الباطشة؟

الرّوح الحانيّة المطمئنّة تتمكّن منها، تُطبع على محيّاها، تتشرّبها منه بابتسامته التي ينثرها كلّ صباح. يغتدي إلى حقله باكرا والطير في وكناتها، يحمل قارورة الماء المغلّفة بقماش الخيش السميك المبلّل ليحفظ برودتها، وخبزَ الشّعير. كانت زوجه صباح كلّ يوم تغربل قدرا من الدّقيق لتخبز ستّة أرغفة، تعطيه اثنين ليضعها في مزوده الجلديّ برائحة الماعز، قابضا عليه كأعزّ ما يملك إلى أن يحين موعد الغداء، فيقطف من مزرعته الصّغيرة حبّات طماطم محمرّة الوجنتين وبصلا وخيارا لامعا تحت أشعّة الشّمس، تكون وجبته الطّازجة برفقة أبنائه الذين يساعدونه في فلاحة الأرض. وقد تحضر له زوجه طعاما ساخنا ممّا طهته في أيّام الشّتاء الباردة. وقد يكون غداؤه لبن البقرة الشهيّ ينعشه ويجدّد طاقته في أحرّ أيّام الصّيف الملتهبة اللّسعات.

- سآخذ قسطا من الراحة بني، اِلعب في الجوار ولا تبتعد

بعد غدائه يأخذ قسطا من الرّاحة، فيتّكئ للقيلولة تحت شجرة التّين الكبيرة الممتدّة الأغصان، الدانية القطوف، تظلّله أوراقها

المتفرّعة، وهي تلحظه من عل. أسمع حديثه لابنه وأراه في قيلولته كأنّما هو أمامي في هذه اللّحظة...

إنّه يبتسم لها وينفخ فيها من روحه الوديعة المطمئنّة، وهي تحرس حقله. كانت الأغربة وأنواع أخرى من الطيّور كأبي الحنّاء والدوري واليمام والشحرور والهزار تحوم فوقه دون أن تجرؤ على أن تحطّ على البذر لتسرقه وتفرّ به بعيدا، تسكت به جوع صغارها.

كانت ابتسامتُه تنفخ فيها روحا هادئة وديعة، ينثرها دون حساب وهو ينثر الحبّ قمحا وشعيرا. لمّا فتحت عينيها بعد أن رسم ابنه معالم وجهها بطبشوره الأحمر ووالده يحمله إلى قامتها الفارعة، كان أوّل من رأت فأحبّته، وبدأ دفء ابتسامته يسري فيها أوّل ما دبّت الحياة بين أوصالها. أحبّت تفانيه في العمل، وإقباله على الحياة رغم شظفها. كان يصنع الأشياء من العدم يبثّ فيها النبض والرّوح كما بثّ فيها. أحبّت نظرته الحانيّة المطمئنّة. يسكب الحُبّ أينما حلّ...

بينها وبين صاحبها عِشرةٌ ومِلْحٌ... ترقبه في غدائه بعد أن ينقطع غناؤه، وتنبعث الرّائحة الشّهيّة ممّا تطهوه زوجه عبر أمتار، وهو يجلس إلى تلك الشّجرة الكبيرة شجرة التّين الوارفة الظلال. تراه يتناول اللّقمة بعد الأخرى بعد أن نال منه الجوع والتّعب، فتنبسط أساريره وتحمرّ وجنتاه ويزدان بعلامات القناعة والرضا . فتشبع الفزّاعة لشبعه، كأنّما يطعمها ممّا يأكل، ويسري في بطنها ما يسري في بطنه، وترتوي لارتوائه، وهو يبتسم لها وتبتسم له، تؤنسه في وحدته، تزيل بعضا من نَصَبه...

هو جزء من مشهدها اليوميّ بل هو المشهد كلّه. تراه على مدار السّنة، وكلّ صباحٍ أكثر من زوجه وأمّه العجوز وأبنائه، إلاّ في الأيّام التي يتّجه فيها إلى القرية لابتياع ما يحتاجه. تراه حينما تكون الشّمس عزيزة المنال حانية، مطلوبة يُخطب ودّها، تقيه البرد، وتدفئ عظامه، وتبعث النّشاط في يديه المحمرّتين من لسعات البرد. وعندما تكون ربيعيّة تخدّر من يجلس إليها، وتبثّ فيه إذا ما انتصف النّهار بعد عمل الصّباح الرّغبة في الاستلقاء قبالتها، مراقبا حقله كأمّ ترقب خطوات صغيرها الأولى. وحين تكون صيفيّة تستيقظ لاهبة تتوعّد من يجابهها وجها لوجه فيتّقيها بمظلّه الكبير الذي يخفي نصف وجهه، ولا يقدر على أن يقف تحتها دقائق، وهي في كبد السّماء وقت الهاجرة، تتربّع عليها وتنفث سعيرها.

تراه الفزّاعة وترقبه في كلّ تلك المواسم وهي تعلو بهامتها، ولا أحد سواه يؤنسها، لذا فهي مدينة بحياتها له ما تبقّى لها من عمر. تحرس حقله كلّ يوم باكية في قرارة نفسها من دون رجع ما أمضياه من أنس وأيّام هنيئة، وما نثره في صدرها من ابتسامات حفرت الودّ عليه، وأبقته دافئا ما تعاقب من أيّام...

مصلوبةً تبقى على امتداد الحقل الفسيح أتصوّرها، بل أراها رأي العين بعد أن بثّت التلفزة صورة خاطفة عن المكان الذي وقعت فيه الجريمة، حَكَمَ عليها القدر أن تظلّ على هذه الهيئة إلى أجل غير مسمّى. تحرس الزّرع هذا الموسم، آخر موسم... بعد أن بدأت البراعم تنقر الأرض برأسها لتمزّق غشاء التربة فترى النّور، وتسمق

بفرعها نحو السّماء الصّافيّة الربيعيّة ممتدّة، تشرئبّ إلى المدى البعيد بأحلام من نثر بذرها يوما.

تقول ها أنا ذا رغم الأعادي أزيّن حقلك باخضراري، وسأرتفع وستمتلئ سنابلي حبّا، وستكون مكتنزة وافرة الغلّة. وسيسمعون حفيفي أغنّي لك تحت عويل الريح رغم أنوفهم. أغنّي لك زرعك الذي أثمر، وعَرقك الذي أينع، بعد أن غُدر بك ذات ليلة مبيّتة نواياها، ليلة سوداء ممحوكة خيوطها.

كانت السّنابل المكتنزة قمحا وشعيرا المتمايلة امتلاءً بناتِك اللّواتي لم تنجب، ولم تستطع الأيدي الطّويلة أن تئدها، كانت مختفية ليلتها تحت التّراب، واليوم تحت شعاع الشّمس تحيا ترتفع بهاماتها، تغنّي بحفيفها الحاني المطمئن اطمئنانك وحنوّك، تنثرهما ليصلا إلى أبعد مخلوق على وجه هذه المعمورة. تعانق عنان السّماء وأنت ترقد تحت التّراب بعد أن تبادلتما الأدوار... وديعا مطمئنّا لِما صنعت وتركت خلفك. كانت ثغرَك الباسم، وعرقك البارد الذي لم يجفّ، وعمرك الذي لم تقدر الأيدي أن تسرقه وتنال منه.

بغير رجع تبكي، شامخة أبيّة يوم حرث أرضه، وقلّبها ونثر البذور عليها وانتظر أيّاما مترقّبا الغيث، ولكنّ الأيّام توالت رتيبة قفرا، أردفها الشّهر المجدب والشّهران، وصارت الأشهر ثلاثا مجدبات، وهو يستعطف رحمة السّماء، ويسألها أن تكفّ عمّا أقلعت عنه، فقد قحطت النّفوس وهي ترقب مزنة طالت محمّلة بالخير الكثير تغيثها... الأرض عطشى مهياف والبذر ينتظر الفرج.

وتفتّقت عيناه بالفرح العارم عندما أسبلت يومها السّماء، واهرورقت تمدّ الأرض بالحياة قطرة قطرة، كمن يبعثها في مريض أوشك على الهلاك، ثمّ كانت صبوبا سالت لها أودية وأنهار، تطفئ تلك اللّهفة، وتشعل الرّغبة في الحياة والأمل في كلّ ما يدبّ على الأرض، ويخرج منها من حبّ ونبات. مشى يومها تحت المطر جذلا نشوانا وهي تراه وتشاركه هذا الحبور بعد أن سجد للّه شكرا، وإذعانا لإرادته الحكيمة. وها هو يسوّي هذا التراب، وينزع تلك الحصى، ويتحسّس بيديه المتصلبتين فرحة الأرض العطشى بالعطاء، يَبعث فيها الرّوح بعد أن كانت على شفير الرّدى.

ولمّا هدّه التّعب، وبلّله المطر، وتغلّف نعله المطّاطيّ بكتلة سميكة من الوحل والتراب الأحمر المبتلّ، فقيّد حركته وقلّل من نشاطه العارم، التجأ إلى شجرة التّين الكبيرة الممتدّة الأغصان يتّخذها مطّاريّة من ورق، ويلتقط تحتها أنفاسه، وحدقتا عينيه تتّسعان لهذا الحدث السّعيد وترقبانه...

يرى زرعه قد اخضرّ وأينع، والأكمام تتفتّق عنها الثّمار، والماء لمّا يصل إلى جوف الأرض بعد. شهدت الفزّاعة فرحته النّديّة بعطاء السّماء، ترى كدَّه كما يَرى يستفيق بعد أن أوشك على الموت، ويثمر فتُرَدُّ إلى روحه الحياة. كنت أسمعها تتحدّث إلي وتروي لي القصّة، هي الشاهد المتبقي على حلو أيّامه ومرّها.

وها هي أرجوحة الطّفل في شجرة التّين تبتلّ تحت وقع المطر... ولمّا تصحو السّماء وتسطع الشّمس تجفّ ويعود لها لونها، تنتظره

ليتأرجح عليها مترنّما بأغاني الطفولة التي حفظها عن ظهر قلب في صفّه الأوّل.

- تأرجح... على أن يكون في لعبك شيء من الاتّزان، لا أن تتهوّر كما حدث في السّنة الماضيّة.

كانت الفزاعة ساعتها من تلك السّنة منشغلة بإبراز عبوسها، فقطّبت حاجبيها، وكشّرت تكشيرا، فجحظت عيناها واستقام جذعها، تنهر كلّ طائر يقترب من حقل القمح والشّعير، وإذا بالطفل يعلو صراخه، ويرتفع أنينه بعد أن ارتطم جسده بالأرض ارتطاما قويّا، فزعت له الفزّاعة وفرق قلبها، فاشرأبّت بعنقها قدر ما تستطيع مستطلعة.

- ضع الفأس من يدك وأسرع، فولدك يناديك. ولو لم أكن خشبة مزروعة في الأرض لكنت أوّل من ينجده.

أسرع هلعا إلى مصدر الصرخة، فإذا بالطّفل على الأرض ممسكا قدمه اليمنى يتلوّى من الألم ولا يقدر على النّهوض، وقد ازرقّت شفتاه، واسودّ وجهه، وبدأت أمعاؤه تتقلّص، وهمّ بالتّقيّؤ. حمله والده في لمح البصر إلى المدينة مستنجدا بجاره في الحقل المجاور الذي يملك سيّارة قديمة لكنّها تفي بالغرض عند الحاجة. أُدخل على جناح السرعة إلى قسم الطوارىء، وبكاؤه لا ينقطع، وبعد الفحص جُبّرت قدمه، ثمّ غادر المشفى بالجبس يلفّها، وبقي على هذه الحال ملازما السّرير أكثر من شهرين، بعدها تماثل تدريجيّا للشّفاء بعد أن حرم من اللّعب. شهدت الفزّاعة مسراته وما أصابه

من قرح، إن يمسسه يمسسها مثله، ورأت أبناءه يكبرون يصيرون شبابا وفتية يافعين.

الزّرع حان أوان قطافه، والسّنابل ملأى كبائس مضفورة، تنتظر اليد الحانية التي بذرتها ورعتها حتّى أثمرت، لتحصد ما زرعت وتبتهج بهذا الأُكُل. تنقضي الأيّام والأسابيع والفزّاعة تحرس الغلّة في شموخ وإباء. يعقب اللّيل النّهار، وتتهاوى الأيّام والشّهور مهزومة كليلة، واليد الحانية لا تجيب ولا تأتي... وطريق الحقل خاوية مفجوعة فيه، باردة... فقد كان يمشي هَوْنا عليها صباح مساء، يسكب على دربها حُبّه ووداعته بقدميه الصّلبتين المتشققتين، وأقدامُ أبنائه تصاحبه تعبث بالحصى، وتقطف الزّهور، وتتبع الفراشات، وتلتقط الحلزون في بيوته البيضاء الصغيرة، وتجمعها في أكياس لتلعب بها عند وصولهم إلى الحقل. كان يراهم رجالا ومالكين للحقل من بعده، ويطلب إليهم مساعدته في نزع الحشائش الضّارّة ويعطي هذا الفأس، وذاك المنكاش وبلهجة الآمر يسألهم:

- أطلقوا سراح ما قيّدتموه في الأكياس.
- سأحتفظ فقط يا أبي بهذه السلحفاة الصغيرة...سأعتني بها ولن أعذّبها.
- قلت أطلقوا سراح كلّ ما قيّدتموه... حتّى السلحفاة، لقد ماتت السلحفاة السابقة من الجوع بعد أن سجنتها ونسيتها.

فتح الكيس على كلّ ما جمعه والدموع تنهمر على خديه، وترك تلك المخلوقات تمضي إلى حال سبيلها...

كانت الفزّاعة ترى أحلامه تكبر يغرسها في أبنائه، ويتعهّدها كما يتعهّد زرعه...

ويقهر السنابل المكتنزة الانتظارُ، ويعلوها الاصفرار فتجفّ يوما بعد يوم، ويذوي جسدها الشابّ البضّ فاقدا قدرا من وزنه، وتميل إلى اللّون الأسمر الداكن، ويبقى الانتظار على أمل العودة الرّشفةَ التي تحفظ لها الرّمق الأخير وتبقيها حيّة.

كانت الفزّاعة تدري... وأمرّ ما في الأمر أنّها تدري أنّ الأيدي الحانية لن تأتي، ولن تحصد الزّرع وتقطف الغلّة، وتتساءل لم تحرس الحقل، وتدّعي الإباء والشّموخ كأنّ شيئا لم يكن؟ لم لا تدع هذه الخيرات رزقا للطيّور تطعم صغارها، وللبهائم والهوام تقتات منها، فما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة؟ أليست تلك المخلوقات العجماوات أحقّ بالإحسان من كثير من بني البشر؟

قرّرتْ الرّحيل كما رحل جاره في الحقل المجاور... وضعت القبّعة التي كانت تقيها الحرّ عن رأسها، وأسندته مثقلا إلى صدرها الذي يزفر بالآهات بعد أن حزمت حقائبها، فالمهمّة قد انتهت وموسم الحراسة أتى أُكله، وبعد أن عادت حبّات القمح والشّعير كاملة الأوصاف ستدعها هبة لمن أراد أن ينتفع بها كائنا ما كان.

- المهمّة انتهت، فأيّ أرض تقلّني، وأيّ سماء تظلّني، وأيّ حقل أُغرس فيه مرّة أخرى بعد صانعي وباثّ الحياة في جسدي الخشبيّ بابتسامته الحانيّة المطمئنّة؟

الطيور بمختلف أجناسها وأحجامها وألوانها تغرس رؤوسها بين الحشائش، تلتقط الحبّ بعد رحيل من أفزعها سنوات، وكأنّما تندّ عنها همهمةٌ شاكرةً لها هذا التّنحّي. فالشّتاء على الأبواب ولا بدّ لها من جمع المؤونة.

الصّمت الرّهيب يعمّ المكان، والوحدة والذكريات الدافئة والباردة معا تكاد تخنق الفزاعة وتخنقني، وهي تجرّ انكسارها ذاك المساء تبكي خراب بيتها، والمصير الذي ينتظرها في عالم وحشيّ دمويّ. لا يُسمع وسط ذلك الصّمت المطبق إلاّ وَقْوَقَةُ تلك الطيّور، وتغريدُها بين الحين والآخر، وهي تتراقص يمينا وشمالا احتفالا بهذا المغنم الوفير، وصوتُ حفيف السنابل يرتفع إذا ما هبّت الريح تُعْوِل معلنة عن دورة أخرى للحياة...

تصدمني مشاهد الدمّ التي تتكرّر على شاشة الأخبار ونشرات الثامنة، وفي كلّ مرّة كأنّما أراها للمرّة الأولى، ولا أستطيع أن أوقف صور خالي الماثلة أمامي بفأسه ومنكاشه كلّ صباح وابتسامته المعهودة وهو يودّع زوجه إلى الحقل، ثمّ يلتحق به أبناؤه. وأتصوّر الفزاعة وحيدة كئيبة إلى المجهول تسير. وأتذكّر قصص جدّتي وسحر عالمها ونحن نلتفّ مع أبناء خالي على الكانون عند زيارتنا لهم في البلدة المجاورة في العطلة الشتويّة حيث حقول القمح.

لا تسعفني قدماي أمام ما حدث، ولكنّي أقاوم لأجل أمّي، وأدعو لها لتجتاز هذه المحنة، وتستفيق لأجل من تبقّى لها... وأتساءل لم هذه الانتكاسة كلّما استدرت مخلّفة وراء ظهري صورة الماضي؟

16 - ليالي هاذية تحت لهيب الحمّى، أمّي بيديها الحانيتين تبلّل منديلها القطنيّ وتضعه على جبيني، وتناولني الدّواء. لولاها لهلكت ...

البيت بارد كالموت يجثم على الصدر، غريب كأن لم أسلك زواياه كلّ تلك السنوات. الغرف خالية، الجدُر باردة تنكمش في كآبة، كأنّما هي أيضا تستوحشني. غرفة أمّي وماكنة الخياطة مغطاة باللّحاف الأبيض المطرّز بغرزة الحساب المتقنة إتقانا بديعا في لون يتدرّج من الدّكنة إلى نقيضها في مراتب. أزيل عنها اللّحاف فيستقبلني وجع أمّي عليها يئنّ طيلة سنوات، وهي تطعمنا من كدّها وعرقها ليالي الشتاء الباردة، وأتذكّرك أخي وأنت تَعِدُها أن لا تعود إليها ما دمْتَ تمشي على قدميك...

بدا البيت غريبا كأنّما غبت سنوات لا يوما واحدا، أتكتسب الأمكنة حميميتها بمن يسكنها؟ وهو اليوم قفر من أمّي وأخي، ولم تبق إلاّ الذكريات أمطّطها. صدق مجنون ليلى عندما قال:

أَمرُّ على الدّيــار ديــار ليـلى أُقبّل ذا الجدار وذا الجدار
وما حبّ الدّيار شغفن قلبى ولكن حبّ من سكن الدّيارا

أشعر باغترابي عن المكان، عن غرفتي ومكتبي وذلك الدولاب. أتراه يعتب عليّ انصرافي عنه؟ لم يعد يعني لي شيئا دونك أمّي، موضع نومك وجلوسك، عكازك الخشبيّ، نفَسك الحارّ حتّى بعد مرضك في كلّ جانب من جوانب البيت.

في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل ينبعث من الخارج نباح كلب، لم يستطع النّوم هو الآخر، كأنّما يناشدني أن أساعده. تتشابه روحانا وإن كانت روحه في جسد بهيمة، ولكنّها أيضا ذات كبد رطبة، وفي كلّ ذات كبد رطبة أجر.

فتحتُ غرفة أخي أُذهب ما بي من وحشة، رائحة الدّفء التي تركها في المكان تنبعث منها. السّتائر المخملية في انسدالها توهمك أنّه خرج للتّو، وسيقرع الجرس بعد حين، روحه المرحة المنكاتة قبل مصابه أشتمّها، السّرير مغطّى بالشّرشف البنفسجي كالعادة، وفي الدولاب لا يزال سروال الجينز الأزرق والصُّدرة البيضاء والجزمة الرّياضيّة الجديدة على حالها كأنّما كان هنا البارحة.

وعلى المشجب الخشبيّ معطفه الجلديّ لا تزال رائحة المطر الموسم الماضي عالقة به. ألحّت أمّي عليّ أن لا أخفي أغراضه. مشط جيبه الصّغير، مرآته لا زالت إلى عهد قريب تمسحها، وتلمّعها حتّى تصير كالبلّور المصقول، وإن قطعها المرض عن باقي أشغال البيت. ترتّب غرفته على أحسن ما يكون عليه التّرتيب، تزيل عنها الغبار وتنظّفها ليجدها في أفضل حالٍ عند عودته، وذاك عطره المفضّل تبخّه في الغرفة قبل أن تنصرف كأنّما لا يزال هنا، فيتضوّع ريحه في البيت كلّه، وتطلب منّي شراء قنينة أخرى من الصّنف ذاته لمّا تنفد، نشعر بدفئه وتواجده معنا بهذا النّوع من العطر.

كتب التجارة التي تخصّص فيها، ودفتر المحلّ في أشهره الأخيرة، ونسخة من مفتاح الشّاحنة التي تركها للضرورة، لاتزال في الدّرج

تتوق إليه لتكون بين يديه، فيتفحّصها ثانية ويستعملها كما نتوق نحن إلى رؤيته.

صوت الكلب في الخارج يُعول كأنّما هو مرزّأ في عزيز مثلي، ولا يكفّ عن نباحه. تناهشَني الخوف والوحدة في هذه الغرف التي بدت غريبة عنّي، كأنّما أخطوها لأوّل مرّة. ربِّ لا تذرني فردا. أجدني منكمشة في قوقعتي أغطّي رأسي ببطانية سميكة جالسة القرفصاء على الكنبة، وأنا أتحسس أيّ صوت أو حركة في الخارج. الكلب لا زال مثلي لم ينم ...وددت لو آنسني في وحشتي وآنسته. أضع مخدّتي بين ركبتي لأسند عليها رأسي حتّى أحدّثها ككلّ ليلة، وأبثّها وحدتي وخشيتي على أمّي، ودعائي لها بالشّفاء حتّى الهزيع الأخير من اللّيل.

أخيرا انبلج الصّبح، وجدتني على قرفصتي بعد أن غلبني النّعاس. تكسُّر في مفاصلي شديدٌ يشلّ حركتي. ركبتاي تيبّستا ويداي خارتا ولا أقوى على النّهوض. الحياة ليل طويل لا تشرق شمسه على الجبناء مثلي، المختبئين بين الجدران...

أشمّ على هذا الخَوَر والوجوم رائحة كسرة أمّي عهد الطفولة، فَطِيرها ... صوت قدميها الحانيتين على ماكنة الخياطة توقظني لأذهب إلى المدرسة، قبلتها الدّافئة في الصّباح البارد. ثريدها عند الغداء يُسيل لعابي ... أنصت إلى صوت الثّريد تحكّه بين كفيها المحمرّتين الطّريتين بفعل الحرارة، خدّاها متورّدتان وهي تطهو أمام التّنور. وأشمّ الزبدة المملّحة تتقاطر بين قطع الثريد. تناديني أن ألتحق بالمائدة قبل أن يبرد الطّعام فألبّي.

أقوم هرولة ورائحة الزبدة تتشرّبها روحي قبل أنفي ومعدتي، رقرق الثّريد بالدّسم، واعتلته حمرة المرق وتزيّنت جوانب الصّحن بقطع الدّجاج وأنصاف البيض كما تزيّنت المائدة بحضور أمّي وأخي...ولا أجدني إلا قبالة نفسي، فيزداد وجومي، وتئنّ الجدران لوحدتي، أمّا طيف أمّي فبعيد بعد السّماوات والأرض.

شعرت بنفسي جبلا شامخا تحوّل على حين غرّة إلى كثبان من رمل عبثت به عاصفة هوجاء، نثرته متفرقا تتجاذبه الريح، وتدوسه الأقدام والنّعال، ولا أقدر على لمّ شتاتي... لكن عليّ أن أقاوم، وأحضّر لأمّي حساء دافئا لعلّها استفاقت، هي الآن بحاجتي وليس الحين حين تناثر وبعثرة.

أحمل علبة الأكل التي آخذها إلى المستشفى، ويحدوني أمل كبير أن يعجبها الحساء، رائحة الباقة العطريّة من الكرفس والقصبر تفوح منها تماما كما تحبّ. تتجاذبني صور الطّفولة في طريقي إلى المستشفى ...أبي الذي لم أعرفه، وجه بلا ملامح إلاّ ما روته أمّي واستمعت إليه من خالي، برنسه البنيّ وتوغّله بين الأحراش وصعوده الجبال. لا أدري لم تذكّرني علبة الأكل بزوادة الطّعام التي ترفقها أمّي بأبي كلّما غاب عن البيت. أمّي التي كانت لنا برنسا دافئا عندما استحالت عودته، يضيق أحيانا فنشعر بقبضتها تصوّب أفعالنا وتكون لنا حصنا منيعا...ويتّسع أحايين أخرى بما تفسحه لنا من حرية قصيرة العمر لتشدّ قبضتها مجدّدا، وتحتوينا تحت جناحيها.

هذا البرنس الذي صار أوسع، وفردت جناحاه عندما كبرنا وصار بإمكانها أن تعتمد علينا.

أجتاز عتبة المستشفى إلى قاعة الانتظار. الدهليز بعد أن قضيت ساعة بين كآبته المدهونة بالبياض موحش وقاس، يصدّر للزوّار روائح المرض والإحباط. لا تزال أمّي في غرفة الإنعاش، ولا أقوى على العودة دون أن أطمئنّ عليها. أراها من لوح الزّجاج ملاكا يغمض عينيه مستسلما، تاركا صخب الحياة بمسرّاتها وأحزانها خلفه، غير عابئ بأحد، تلفّني براءتها، وسحنتها الملائكيّة، وصفاؤها، ورفضها للعودة إلى عالم قبيح لا يرحم، عالم الغاب، وهي تدّثر بالبياض الذي لم يعد يظهر لي في الغرفة لون آخر غيره.

بالقرب من النّافذة الزجاجيّة أشرئبّ بعنقي لأراك، تتجاذبني مشاعر الرّجاء والخوف، ولمّا لا تقوى قدماي على حملي أدفع جسدي وأجرّه لأنتظر على الكرسيّ البارد. كيف أقطع الزمن منتظرة أن تصحو لتكلّمني؟ جلاّد غليظ أسود الوجه لا يتزحزح من مكانه بنظرته اللامبالية يحصرني في سرداب يأس مقيت، ويصرفني عن الحياة، بطيئا يغتالني الانتظار، ويقنعني رويدا رويدا باللاّعودة، وبلا جدوى القلب الآمل المستبشر. ويغرس اليأسَ على جبيني تتشرّبه عيناي، فتنهمران دمعا حارّا يَصْلي وجنتيّ، فتغوران في أحزانهما، وتمتصّه شفتاي فتيبسان وتتشقّقان، ولا تمرّ منهما إلاّ شربة ماء طيلة هذا اليوم الحارّ بعد أن انفطر الفؤاد.

ستصحو أمّي، فأنا بأمسّ الحاجة إليها أكثر من أيّ وقت مضى، وسأكلّمها عن حبّي لها ولعينيها الجميلتين الصّافيتين، وأقبّل يديها الحانيتين كما لم أفعل من قبل، وسأرتمي بين أحضانها، وأطلب منها أن تقاوم المرض، وتنتظر أحمد حتّى تراه وتشفي فؤادها منه.

السّاعة الرّابعة مساء ... لا تزال الحالة على ما هي عليه. عليّ العودة قبل أن تتوقف خدمة الحافلات ويحلّ الظلام. وكنت آمل لآخر لحظة أن تستفيق وتتذوّق حسائي، ولمّا استحال الأمر قدّمته لإحدى المريضات في الجوار، ويحدوني شعور شبيه بما روته لي عندما أعيدت لها زوّادة الطّعام التي حضّرتها لوالدي قبل رحيله ليلتحق بكتيبة المجاهدين، بزيتونها الحامض وكسرتها باقية على حالها. أطرد الفكرة والشعور، عليّ ألاّ أفقد توازني فأمّي بحاجة إليّ... إلى نَفَسي معها ووقوفي إلى جانبها ودعائي.

المدينة ليلا وحشٌ عملاق من سبعة رؤوس ذبحت كلّها، وتركت تنزف دما قانيا على أرصفة الطّرقات، مرعبة ممرّاتها، غادرة عند كل منعطف حيث قد يختفي شخص يتربّص بك.

يبدو لي ظلّ رجل يتبعني، أتراني لمحت وجهه فيما لا يزيد عن الثّانية أم أنا واهمة؟ أتراه سينقضّ عليّ بسكينه يخترق ظهري أم سيغرزه في صدري، أبالسكين ينهي حياتي أم بالرّصاص يكتم أنفاسي؟ الدرب الأخير إلى العمارة التي أسكن، طويل ممتدّ كما لم يكن من قبل وموحش. أحثّ الخطى ولا أقوى على الالتفات خشية أن يرى وجهي... ارتجاف يسري في أصابعي أكثر من أيّ جارجة أخرى.

أتراها تشعر بتهمة الكتابة؟! وأخشى من سكين ينكّل بها مثلما قُطعت أصابع ياسين فدفن دونها. ما جرمنا لتتمّ تصفيتنا، أتراه لكوني زوجته المنتظرة، أم أتراها الشّهادة الجامعيّة أم تخصّص الصحافة؟!

وتملّكتني رغبة شديدة في أن أكون أميّة لا أحسن تهجيّة الحروف على أن أكون آمنة مطمئنة. أم أنّه يتبعني لكوني أخت أحمد الذي ابتزته يوما تلك الجماعة المسلّحة ففرّ إلى إسبانيا؟ دوافع كثيرة تعجّل بقتلي، وأتساءل متى تحين ساعتي؟ دقّات الخوف تتصاعد وتيرته، وأنا أعُدّ متى تحين ساعتي، ومتى ينغرس السّكين في ظهري أو تفجّر الرّصاصة جمجمتي.

أضع المفتاح في الباب الخارجيّ الحديديّ، أخيرا وصلت إلى عتبته، واجتزت ظلمة الدّرج دون أن أُطعن، أو تُصبَّ فيّ رصاصة حارّة. أودّ لو عبرته اختراقا في رمشة عين. يداي تشتدّان ارتجافا وهما تتلمّسان خرم المفتاح في الباب الخشبيّ. أخيرا أدخله وأديره ثلاثا دون جدوى، وأنا ألتفت إلى الدّرج أخشى من طيف الرّجل الذي بدا لي قبل دقائق.

ما من أحد، أأنا واهمة؟ أسرع بغلقه على ارتجافي، وأنا أتنفّس الصّعداء خلف هذا العازل بيني وبينهم، وأقع مستنيخة على الأرض، ثم بعد دقائق من استرداد بعض أنفاسي أهرول إلى إسدال الستارة الغليظة، وأطفئ الأضواء عدا مصباح جَيْب خافت النّور، وأتّخذ مكانا قصيّا بعيدا عن شبّاك النّافذة منكمشة على الكنبة.

يسيطر عليّ الارتياب أتراني لا أزال حيّة، لم لم يُجهز عليّ حتّى الآن، هل من خطّة؟ قد تكون هذه الغرفة أو حتّى الحمام أو المطبخ مسرحا مناسبا لموعد دمويّ مع الموت ذبحا. وأخشى الذّبح، وأفضّل أن يعجِّل الرّصاص بمنيّتي. يحملني الارتياب لأخذ مصباح الجيب والمرور في أنحاء المكان أبحث عن أحدهم وأنا أرتعد. مشاهد قتل جدتي وخالي وأبنائه تعاد معي، ولا أستطيع أن أفرّوسط هذا الفراغ. رقبتي من الشريان إلى الشريان تنزف، أتحسّسها بأصابعي... ما من خطب، أهدّئ فَرَقي لحظات، ثمّ تعود تنزف روحي كشاة مرّة أخرى.

أشعل التّلفاز فيصفعني للوهلة الأولى الصّوت المعلِّق على ملصقات الحذر والحيطة من عبوة ناسفة قبل نشرة الثامنة كأنّما يترصّدني، كالمعتاد يتردّد في حملة توعية قاسية بل مميتة. أخبار الموت بمختلف صنوفه المجازر والانفجارات على سحنة الإعلاميّة يسودّ لها وجهها، وتهرب منها الكلمات، وتغرورق لها عيناها وتظلّ محمرّة طيلة النّشرة.

في الوطن أخبار القتل تضعك في تابوت، ثمّ تكدّس فوقك كلّ أتربة مقابر الدنيا. تجمّد مشاريعك، وتشعرك بلا جدوى أن تفكّر في غدك. وتشحنك بصور الدّم والأشلاء.

تغيّر مواعيد نومك، وترفع ضغطك، وتجلب لك الصّداع، وتصيبك بداء السّكريّ، وتجبرك على نوع معيّن من أقراص الدّواء، وتضطرّك للبحث عن طبيب نفسيّ سرّا، تنسلّ إلى عيادته لتروي له

انتكاساتك وكوابيسك اللّيليّة، وخوفك من الظّلام والمنعطفات والزّوايا.

تتحكّم في قراراتك، ومزاجك وحتّى لباسك وحلقك لذقنك والألوان التي ترتدي، ومأكلك ومشربك، لأنّ كلّ مكان من هذا الوطن صار مأهولا بخفافيش يتربّصون بك ليضمّوك إلى صفوفهم، فتكون عبدا لهم تأتمر بأمرهم، أو يردونك قتيلا تتخبّط في دمائك وحقدهم.

يتسرّب إليك شعور فظيع بإنسانيتك المهدورة، ثمّ يرتديك محكما قبضته فترغب لو كنت شيئا آخر، سلحفاة مثلا بقوقعة تختبئ فيها فلا يلقى إليك بال، أو مسخت طائرا يهرب بجناحيه منهم، أو دودة تختبئ تحت ثنايا الأرض، أو حتّى حجرا أو حصى، غير ذلك الإنسان المسكون بالخوف وهواجس الموت بآلة حادّة.

أخبار القتل تلغي طفولتك، وتجعلك هرما تجاوزت الثّمانين، ترتجف وتعاني من الضّغط وألم الشريان والسّكري. تلبسك عباءة من صوف على طريقة الزهّاد، وتزيد من تجاعيد وجهك، وتكسبك عزوفا عن الحياة، بل تقبض عليك وتضعك في كفنك، تعدّ الدّقائق الأخيرة مرتجفا قبل وأدك.

أبحث عن فرجة للفرح على جهاز التّلفاز الذي يفترض أن يكون مرفِّها، عن مساحة ولو كانت مصطنعة للأمان، للحبّ فأعود خالية الوفاض، تخنقني ألف حسرة.

شبح الموت يتبعني، ويتلبّس بأشياء الغرفة ويجول شامخا لما يعلمه من جبني، يتمطّى على مخاوفي ويشعل فتيل يأسي من الخلاص، فأتحوّل طيلة ليالي غياب أمّي إلى ضحيّة من ضحاياه الكثر. الكلب الذي تمنيت عند سماعه لو نبحْتُ مثله وأخرجت ما بداخلي، والذي آنسني صوته فيما سبق من ليالٍ، كلّما سمعت أصواتا مبهمة أسفل العمارة ووقع خطى، لا أسمعه اللّيلة، ولا أقوى حتّى على استطلاع المكان من النّافذة، وإشاحة السّتارة خشية أن يكون أحدهم في الخارج متواريا خلف العمود الكهربائيّ يتربّص بي بعد أن أجهَزَ عليه.

ليالِيّ هاذية تحت لهيب الحمّى، أمّي بيديها الحانيتين تبلّل منديلها القطنيّ وتضعه على جبيني، وتناولني الدّواء. لولاها لهلكت تحت وقع الرّجفة التي جعلتني أدّثر بما في الدّولاب كلّه من أغطية. شبح الموت كان داميا بلا رأس يقطر كراهيّة في باحة البيت وقرب سريري. والمدينة برؤوسها السّبعة المغدور بها طوفان أحمر يجرف أبناءها، وتبتلعهم دوّامتُه...

قبيل الفجر لمستُ انخفاض الحمّى بعد أن أصابتني تلك الرّعدة الشّديدة، ورأيت أمّي بعد أن بلّلت قطعة قماش تنظّف برك الدّم والبقع الملتصقة بالأثاث والجدران، وترشّ عطر ياسمينها في غرفتي، ثمّ تنصرف لتدعني أنام هانئة، وأرتاح بعد ليلة عصيبة من لهيب ودم.

وفي الصّباح بعد أن تأخّرت في النّوم، استفقت على اتّصال الخالة زليخة تبشّرني بصحوها بعد غيبوبة دامت أسبوعا. وضعت

السّمّاعة وطارت نفسي إليها لأراها بعينين مستيقظتين من جديد. تكلّمني فأسمع هدير صوتها، وتنظر إليّ فآنس بدفء عينيها.

طلبت منّي الخالة أن أحضّر لها طعاما تحتسيه، وتقيم به عودها بعد أن عادت من رحلة الموت. عليّ إعداد وجبة خفيفة لأمّي. أفتح الثّلاجة وفرحتي لا تسعني، أحمد الله على استفاقتها. دجاجة مترهلة لم يتبق منها إلاّ الصّدر والظّهر وبعض الزّوائد بعد أن نزعت فخذيها. أضعها على لوح التّشريح. أشعر بها تتألّم على وقع السّكين، العنق يتأوّه من ألم الحزّ. ماذا حلّ بي؟ يا لَوهني وللأوهام التي تسيطر على إرادتي؟

أطرحه وأفرّ، ووقع أنينه ما زال في مسمعي، ولا أقدر على طهوه كما طلبت الخالة. آخذ من الثلاجة قطعة لحم كنت قد ابتعتها البارحة من جزار في السّوق البلدي في آخر الشارع. أضعها على اللّوح لأشرّحها ثمّ أُرضرضها حتّى تناسب أسنان أمي. تئن وتصوّت على صوت السّكين، وأرى الدّم ينبجس منها ويلطّخ أناملي وكفي وشيئا من وجهي وثيابي، ولا يكفّ عن النّزيف. صور الخروف ببخبخته بعد الذّبح، وتخبّطه من شدّة الألم تحضرني، وتشعرني بالغثيان والرّغبة في التّقيّؤ، وكأنّما الدمّ يفور من رقبتي.

أعيدها إلى الثّلاجة وقد مُلّئت رعبا، ثمّ أسرع لغسل يديّ ووجهي بالصابون مرّات كثيرة وتغيير ثوبي، سأكون نباتيّة من الآن فصاعدا، سَيَفِي حساء الخضر بالغرض، ولتعذرني والدتي. أرتدي ثيابي على عجل، ولا أتفقّد وجهي وهندامي على المرآة، ما عاد لذلك ضرورة.

الجمال التصاق بالحياة وعشق لها، وأنا ما عدت إلاّ كائنا هشّا يتشبّث بقشّة ...

وجدتُها قد نُقلت من غرفة الإنعاش إلى غرفة في الطّابق الأعلى، مصل الدّواء مثبت في يدها. وجهاز لرصد الضغط وآخر للسّكريّ موصلان بجسدها. عيناها غائرتان متعبتان كأنّما عادتا من الموت، ابتسامتها عندما رأتني خائرة ضعيفة:

كان نقاب الأطباء أبيض
لون المعاطف أبيض
تاج الحكيمات أبيض
الملاءات... لون الأسرّة...
أربطة الشّاش والقطن
قرص النّوم، أنبوبة المصل
كوب اللّبن
كلّ هذا يشيع في قلبي الوهن
كلّ هذا يذكّرني بالكفن

ويشنّ عليّ شنّا كلّ أتربة مقابر الدنيا، يطمرني في وهمي ثمّ ينصرف...

أطرد هذا الخاطر الذي يشلني. أقبّلها وأحضنها ثمّ أجلس بقربها ترافقني الخالة زليخة.

- الحمد للّه على سلامتك...
- منذ متى وأنا في المستشفى؟

- مضى أسبوع على دخولك قاعة الإنعاش. الحمد للّه يا أمّي أنت في تحسّن. عليك أن تتناولي هذا الحساء وستتماثلين للشفاء بإذن الله!

- ألم تخبري أخاك بمرضي؟

- بلى، أخبرته اليوم فقط، حيث حاولت الاتّصال به منذ دخولك المستشفى، لكن يبدو أنّه غيّر رقمه.

- أوّد أن أراه قبل موتي...

- أطال الله عمرك يا جارتي وعوّضك في ولدك وابنتك خيرا، ونعّمكم بالاجتماع من جديد!

بقيت بضع دقائق ثمّ استأذنتنا للمغادرة:

- عليّ الذهاب، أترككما بخير.

بعد أن غادرت الخالة زليخة، جلست بقربها لأبيت إلى جانبها اللّيلة. أمسكت بيدها أخفف عنها فقدان عائلة بأكملها قضت نحبها بسكّين الغدر في ليلة ظلماء دامية. فاستسلمتْ بين يدي في حديث طويل...

17- الدّمى الطينيّة قد جفّت وحان موعد حملها في جُرُبهنّ. ومع اقتراب المغيب يعدن من حيث أتين، يصطحبهنّ الجدّ بهراوته مع جرو صغير أبيض لا زالت الوداعة صفته الأولى، والحملان الصّغيرة تسبقهنّ، والجدي الأشيم بخفتّه على رأس المتقدّمين.

كنّ ثلاثة بلون التّراب ورائحته لا يزول عن وجوههنّ وأيديهنّ وأقدامهنّ، وتُظهر البشرة البيضاء اتّساخهنّ وعدم احتمالها لشعثهنّ، قد اصطبغن باللّون البنيّ والأصفر طيلة النّهار ينقّبن عن الطين ليتّخذن منه مادّة خاما للعبهنّ.

هذه عنزة وذاك حَمَلٌ بجانب أمّه، وتلك دمية تعجنها وستخيط ثيابها لاحقا. كانت الوسطى أكثرهنّ بياضا وأكثرهنّ اتّساخا يلتصق الطين بثيابها طيلة الوقت. هي الآن منهمكة في إعادة صنع دميتها بعد أن كسرتها كبراهنّ أثناء ممارسة سطوتها عليهما بإصدار الأوامر، ومن تخالفها تعاقبها بما يخطر ببالها، ككسر لعبتها الطينيّة، أو حرمانها من اللّعب معهما، أو عدم اصطحابها إلى المرعى لمشاهدة الجدي الأَشْيم المحبّب إليهنّ... شامة بنيّة على نصف وجهه الأبيض، وأُخَرُ تقسم مناسمه نصفين. وقد تحرمهما من الاستمتاع بمنظر الحملان في قفزها أو من الاستحمام في النّهر أيّام القيظ.

هذه المرّة ستكون أقوى من الأولى المكسورة الذّراع ستدسّ فيها قطعة من القصب بشكل عموديّ، وأخرى أقلّ قليلا من نصف طولها تربطها بالأولى أفقيّا على شكل صليب هي بمثابة الجذع منها، تكون هيكلها الذي يشدّ صلبها حينما يشتدّ وطيس معركة شدّ الشّعر، وحين يحين موعد العقاب. كنت أنا -قالت أمّي- الفتاة الوسطى، الأكثر اتّساخا ومن تحظى بالدّمية الأقوى والأجمل، بعد أن تخيط لها ثوبا أو ثوبين يشتعل له فؤاد الكبرى حسدا، وتستميل به الصّغرى إلى صفّها مقابل أن تعيرها الدّمية لساعة من ساعات النّهار.

شجرة التيّن بأوراقها العريضة تظلّ فرحتنا، وإلى جانب جذعها تلك الصّخرة الصّماء التي كانت تسعنا ثلاثتنا. نتّخذها كرسيّا ملكيّا بحجم أمانينا أمام الأكواخ الصّغيرة... ينضمّ إلينا بين الحين والآخر فتى أسمر يصغرنا سنّا، حافي القدمين، صدره عارٍ يلفّ جسده النّحيل بنطال ممزّق الرّجلين، تخلّص من جزئه السفليّ، واتّخذه لباسا صيفيّا. حاسر الرّأس تعلوه بثور صغيرة، جعلت والده يحلق كامل شعره حتّى لا يتعرّق، فتزداد حكّتها ولا يقدر على منع نفسه من خدشها، لذا كان لا يترك شعره يطول، فكان رأسه الحليق هو ما رسخ في الذّاكرة عن صباه وبقي عالقا بها. كان يحشر أنفه في ألعاب الفتيات، وعبثا تطرده الفتاة الكبرى الشغوفة بالسّيطرة وإلقاء الأوامر، وتخيفه بقولها:

- لن ينمو لك شاربان إذا ما لازمتنا.

كنت أنا الفتاة الوسطى، وكان الفتى حاسر الرّأس صاحب السّروال القصير الذي لن تنمو له شاربان أخي... وكانت الكبرى والصّغرى ابنتي عمّي.

الحقول الخضر بساط يفترشن أمانيهنّ عليه، يعجنّها بأصابعهنّ الصغيرة، ثمّ يتركن ما فضل عن حاجتهنّ من طين بين حشائشه ليعود إلى منبته، وهنّ ينتظرن ما صنعت أيديهنّ أن يجفّ. كنّ ثلاثة يبتسمن ابتسامة عريضة صافيّة في الصّورة التي تقبع في الذّاكرة. كانت الفتاة التي تجلس عن اليمين من جانب شجيرة النبق الأحمر اليانع، ذات الشّعر المنفوش والثّوب البنفسجيّ بورود بيضاء صغيرة أمّي لم تتجاوز عقدها الأوّل.

كانت تغمض عينها اليسرى من أثر أشعّة الشّمس، وتذر الأخرى مفتوحة تراقب اكتمال جفاف دميتها، والفراشات تحطّ هنا وهناك. شقائق النّعمان تناثرت بين حشائشَ مختلفة الأشكال وأشواكٍ طويلة وأخرى قصيرة عرائسَ بهيّة الطّلعة. حمرتها كانت تجذبهنّ إليها أكثر من غيرها من الورود البريّة، يقطفن الكثير منها ليقلبن وريقاتها إلى الأسفل، فتبدو تلك الشّعيرات التي تلتصق بها حبوب الطّلع في رأس كرويّ أخضر، شعرا حريريّا لدمية ذات ثوب أحمر ينسبن لها اسما، وينطقنها على ألسنتهنّ بما شئن.

الدّمى الطينيّة قد جفّت وحان موعد حملها في جُرُبهنّ. ومع اقتراب المغيب يعدن من حيث أتين، يصطحبهنّ الجدّ بهراوته مع جرو صغير

أبيض لا زالت الوداعة صفته الأولى، والحملان الصّغيرة تسبقهنّ، والجدي الأشيم بخفتّه على رأس المتقدّمين.

اليوم على خلاف الأيّام المعهودة، الكرسيّ الملكيّ قرب جذع الشّجرة هادئ دون عراك أو سطوة متأمّر. جسمان صغيران لا غير يشغلانه، يتهامسان عن سبب غياب الفتاة الكبرى:

- رأيتُ أمّي تبكي بقربها وهي تغفو لا تشعر بأحد، مصفرّة الوجه وشدّة الحمّى تصيبها بالارتعاد، ولمّا رأتني عند المدخل مسحت عينيها وزادت في إسدال الخمار على وجهها تتحاشاني، وتشير لي بالخروج وهي تغطّي معظم وجهها.

قالت ذلك أختها الصّغرى، والفتى الأسمر الحافي القدمين ينصت لكلامها، ويرمقها بعينين كبيرتين مشدوها، لا يدري سبب دموع زوج عمّه، ولا هزال ابنتها المفاجئ.

- قال الطبيب إنّه السلّ، وقد قطع بتوغّله في جسمها شوطا.

انهارت والدتها عند سماعها الخبر لا تقوى على تصديقه، وظلّ والدها واجم الملامح، مشغول الذّهن أيّاما لا يدري سببه.

- قد يكون بسبب نقص النّظافة وعدم غسل اليدين، وأعلمني بإمكانيّة انتقال العدوى عبر الهواء. لم يكن في الجوار مريض بالسّلّ، من أين سقط على رؤوسنا هذا البلاء؟! سألني عن نظامها الغذائيّ، ما عسانا نأكل، معظم طعامنا من حليب البقرة ولبنها وزبدتها القشديّة.

قالت الفتاة الصغرى: سمعت أبي يحدّث أمّي وهي لا تتوقّف عن البكاء...

تحوّلت الفتاة الشّرسة التي كان كلّ من يراها في أرض المعركة مع أندادها، وحتّى مع من يكبرنها سنّا إلى أمانة وديعة، يضمر جسدها يوما بعد يوم، ومن كان يحسب لها ألف حساب حتّى من الصّبية صار يدعو لها بالشّفاء كلّما ذُكرت في مجلس من المجالس. ومنعت عنها الزّيارة...

كانت شديدة التّعرّق ليلا، ووالدتها بقربها تشدّ جانب الملحفة على فمها وأنفها تتّقي العدوى، وتخفي بكاءها وتتضرّع إلى اللّه بالشّفاء. وتسأل أباها متوسّلة أن لا يظلّ مكتوف اليدين، وأن يعرضها على طبيب آخر في المدينة. اشتدّ هزالها ولم يعد يسمع منها إلاّ سعال شديد يتناثر إثره رذاذ أحمر قانٍ على منديلها، متبوع بأنين خافت...

قبيل الفجر بساعات وفرشها مبتلّ بالحمّى ... يسكن الصوت الخافت فيها، وتهفو والدتها إليها، وتندّ عنها صرخة ترتجّ لها أرجاء البيت وسط صمت اللّيل...

- هل توفيت الفتاة؟

قاطعتُ حديث أمّي المستفيض عن طفولتها وهي تشدّ على يدي لأسألها عمّا حدث.

- بل كُتب لها عمر جديد مدّ الله فيه مدّا.

أتمّت أمّي حديثها حتى وأنا أطلب منها أن ترتاح بعد الغيبوبة التي مرّت بها، تروي لي عمّا أَوْلَمَه عمّها عند تماثل ابنته للشّفاء:

- كان الصّبية أمام الجامع يلتفّون حول قصعة الكسكس الخشبيّة بمرق لحم الضأن متراصّا على جوانبها قطعا قطعا... والوالد يحثّهنّ على تناول المزيد، والبِشر على محيّاه بادٍ بعد أن دبّت الحياة من جديد في جسد ابنته.

كنت أنا صاحبة الفستان الأحمر بشعري المنفوش التي أخذت القطعة الكبرى من اللّحم، وبقربي أخي الفتى الأسمر الذي يصغرني سنّا، وهو يزدرد ملاعق الكسكس الشّهيّ والدَّسَمُ يملأ يده، تتركه قطعةُ اللّحم التي يشدّ عليها. وبعد أن سُمح لنا بالزّيارة أهديت الدّمية الأجمل في المجموعة التي صنعْتُ لابنة عمّي بعد أن تماثلت للشّفاء.

قال الطّبيب إنّ التّطعيم من المرض هو الذي حمى جسمها، وقد نجت بقدرة قادر بعد تلك الإغماءة التي ظننّا أنّها لن تصحو منها. نقلت إثرها إلى المستشفى، وأُعلمنا أنّها بسبب فقدان الشهيّة وهزال جسمها، والدّواء الذي تتعاطاه ولم تتعوّد عليه. بعد ذلك بدأ العلاج يأتي بمفعوله، واكتسب جسمها مناعة بفضل خلطات الجدّة، خلطة العسل وشراب العرعر المنقوع، كوب منه في الصّباح وآخر في المساء، وشراب عرق السّوس ثلاث مرّات يوميّا. وحمد والداها اللّه على حقنة التّطعيم التي حُرِمها الكثير من الأطفال.

غير أنّ الفتاة الكبرى خرجت من مقاومة المرض شبحا هزيلا بعد أن كانت ممتلئة عودا، موفورة الصّحة. ورغم ما حاولته زوج عمّي من إعادتها إلى الجسم الممتلئ إلاّ أنّها لم تعد أبدا كما كانت. الفتاة الشّرسة التي يحسب لها ألف حساب ما عادت إلى شجارها مع الصبية، أظهر المرض جانب الرقّة فيها والوداعة، فما عادت تعاقبنا إذا ما رفضنا لها طلبا. صارت إنسانا آخر وكأنّ طريق الموت الذي عادت منه، ورأت على حافتيه أشباح السّابقين علّمها معنى آخر للحياة.

عدنا إلى التفافنا تحت ظلّ شجرة التّين كما في السّابق، الكرسيّ الصّخريّ الملكيّ صار أكثر اتّساعا من ذي قبل، فلم نعد نتشاجر مثلما كنّا نفعل قبل مرضها. صار في صدر تلك الفتاة رحابة غريبة، فلم يكدّرها شيء ممّا ينغّص حلو الحياة. علّمها المرض الصّبر، وتلقّينا معها تلك الهزّة العنيفة التي صنعت منها فتاة أخرى ومنّا أطفالا أكبر من سنّنا. ما عادت تمنعنا من اللّعب مع الجدي الأشيم ولا من السّباحة في النّهر، ولم تعد تكسر دُمانا.

بعد سنة من هذه الحادثة انتقلت إلى رحمة الله زوج عمّي... لم يحتمل قلبها الضّعيف صدمتين اثنتين في مدّة قصيرة، الدّاء الفتّاك مرّة، ثمّ فرحة النّجاة من براثن الموت. تحمّلت الفتاة الكبرى المسؤوليّة باكرا ولم يبق من نزقها وتهوّرها شيء، غسلته النّوائب. كما عاد مكانها من الكرسيّ الملكيّ شاغرا ولم يملأه أحد بعدها...

واشتقتُ إلى صورتها المشاكسة وإلى أعمالها الطّائشة، فلم يكن من الفتيات من يقدر على مضاهاتها في ذلك.

كانت مهام البيت بعد وفاة والدتها تقع على عاتقها، تنظيف الملابس والطبخ وجلي الصّحون، تحت إشراف الجدّة التي أرادتها أن تكون امرأة على قدر من المسؤوليّة. قلت لأخي:

- لم أعد أرى الدّميّة التي أهديتها لها بعد شفائها. كانت مسندة إلى فراشها طيلة الوقت، تنتظرها هناك فتعانقها قبل نومها، وتتحدّث إليها تحت ضوء المصباح فتسرّ لها بأحلامها الصّغيرة.

الكتفان قد أصابهما شيء من التّرهّل، وما عاد لهما الاستقامة ذاتها التي كانتا عليها أيّام معارك شدّ الشّعر والشجار الحادّ، والعينان خفت بريقهما المشاكس في عناد، والطّاقة الطفوليّة استنزفتها أشغال البيت وصراخ الأولاد. ولم يعد للطّفلة المشاكسة وجود كأنّها لم تكن يوما، بل وُلدت على هذه الشّاكلة من الرّكون والامتثال، تعين الجدّة على تربية إخوتها وأخواتها. ولم تعد تمتعض كسابق عهدها من أيّ شيء يسند إليها.

- أسقطت اللاءات من قاموسها... أعمال التّنظيف، كنس الغرف وغسل الثياب، الطّعام والخبز والطهو وغيرها من الأشغال. وكانت الجدّة تفرغ أكياس الخيش من القمح والشّعير لغسلها وتنقيتها من الشّوائب... تقوم بكلّ تلك الأعمال صاغرة، فلا ترفض أمرا وكأنّما أوتيت قوّة الرّجال.

- ألا تلحظ ذلك يا أخي؟

- بلى، لقد انتقلت من الضدّ إلى الضدّ.

كنت أتبادل الحديث وأخي عمّا طرأ عليها من تغيير مستغربَيْن.

تدخّلتُ حتّى تتوقّف أمّي عمّا ترويه، وحاولتُ أن أسندها إلى السّرير وأُخفض من علو الوسادة علّها تخلد للنّوم، ولكنّها رغم ذلك لم تكفّ، كأنّما تقرأ تلك الحياة في كتاب، أو تحفظها عن ظهر قلب فلا تزلّ ولا تنسى...

- الفتى الأسمر يزداد طوله... لم يعد حليق الرّأس، فقد نما شعره عدا منطقتين صغيرتين في أعلاه، حاسرتين بفعل تلك البثور التي بقيت آثارها رغم شفائه منها. كما لم يعد حافي القدمين، فقد صنع والدي له نعلا من جلد الماعز بعد دباغته، يحتفظ به لينتعله فقط وقت ذهابه إلى الكتّاب، متأبّطا لوحه الذي كتب عليه أوّل ما كتب " قل أعوذ بربّ النّاس "، ودواتَه التي صنعت الجدّة حبرها من صوف الأغنام بعد حرقه وصبّ قليل من الماء عليه ثمّ وضعه في قارورة صغيرة ليصير جاهزا.

كان والدي، يا ابنتي، حريصا على ذهابه إلى الكتّاب، أكثر من حرصه على الذّهاب إلى المرعى ومساعدته في أعمال الحرث والبذر. يمسك له لوحه ليعرض عليه السّورة، وهو لا يحسن تهجيّة حرف واحد.

صوت التّرتيل الصّادر من النّافذة الصّغيرة أعلى الكتّاب كلّما مرّت الفتيات من قربه ينساب إلى مسامعهنّ غضّا طريّا، ولا يدرين لم سُمح لهذا الفتى الأسمر دونهنّ بارتياده، ولم خُصّ بالحذاء الجلديّ.

كان عالما خاصّا بأمثاله من الفتيان لا يسمح لهنّ بمعرفة أسراره. كنتُ الفتاة المنفوشة الشّعر على الدّوام، وبيدي اليمنى أمسك دميتي وقطعة قماشٍ أعطتني إيّاها جدّتي باليد الأخرى، والإبرة منظومة خيطها في جرابي الصّغير، ترافقني إلى المرعى مع قطعة خبز الشّعير. وأنا أمرّ على الكتّاب الذي يضجّ بأصوات الصّبيّة المرتّلين، وبصوت الشّيخ صالح الذي يعلوهم بين الحين والآخر مصحّحا... أتصوّرني بينهم.

قال أخي إنّه يجلس على حصير مهترئ، بين صبية كثيرين تؤذيه رائحة عرقهم، وروائح أخرى كريهة أيّام الصّيف الحارّة، ويلتصق بعضهم ببعض إذا همّ الشّيخ بضرب أحدهم بعصاه الطّويلة. كنت أحاذيه إذا ما جلس على حافّة النّهر يغسل لوحه من السّورة السابقة بالماء والصّلصال، ليحضّرها للسّورة اللاحقة لأنصت لأحاديثه عن هؤلاء الصّبية والشّيخ صالح، ولا أنفكّ أتصوّر نفسي بينهم صبيّا بعباءة يحمل لوحا مثلهم، وعند الباب أضع نعلي الجلديّ.

كان الأمر يغريني رغم أنّه أبدى تفضيله لحياة البريّة بين العشب الأخضر وثغاء الخراف والعنزات على الحصير المهترئ في الغرفة الضيّقة، ولحمل الفأس على القرطاس.

أتراني أكون يوما صبيّة للشّيخ صالح وأجلس إلى ذاك الحصير؟ لم يتحقّق ذلك في لاحق الأيّام، وبقيت أنصت إليهم من منافذ

التّهويّة، وتراتيلهم تحفر في نفسي حبّا لهذا العالم الذي حرمت منه، ولأجله حرصت على تعليم أبنائي.

- الحمد للّه يا أمّي أنّ اللّه قدّرك فعلّمتنا بكدّك وعرقك.

- لم يكن لي لوح مثل أخي، ولم أتعلّم تلك الحروف التي كان يَكتب بها، ولكنّي كنت أثبّت معالم السورة في رأسي الصّغير الذي أُغرم بهذا العالم كلمة كلمة، وهو يمحوها على حافّة النّهر، وأرسم معالم السّورة اللاّحقة وهو يخطّها على لوحه حرفا حرفا، حتّى أتممت سبِّح ثمّ عمّ. ولا زالت تلك الآيات عالقة في نفسي غوثي في صلاتي ودعائي لم أتعلّم غيرها.

السّنة الثّانية بعد العقد الأوّل من عمر الفتاة الكبرى...الزّغاريد ترتفع وتعلو سماء تلك الأكواخ الطينيّة تزفّ الصَبيّة التي انقلبت رأسا على عقب إلى بيت زوجها، وصار الكرسيّ الملكيّ تحت شجرة التّين الوارفة الظلال خاليا... استلمت الفتاة الصغرى في البيت مكان أختها الكبرى بعد زفافها. ولم تبد على خلافها-تفهّما للوضع، كان فؤادها معلّقا بدمى الطين، والمرعى والجدي الأشيم والكرسيّ الملكيّ، تفرّ بين الحين والآخر من مسؤوليات البيت إليها، وتحنّ إلى أيّام خلت تتوسّد يد والدتها، لتنام بملء الطّمأنينة.

غدا الفتى الأسمر شابا يافعا نما شارباه على غير ما أخبرته به الفتاة الكبرى مهدّدة. يقضي معظم أوقاته في الحقل بين حرث وبذر، لم يتلقّ من الشيخ صالح إلاّ القليل الذي حفظتُه عنه عن ظهر قلب، ولعلّه علق بذاكرتي أثناء إنصاتي لتلك التّراتيل المنسابة من

النّافذة كنفح من الجنّة. يداه خلقتا لتمسكا الفأس وتقلّبا الأرض... يشمّ عبق التّراب وتسكنه رائحته النّديّة أيام المطر، رائحة الصّفاء والنّقاء تنساب إلى صدره لتقيم فيه...

كان بعد أن اشتدّ عوده ميّالا للعزلة حتّى بعد إنهاء عمله في الحقل، بين البراري يجلس منفردا يتأمّل على مدى الأفق ترامي السّهول وانبساطها، وعلياء الجبال وشموخها، وذاك النّهر الذي يقع في سفحها رقراقا صافيا يستمدّ منه صفاء سريرته، ويتذكّر أيّام الطفولة عندما كان يسبح فيه، ولمّا يتعب يجلس لاصطياد بعض السمك الذي يكون عشاءنا تلك اللّيلة مشويّا على الجمر.

ويمتدّ بصره إلى تلك الصّفصافة إلى جانب النّهر تشدّ تربته، وتنعكس على صفحته. على جانبها شجيرات عرعار تتضوّع رائحتها إذا ما هبّت نسائم الصّباح، تنعش الرّوح وتشفي العليل. صبغت هذه الطّبيعة البكر هذا الفتى الأسمر بصبغتها التي لازمته ولم يحد عنها، فكان شابّا عاقلا حليما.

توقّفت أمّي لحظات تمدح أخاها وتطيل في إبداء إعجابها به، وبدا حبها له عميقا ومتجذّرا كما ينبغي أن يكون بين أخوين جمعتهما بطن واحدة، فترقرقت عيناي لِم حلّ به، وأشحت بوجهي لحظات حتّى لا تشعر، ثمّ رأيتها تسكت دقائق فخشيت أن تكون قد فطنت لي، لكنّي تيقّنت أنّها تستجمع قواها لتتمّ الحكاية، دون أن تلتفت لسحنتي ولا لإصراري عليها لتأخذ قسطا من الراحة:

- رأتْ "أمّا" ذلك منه فأرادت أن تبحث له عن شريكة تأنس وحدته، وتسرّ ناظره، وتملأ البيت بأحفادها، فأخذت تلحظ الفتيات من حولها أيّهنّ الأكثر جمالا، والأطيب خُلقا وملائمة له. وكنت قد لاحظت أيّام دمى الطين ميله إلى ابنة عمّي الصغرى وانسجامهما، إذ كان يحضر لها تلك المادّة الخام عن طيب خاطر، ويرفض إن دعوته لمساعدتي. وكان الكرسيّ الملكيّ مكانا لمعارك شدّ الشّعر مع الفتاة المشاكسة والمشادّات الكلاميّة، غير أنّه لم يكن يشاركني فيها أو يحاول أن يأتي بأيّ حركة ليدافع عنّي على صغر سنه حيث لم يكن حينها يتجاوز الخمس سنوات. وإنّما يقف إلى جانبها يتبادلان الحديث كأنّ شيئا لم يكن.

وكثيرا ما احمرّت عيناه وهو يستمع إليها تروي قصّة مرض أختها التي شارفت على الموت، وبكاء أمّها الذي لم يكن ينقطع، ولأجلها كان يزور بيت عمّي يسأل عن حالها.

كان العرس سبعة أيّام وسبع ليال بأكملها والفرحة غامرة الحيّ كلّه... وأذكر أنّ الوطن بكامله كان يحتفل ساعتها، طلقات البارود والهتافات والزّغاريد تعمّ كلّ ربوع هذه الأرض والأعلام المرفوعة ترفرف متغنيّة بالحريّة في الذكرى العاشرة للاستقلال. الفتاة الصغرى عروس مطأطئة الرّأس عليها ملحفة بيضاء مزركشة بألوان ورديّة تتدلّى منها خيوط حريريّة طويلة. والحنّاء تزيّن يديها الصغيرتين ورجليها، والزغاريد وأهازيج الفرح تصنع الابتسامة على

الوجوه. و"أمّا" لا تصدّق فرحتها وأنّ فتاها الوحيد صار رجلا، وأنّ بيتنا سيزدان بفرد جديد يكون بداية لعائلة صغيرة...

الفتى الأسمر الحليق الرّأس، العاري الصّدر بسروال قصير صار رجلا، له بيت وزوجة، صارا كلّ حياته إلى جانب أعمال الحقل، ورُزقا أبناء أربعة ذكورا، وأَمْعَزَ وأخرف ... قطيع من الماعز وآخر من الضأن يصحبها أحد أبنائه إلى المرعى، وهو يحمل كرّاسته وقلمه ليراجع ويتعلّم الخطّ.

هذا ما قالته أمّي وروته عن صباها في ذلك السّهل الأخضر... تستحضره بتفاصيله التي سكنتها، يدها بين يديّ مستسلمة واهنة تسبح في عالمها، تستعيض به عن عالم دمويّ بهيمي، وتأبى أن ترتاح كلّما طلبتُ منها ذلك إلى أن أثقل النّوم جفنيها، وقيّد لسانها بعد أن كان يلهج بذكر "أمّا" وهي ترقب حفدتها يكبرون، يصيرون عينيها اللّتين تبصر بهما الدّنيا بعد وفاة جدّي.

كأنّما اندلق بعد نومها ما أمسكته من دمع، وأوثقني قهر وأنا أقاوم رغبتي الشّديدة في أن أبكي في حضنها هذا الظلم، وأفرغ على صدرها فجيعتي، وأقتات من مواساتها.

نصحني الطّبيب النّفسي بجرّها للحديث والفضفضة عندما شكوت له كثرة كلامها رغم عدم تعافيها، حتّى تفكّ تلعثم لسانها الذي أصابها بعد الأزمة، وتعيد الضّغط إلى حالته الطّبيعيّة، فكنت أستمع إليها كلّما أرادت الحديث، وإذا ما انتابها وهن تغفو ما شاء لها من وقت، ولا تملّ من حديث السّهل الأخضر الذي ضمّ طفولتها،

تكرّره على مسامعي، ولا تأتي على ذكر المجزرة، ولا أحبّ أن أذكّرها بها.

أشكر الله على تعدّيها للأزمة بعد أيّام، واستقرار الضّغط والسّكري. أستطيع أن أكلّمها أخيرا وتتحدّث إليّ، وآمل أن تتحسّن حالتها النّفسيّة. كنت أنصت لها وهي تبثّني قصصا عن أجمل سنوات عمرها في تلك البقعة الطّاهرة من الحقل التي تستحوذ على ذاكرتها وأنا لا أتوقّف عن التّضرّع للّه أن تستقرّ حالتها وتتماثل للشفاء.

السفينة

من العالم الذي نولد فيه إلى العالم الذي نحلم به

19- في الجوّ رائحة طفولتي ممزوجةً بالأبجديّة تحترق ... الأبجدية التي تعلّمتها تضيع معالمها، وتفلت منّي حروفا مشوّهة ممسوخة، وما أنجزته الأنامل الصّغيرة من حيوانات عجينيّة تضرم فيها النّار، والشّرائط الملوّنة بأحلامنا.

ما عاد لخالي ذلك الرّجل الأسمر وزوجه وأبنائه وجود، ولا لـ "أَمَّا " كما تناديها أمّي أثر. صاروا في خبر كان، ولم تبق في الذاكرة سوى نعوش سبع في طريق المقبرة، نقلتها نشرات الأخبار على مرأى من أعين العالم كلّه، ولا شيء غير التّكبير والحوقلة تنطق بهما الأفواه.

أمّي ملقاة على السّرير تشرئبّ بعنقها إلى كلّ من يطرق الباب شوقا لأخي، تستعيد طفولتها الجميلة، فتعيد عليّ قصص صباها في ذاك السّهل الأخضر مع العائلة، بعد أن غيّبتها الصّدمة أسبوعا كاملا في غرفة الإنعاش. وبعد أن اعتدلت نسبة السكّر وتحسّن الضغط عادت إليها الحياة، ولكنّها اجتزأت منها ألم المجزرة، فلم تعد تذكرها، ومحت من ذاكرتها فرارَ أخي من الموت، فصارت تطلب رؤيته وتسأل عن سبب غيابه. أخبرتُها بأنّه مسافر للتّجارة لجلب بعض السّلع. كما سألتْ عن ياسين. أربكتني أسئلتها، وداهمتني بعد أن اعتقدت أنّها بدأت تتعافى وتخطّت مرحلة الخطر.

هرعتُ إلى مكتب الاستعلام، فأحالتني الموظّفة على الطّبيب النّفسيّ لأشرح له الكلام الغريب الذي سمعته منها، واستفسرَ عمّا حلّ بها،

وهل له علاقة بما تعرّضت له، فلم يخف عنّي حالتها بعد أن طلب منّي الجلوس:

- رفض عقلها الباطن المجزرة، وكلّ ما تعلّق بالفترة الأخيرة كسفر ابنها، وما تعرّض له من تهديد، وما تلاها من أحداث لم تستطع تقبّلها. محت هذه الفترة من ذهنها حتّى ترتاح، وتنعم ببعض الأمان. اختلقت لنفسها حياة أخرى رسمتها كما أرادت.
- ما حدث في الآونة الأخيرة يفوق كلّ قدرة بشريّة على التّحمّل. ليتنا نستطيع أن نجعل الحياة بدلة على مقاسنا، ونلبسها الألوان التي نشتهي؟
- لكنّنا عندما نعجز على التّحكّم في الأمور، قد تلجأ الذاكرة تحت الضّغط إلى مسح هذه الأحداث لعدم قدرتها على استيعابها والتعامل معها.
- مواطنو هذا الوطن إمّا قتلى وُئدت أحلامهم كما وئدت أنفاسهم، أو فارّون بخوفهم إلى بلاد الآخرين، أو مجانين ومرضى نفسانيون... هل تدوم معها هذه الحالة أم هي مؤقّتة؟ وما يمكنني أن أفعله لأساعدها على الشفاء؟
- هذه الحالة عادة تكون مؤقتة، لكنّها تحتاج إلى جلسات تأهيل نفسي، وبقدر أهميّة جلسات التأهيل إلاّ أنّ العلاج يعتمد على تعاون المقرّبين للمريض وإحاطته بالعناية وتجنيبه لصدمات نفسية أخرى.
- من أين لها بالرّاحة النّفسية في هذه الظروف؟

- عليك أن تبعديها عن أيّ ضغط.

لازمتها في المستشفى بضعة أيّام إلى أن سمح لها الطّبيب بالمغادرة بعد استقرار الضّغط والسّكريّ. السّكريّ الذي لم تكن تعاني منه. صار الأنسولين ضروريّا لها. أمّا حالتها النّفسيّة فتحتاج وقتا أطول، أيّاما أو أسابيع أو أشهرا إلى أن تستفيق من الصّدمة، علينا خلالها زيارة العيادة من حين لآخر حتّى يراقب الطبيب تطوّر الحالة.

أنارت أمّي بيتها ثانيّة، أعادت إليه دفأه. نفَسها في الدّار يضفي عليها نكهة خاصّة، وإن لم تعد أمّي التي أعرف بقوّتها وجلَدها وقدرتها على العطاء وتبديد ما ينغّص صفوي. أوّل ما تقصده غرفة أخي فترى الغبار قد اعتلى أثاثها، مرآته ليست على الصّورة التي تحبّ. تطلب على الفور بعد تغيير ثيابها قطعة قماش لتلمّعها كما كانت في سابق الأيّام.

- وددتُ لو وجدته في انتظاري!

- سفره هذه المرّة سيستغرق وقتا، اتّصلَ واطمأنّ عليك. اتركيه لأشغاله ينهيها على أكمل وجه، ثمّ يعود.

- أنت محقّة، لا داعي لاستعجاله والتّسبّب في القلق له، فمحلّه صار كبيرا وزبائنه كُثُر... لكنّي اشتقت إليه كأنّي لم أره دهرا لا أسبوعا!

- استلقي في فراشك إلى أن أضع الأغراض ثمّ أعدّ العشاء.

تناولنا الطّعام بعد أن حضّرتُ مائدة خاصّة تناسب حمية والدتي في نقاهتها. أبدت أمّي حالة من القلق، رأيت ذلك حتّى في حملها للمعلقة

وهي تلامس الأطباق فتصطكّ، وتعلو إلى فمها وتنخفض قلقة، ثمّ تغادر المائدة لتنطوي في غرفة أحمد على ذكرياتها معه.

- تناولي دواءك فحسب يا أمّي، واترُكي لي بقيّة ترتيب الغرفة. خذي كوب الماء، ثمّ اخلدي إلى النّوم، كان اليوم شاقّا عليك.

صوت الرّصاص في أعقاب هذه اللّيلة أيقظني هلعة، ماذا يحدث؟ انكمشتُ ترتعد فرائصي، أخشى أن تصيبني طلقة تخترق الجدران والنّوافذ، وأتوجّس ممّا عساه يحلّ بنا وبسكّان الحيّ، ثمّ أسمع فجأة نداء أمّي الواهن في اضطراب تسألني:

- ما الخطب؟

تذكّرت حالتها، ما عساني أختلقه حول إطلاق الرّصاص. عليّ إخفاء أصوات الرّصاص عنها، لن أتمكّن من ذلك نهائيّا، ولكن لعلّي أنقص الهلع الذي تتركه حتّى على الأشياء والجدران. هذه بطانيّة سميكة أعمد إليها فأثنيها في إزار نافذة غرفتها، وأشدّها بماسِكين أو أكثر للثّياب. وأحضّر بطانيات أخرى لنافذة ثانية تطلّ على الشّارع الرئيسي، حيث ينير عمود الكهرباء من الجهة العلويّة، ولثالثة تقع في الجهة السّفليّة. نادتني مرّة أخرى، تتساءل عمّا أفعل، ولِمَ لَمْ أحضر:

- الشّرطة تداهم بيت سارق، يبدو أنّه قاوم أو أراد الفرار، فأطلقت الرّصاص لإخافته.

هدّأتها فنامت بعد أن عمّ الصّمت في الخارج، ولم نعد نسمع شيئا. وفي الصّباح استفاق الحي -حسب ما أسرّتْ لي به الخالة زليخة- على

أخبار ذبح شابّ في سريره في إحدى العمارات، وإطلاق رصاصتي حقد تنخران جسده. همست لي الخالة حتّى لا تسمع أمّي:

- لم يمض على عودته إلى أهله إلاّ أسبوع واحد بعد أن أنهى الخدمة العسكريّة، قضاه بين جدران غرفته. وفي اليوم الذي خرج فيه متخفّيا لحاجة قضاها، دُوهم بيته عند الفجر.

عند زيارة الأهل والجيران لأمّي للاطمئنان عليها وتعزيتها، كنت أخبرهم عند المدخل بألاّ يأتوا على ذكر المجزرة، والعزاء، وأن يكتفوا بسؤالها عن صحّتها. تساءلتْ لمَ لمْ تزرها جدّتي وخالي حتّى الآن، أقنعتها بأنّهما زاراها مرّات عدّة في المستشفى أثناء غيبوبتها، واطمأنّا عليها في الهاتف.

موكب من قرويين وريفيين تتقدّمهم حيرتهم، أراهم وأنا في طريقي لشراء الدّواء وبعض المقتنيات للبيت، يحملون أمتعتهم على ظهورهم، وأولادَهم الحفاة العراة. يحملون بؤسهم ويفرّون بفلذات أكبادهم من سكين أو خنجر. أطراف المدينة، الجسور والأنفاق تعمر بهم وبخوفهم... الجرائد على رفوف الأكشاك أكفان سوّدها الحبر، ولطّخها بأخبار المجازر وفرار الأهالي.

انقطعتُ عن المجلّة لمرض أمّي، وعند ذهابي إلى مقرّها هذا الصّباح وجدتها شبه فارغة، عدا عامل حرفيّ كان يدعّم أقفال الباب، وزميل كان على وشك الانصراف لأخذ العمل إلى المطبعة. انتهزت الفرصة لأسأله:

- أين هو المدير، ألم يحضر اليوم؟

- إنّ أخبارا تؤكّد هروبه خارج الوطن بعد محاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة.

أخذت أغراضي وقد تملّكتني رجفة اقشعرّ لها بدني، وتساءلت عمّا سيحلّ بنا، أكيد أنّ أُسرا ستجوع وعوائل ستشرّد. لم تُعْلِمني صبيحة بالأمر في آخر أسبوع قدمت فيه إليّ في الصباح الباكر، عندما جلبت لي بعض ملفات للعمل، وغادرت خائفة مذعورة أن يراها أحد ويعلم بهويتها. هذا يعني أنّ فراره إن صحّ حدث في اليومين الأخيرين.

حدثُ إلى الصّائغ حيث بعت خاتمين ثمينين كانا لي بثمن بخس، لما آلت إليه الأوضاع من تأزّم، ولعزوف النّاس عن شراء هذه الكماليات، لننفق من ثمنهما بعد اعتلال صحة أمّي، وضرورة ملازمتي لها، وإغلاق المجلة الوشيك.

وحينما اقتربت من الحيّ عند عودتي، عتّمت سحابة سوداء على الشّارع الرّئيسيّ، واعتلى المكان دخان كثيف وصيحات. الابتدائيّة التي تتلمذت فيها أنا وأخي وتعلّمنا بها الأبجدية أُحرقت عن آخرها في وضح النّهار.

يا للهول! أجيج النّار أسمعه يأتي على أيّامنا فيها، وألسنة اللّهب أراها متطايرة في محيط المدرسة وما جاورها، تتطاير معها أحلامنا وذكرياتنا الصغيرة. وبينما كنت أبتعد عن هذا الشّارع مذعورة ممّا يحدث متجهة إلى بيتي، رأيت جموع أطفال هاربين باكين بعيون هلعة احتراق كتبهم وكراريسهم ومقاعدهم وطاولاتهم. قد كانوا هنا في الصّباح وتركوا

محافظهم في الأدراج، بعد أن رسموا بالطّباشير أحلامهم وتركوها لحين عودتهم بعد أن دقّ الجرس.... أين الشّرطة ورجال الإطفاء؟ كانت وجوههم فزعة لا تجد إجابة. السّاحة التي كنّا نلعب بين أرجائها، والنباتات التي غرسنا في فترة الاستراحة، والشّجيرات التي حفرنا لها في التّراب النديّ في عيد الشّجرة ...دخان ودمار، وصيحات.

الأمّهات يتحسسن وجوه أبنائهنّ وأكفّهم وهنّ لا يصدقن أنّهم نجوا، ولم يحرقوا أيضا... قلن لهم حتّى يكفّوا عن البكاء وهنّ يسقنهم إلى منازلهم بأنّه ستبنى لهم مدرسة أخرى أجمل.

- ولكنّها مدرستي التي تعلّمت الأبجدية فيها والحساب.

صاح أحد الأطفال، وصاح معه الطفل الذي بداخلي بصوت مبحوح فيه اختناق: مدرستي التي لُقّنت بين صفوفها تاريخ الأجداد، ورُويَت لي قصّة الفاتح من نوفمبر، وثورة الأوراس، وبسالة لالا نسومر، والعربي بن مهيدي ومصطفى بن بولعيد. ونفخت فيّ بين أرجائها قصص الغول وجحا على بساط من ريح، عبرت من خلالها الأزمنة الغابرة.

وهمست طفلة باكيةً بزيّها المدرسيّ الأبيض وهي تخفي وجهها بين ثياب أمّها:

- لا أريد أن أعود إلى المدرسة، حتّى وإن بنوا لنا أخرى، فأنا أخاف عيني ذلك الرّجل الذي قدم الأسبوع الماضي وهدّدنا بالسّكين الكبير.

لم تعد الدّراسة من الأولويات في هذا الزمن المرّ، بل ربما حضر في بعض الحصص من القتلة من يقتاد معلّمهم إلى خارج القسم ليهدّده

أو يضع حدّا لحياته، ثمّ ينصرف دون أن يسأله أحد تاركا الأطفال إلى كوابيسهم تعبث بهم.

بكيت أنا أيضا بحرقة خراب بيتي مثل أيّ طفل من هؤلاء، لكنّي لم أجد مثلهم أمّي تمسح دمعي، وتطلب منّي أن أكفّ، وتربت على كتفي... كانت وحدتي فظيعة، وقهري غائرا كسكين حادّ.

وطني فلّ وياسمين...

وطني شمس ورياحين

أُضرمت فيه نار لا تُخمد...

وطني حصاه فلّ وزنبق

تُرك هشيما تذروه رياح الغدر...

وطني أنا وأنت...

عباءة بيضاء للجميع سابغة

ضُرّجت حواشيها بالدمّ، ثمّ أُثقلت...فتشكّلت مستنقعات آسنة نتنة بلونٍ للغدر أسود قانٍ.

وطني فلّ وياسمين...

وطني شمس ورياحين...

شنقوه تحت المقصلة

الجدران التي كنّا نزيّن بالأوراق الملوّنة وشرائط الزينة، أشكالها، تَوزُّعُها بانتظام أسفل السّقف، وهي تتدلّى على ما خططته ذات يوم وأعجب المعلّم، فانتقاه من بين أعمال زملائي وعلّقه على الجدران:

"العلم نور والجهل ظلام". الخزانة في آخر الصفّ التي تضمّ دفاترنا وخربشاتنا، كلّها تحترق بين أضلعي، ويغطّيني الرّماد ممتزجا بذكريات الطّفولة ونشيد قسما ورفرفة العلم.

في الجوّ رائحة طفولتي ممزوجةً بالأبجديّة تحترق... الأبجدية التي تعلّمتها تضيع معالمها، وتفلت منّي حروفا مشوّهة ممسوخة. الخُشّيبات التي كنت أَبسُط على الطّاولة جامعة وطارحة، العصا التي كانت بيد معلّمي، وهو يمرّ بين الصّفوف ليراقب ما أنجزنا. ابتسامته لي على إجابتي الصّحيحة، تصفيقه إعلانا عن انتهاء حصّة الرياضيات، وسماحه لنا بإخراج العجينة التي كنت أجيد تشكيلها قططا وعصافير بأعشاشها وبيوضها.

في الجوّ رائحة طفولتي ممزوجة بالأبجدية تحترق... وما أنجزته الأنامل الصّغيرة من حيوانات عجينيّة تضرم فيها النّار، والشّرائط الملوّنة بأحلامنا، وتلك الورقة التي ضمّت "العلم نور " تأتي النّار عليها ولا يبقى منها إلاّ الظّلام ... ظلام داكن يحجب عنّي الرّؤية. العَلَم يحترق أعلى السّارية تمتدّ إليه ألسنة اللّهب، ولا أحد ينقذه.

أصرخ أنادي معلّمي، إلاّ العلم... ولا أحد يسمعني. وتتيه استغاثتي وسط الظّلام والدّخان وكلّ تلك المعمعة، ثمّ أتذكّر أخي، فأخشى أن يكون قد أصابه مكروه، يداه تحترقان والألسنة تصل وجهه البريء الجميل، ويعلو صراخي أستنجد ولا أجد ماء أو مسعفا. يحترق الألم بين أضلعي، وعلى طول قامتي، ويكبّلني قهر بطول الجبال، وقوّة

الحديد، ولا أقدر على فعل شيء. ينطفئ أخي وتُصيِّر النّار العلم سارية حديديّة جامدة مسودّة، وتنطفئ أنا أيضا صرخاتي بعد أن يكبس الدّخان على أنفاسي.

أجدني في سريري أهذي وأرتعش ... لا يزال منتصف اللّيل...

آخذ دفترا وقلم رصاص من مكتبي... سأجعل لأيّامي العصيبة وكوابيسي مذكّرة، وسأرمز لما أكتبه بالسنة خمسة وتسعين تعبيرا عن عام حزني، لتكون شاهدا على وحدتي في هذا العصر، وعلى وقوفي في فوهة الموت. وسأخفيها فور انتهائي منها كلّ ليلة في وسادتي كاتمة أسراري، فأنا أخشى مداهمات اللّيل، والذبح على الأَسِرّة، لأعود إليها متى شئت إن بقي في الحياة رمق.

سأفرغ فيها خوفي ووحدتي، وأرسم انكماشي وكوابيسي التي أرى كلّ ليلة، ولا أقدر على أن أرويها لأمّي، وتفاصيل ما أسمعه ولا أراه ممّا يحدث ليلا، ونباح الكلب الذي يمزّق القلب، وشعوري بلجوئه إليّ، ومرارتي بتخييب ظنّه بعد أن كُتم صوته ووجد مذبوحا في مكان مهجور وغُرّم صاحبه. بعدها أضعها في حشو الوسادة، ثمّ أخيط طرفيها.

سأروي جرائمهم، وبهيميّتهم، وسأفضح حقدهم، واستهانتهم بالإنسان والحيوان وتراب هذه الأرض الطّاهرة بدم الشّهداء.

أَوَ سيأتي من يكتشفها ويفكّ خيوط الوسادة، أوَ سيأتي من يقرؤها بعدي، ويعلم بقهري وغصّتي التي حملتُ إن خرجتُ يوما ولم أعد؟ سأفرغ فيها رغبتي في الأمان، في بيت دافئ صامد لا يخترقه الرّصاص،

ولا تعبره الأيدي الطّويلة... في ليلة هانئة، في أخٍ أستند عليه، يجعل الحياة أأمن.

الكتابة حياة، فكما كان الموت كلمة صدرت عند قتل ياسين وبتر أصابعه بقرار ممّن أمر بالعمليّة، كذلك الحياة كلمة ... الكتابة لحظة تجلٍّ شجاعٍ تحت وقع القنابل وإطلاق الرّصاص، وحزّ السّكين. الكتابة إعلان وجود في وجه من أراد أن يُخرس وجودنا وسط الدّمار والعدم، مقاومةٌ للموت. الكتابة محاولة للحُلم في بلد وئدت أحلامه باكرا، وحُرّم على أبنائها تصوّر مشاهد غير مشاهد الدمّ.

الكتابة حياتي الوحيدة...

بعثي من جديد...

بالكتابة أستعيد ياسين المقتول غدرا، وأستعيد أحمد الفارّ بجلده، وما تبقّى من عقله وعمره، وأستعيد نفَس أمّي. بالكتابة أدخل مدرستي، وألقي التّحيّة على معلّمي، وأرفع العلم، وأغنّي قَسَما بصوت عال، ولا أخشى وقع الرّصاص ولا القنابل، ولا ألسنة لهيبهم. وأعبر السّاحة إلى القسم حيث تعرّفت على ألف الأمل والألفة، وراء الرّحمة والرّأفة، وحاء الحبّ والحريّة، وتآلفت معها وشكّلت الكلمات، وكنت بها أشكّل حياتي وحبّي للكتابة ومهنة الصّحافة ونقل مشاكل النّاس.

صوت الرّصاص يعود مرّة أخرى، لا تكاد تخلو منه ليلة. قررت أن أكتب تحت صوت إطلاق الرّصاص ثمّ أدسّ دفتري في الوسادة، وأخيط أحلامي المغتالة وفرحتي المسروقة. تحت سريري أقبع خوفا من

أن تخترق رصاصة طائشة الجدران. أحضن أمانيّ وأرعاها، فكثيرا ما تولد الحياة من هذه الأماكن الضيّقة المغمورة. وتسمق بقامتها رغم ما يحاط بها من محاولات للاغتيال. وكثيرا ما ينبثق التّغيير من الجحور، وتزهر الثّورة في الأماكن المظلمة والمنزوية لتفقأ أعين الطّغاة وتخرسهم، ومعظم النّار من مستصغر الشّرر، وكم من عودٍ تستهين به يُرديك أعمى بلا بصر.

يبدو أنّ أمّي تآلفت مع صوت الرّصاص كما تآلفتُ معه، أو هي تغطّ في نوم عميق، فلم أعد أسمع لها في الغرفة ركزا، ولم تعد تسأل.

صرير القلم يبدو ضعيفا، لا يسمعه أحد سواي، أتراه يُكتب لي أن أحيا، ويقرأ هذه الصفحات من بقي على قيد الحياة في هذه الأرض. صرير القلم يتضاءل، وصوت الطّلقات يعلو، مرعب وقاتل. أيّهما أقوى؟ ما يصنعه القلم في النّاس أقوى من الرّصاص والسّكين، أم أنّهما لا يمهلانه ليفعل فعله؟ أخشى أن يأتيا على الأخضر واليابس، ولا يذرا للقلم فسحة ليأتي أُكله.

الرّصاص والسّكين ينهيان حياتك والقلم يبعثك. قال أحد ملوك اليونان: "أمر الدّين والدّنيا فوق شيئين قلم وسيف، والسّيف تحت القلم". القلم نقطة البداية، يمدّ في عمرك، ومع كلّ قراءة تُبعث من مرقدك. الكتابة حيوات كالقراءة تماما، بل صناعة للحياة تختصر لك تجارب الآخرين كأنّما تعيش أكثر من حياة، والعمر لا يسع إلاّ واحدة. فمع كلّ قارئ تبعث أفكارك، وتجوب الشّوارع والأزقّة كما تجوب

العقول. والرصاصة تخترق جسدا أو جدارا ويخمد مفعولها ولا تتجاوزهما.

الكتابة تخترق القلوب والعقول والدّيار وتسكن الأوطان والأزمنة، بعد أن لم يَعُد الوطن يسع أبناءه، يلتهمهم بيد غادرة، أو يلفظهم إلى بلاد الآخرين.

الكتابة وطن...وطن من لا وطن له.

الكتابة حياة ثانية، رسم لتعاريج الرّوح، نسج وحياكة أنيقة للحبّ وللأمان اللّذين فقدا على هذا التّراب.

سأكتب لأحمد خطابا لأسأل عنه، وأخبره بما تعرّضت له أمّي بعد المجزرة. عليه أن يكلّمها، هي بأمسّ الحاجة إليه، وكذلك أنا بعد كلّ ما مررنا به، لعلّها بسماع صوته تستعيد عافيتها وما غاب من ذاكرتها. أفتح صفحة جديدة في الدّفتر أخطّ فيها:

رسالة إلى أخي:

السلام عليك يا أخي في بلد صار فيه السّلام أمنية ...

كيف يا ترى ستجدك رسالتي؟ أتراك جائعا منهكا في بلاد الغرباء، منزويّا في بؤسك وغربتك. ماذا يا ترى أنت ترتدي الآن؟ أما زلت تحبّ التّأنّق في هندامك؟ أما زال اللّباس الرياضيّ أفضل ثيابك؟ أما زلت تمارس الرّياضة وتحافظ على لياقتك البدنيّة؟

وأين يا ترى تقرأ رسالتي؟ أما زلت تقيم في مخزن ذاك المتجر، أم أنّك صرت مشرّدا بائساً بعد أن تخاصمت مع ربّ العمل، وثأرت

لكرامتك على عادتك؟ تغسل الصحون، وتتعشّى ببقايا الطّعام وتنام في العراء؟ وتقول لي في الهاتف أنا بخير، وترسم ابتسامة على وجهك، وتغيّر نبرة صوتك حتّى أقول أنّك بخير.

أنا كذلك بخير، بعد أن قتلوا أحلامي، وصارت المقبرة الموعد المحبب إليّ، والطّريق الذي أقصد حاملة باقة الياسمين. ولم أعد أسمع سوى صوت القنابل، وحزّ السّكين، وبكاء الأطفال والأرامل والثّكالى.

أنا بخير... لأنّك لم تعد مهدّدا كما كنتَ يوما، وصرت في مأمن، ولو كنت تعيش في العراء وتأكل ممّا فَضُل.

من تحدّث عن الحزن، لست حزينة، فعيناي تدمعان من شدّة الفرح، لأنّي رغم ذلك أستطيع أن أكتب لك، وجبيني يندى من فرط الأمن الدافئ، لا ننام إلاّ والنّوافذ مشرعة، وعليها ستائر رفيعة ترتفع تحت وقع الهواء العليل. لا أريدك أن تقلق بشأننا رغم ما يروى في نشرات الأخبار وما تكتبه الجرائد، فكثيرا ما تُهوِّل حجم الخسائر وعدد الضحايا.

نحن رغم قصص الدّم والخيانة نحيا، وننظر إلى السّماء بعيني آمل. لا أريدك أن تحزن لأجلنا، بل فكّر في غد يلتئمّ فيه شملنا، وخطّط لبيت يجمعك بعروسك، ولأحفاد كثُرٍ تنتظرهم أمّي. ادّخر مالك -ثمن غربتك- لعرس طالما انتظرناه ، وفرحٍ مؤجّل ادّخرنا له كلّ ما نقدر عليه من سعادة وما تبقّى لنا، نَهبُها لأنفسنا المنهكة ولك.

لا تحزن فكلّ الأمل معلّق بك، بالمستقبل الذي ينتظرك. ورغم ما يشاع ويذاع من أخبار الموت، إلاّ أنّه في كلّ دقيقة يولد مولود جديد، وتشرق في كلّ صباح حتّى على مشاهد الدّم شمس تسطع في الأرجاء. واعلم أنّ أشدّ السّاعات سوادا في اللّيل هي التي يعقبها بزوغ الفجر. ابتسم فكلّنا نبتسم رغم الجراح. وكلّنا يحاول أن يصنع غدا جميلا مشرقا ولو في أحلامه.

أمّي تعيش لأجلك وتنسى مرضها... تُعِدُّ غرفتك، وتلمّع مرآتك، وتضع مشطك في الدّرج بعد أن تتفقّده كلّ صباح ومفتاح المحلّ. ستعود الأمور إلى نصابها صدّقني، وتبخّ من قارورة عطرك المفضّل لتشعر بوجودك. مازالتْ تطلب منّي ابتياع هذا النّوع من العطر الخاصّ بك، أم تراك غيرته؟

لم نَرَكَ منذ أكثر من سنتين فكيف صرت يا ترى؟ أما زلت صاحب مُلحة كما ألفناك، أم أنّ الغربة ألبستك ثوب الكآبة، وجعلتك تتقوقع داخل معطفك وزوادتك، تشمّ فيهما رائحة الوطن، وتبصق فيهما حقد الآخرين، بعد أن استحال عليك إيجاد مكان تفرغه فيه. خبِّئه لحين العودة فقد اعتدنا هنا على الحقد، فالكلّ يفرغ حقده وضغينته ولو ببندقية أو سكّين عطشى للدّم تهلك قبيلة بأكملها.

ما عساي أنقله لك من أخبار الدّيار... مدرستنا احترقت... في وضح النّهار... إلاّ أنّنا ما زلنا بخير.

الزيتونة التي غرسناها منذ سنين، أوراقها تحت اللّهب ذوت...إلاّ أنّنا ما زلنا بخير. القسم الذي أدخلتني أوّل عهد لي بالمدرسة وأنا أبكي لا أريد أن أبتعد عن أمّي، وأنت تمسح دمعي، والمعلّم يبسم لي تحوّل إلى قطع حديديّة سوداء هي بقايا الكراسي والطّاولات...إلاّ أنّنا ما زلنا بخير.

جارنا البقّال في آخر الشارع أَتذكرُهُ، ابنه البكر عمر، كبر وقضى الخدمة العسكرية، ولمّا أتّم واجبه الوطني في أسبوعه الأوّل أهداه الوطن رصاصتين في الصّدر، وسكينا أرداه ذبيحا في سريره، يفور دمه وأمّه تنوح وهي تحاول أن تدفع عنه موتا محتّما... إلاّ أنّنا ما زلنا بخير.

أمّي دخلت الإنعاش أسبوعا كاملا بعد مجزرة فتكت بعائلتها بأكملها في ليلة بطش. ولم يبق من ذلك السّهل الأخضر الذي طالما استلقينا على بساطه سوى فزاعة تقف وسطه، وسبعة جثامين تنام غير بعيد عنه في مقبرة النّاحية. أصاب أمّي السّكريّ وارتفع ضغطها، ولم تعد تذكر الأحداث الأخيرة فرارك وقتل ياسين والمجزرة... إلاّ أنّنا ما زلنا بخير.

أجل ما زلنا بخير، ما زلنا على قيد الحياة على كلّ حال، ننتظر أن تتفتّح الزنابق، وتتفتّق براعم زيتونتنا مرّة أخرى من تحت الرّماد، وتنطفئ حرائق طفولتنا، ويعود الطفل في قلب كلّ واحد منّا إلى الطبشور واللّوحة يرسم وطنا من نور يعلّق على جدار مدرستنا..."

أختك مريم

أجتثّها من الدّفتر، وأضعها في ظرف وأتّجه إلى مركز البريد. حشود النّاس تبدو لي غريبة كأنّما الكلّ يعلم بقصّة أخي، وأنّي سأبعث له رسالة. الريبة تلتهمني، وتجعلني أقلع عن رأيي وأعود أدراجي خشية الرقباء، فأعود بالرّسالة إلى البيت لأخفيها في الوسادة وأرغب لو اختبأت أنا أيضا بداخلها.

ماذا دهاني؟! أخشى أن تعلم تلك الجماعة المسلّحة بمكانه فتتبعه حتّى وراء البحار. أخذتني الوساوس بعيدا إلى عهد صهيب المدعو أبي مصعب. حتّى الاتّصال بأحمد قد تعذّر، يبدو أنّه غيّر إقامته، كان هو المتصل في كلّ مرّة. ماذا عساني أفعل؟! ليس أمامي إلاّ الصّبر والانتظار...

من حسن الحظّ أنّه هاتفني في اليوم الموالي بعد أن علم بالمجزرة متأخّرا من وسائل الإعلام. قال إنّه غيّر مسكنه وعمله، واتّجه شمال مدريد، وكان يوم المجزرة بالتّحديد منشغلا بالانتقال. طمأنته على أمّي وأخبرته أنّها صابرة ومحتسبة أمرها إلى الله، واحتلت عليه لأقنعه ألاّ يذكر لها مصابها إذا ما حدّثها ما لم تأتِ على ذكره.

مرّت المكالمة على خير أخيرا... شعرتُ لمّا سمعته يتحدّث بالطمأنينة، وأنّا على الأقل تمكّنّا من تهريب جزء من أحلام العائلة إلى برّ الأمان.

إنّه مستقرّ وفي مأمن، لا أريد له أن يعيش حياتنا، ولا أن يعود ليبقى متخفّيا ما بقي من عمره.

قالت أمّي إنّها تنتظره أن يعود على أحرّ من الجمر، وإنّها ستزوّجه هذه المرّة أجمل الفتيات لعلّه يستقرّ. تُغيّر مكالماتُه نفسيتها، فترفع معنوياتها أيّاما إلى أن تعود إلى حالة الاكتئاب التي صارت تنتابها في الفترة الأخيرة.

قبيل الفجر سمعتها تبكي بكاء هستيريّا وصل غرفتي ففزعت من نومي لأعلم ما حلّ بها، ولكنّها كانت تصرخ ولم تعطني فرصة لسؤالها. حاولت أن أضمّها لعلّها تهدأ، ولكن كأنّ شيئا طمس عقلها وجوارحها حتّى لا تسمعني أو تشعر بي بقربها فتطمئنّ.

- مات أحمد غرقا في طوفان لم أره من قبل.

تفوّهت بهذه الجملة ثمّ عادت إلى بكائها الهستيريّ رغم ما حاولته من تهدئتها وإقناعها بأنّه مسافر للعمل، وكثرة الأعباء والانشغالات هي التي أخرّت عودته.

أخذتها على وجه السّرعة بعد أن أسفر الصّبح إلى المستشفى بمساعدة صبيحة وزوجها. وبعد أن استمع إليها الطبيب النّفسي وغادرت غرفة الكشف، سألني هامسا حتّى لا تسمع حديثنا:

- هل حدثت لها مثل هذه النّوبة من قبل؟

- عانت منها في الماضي عند استشهاد والدي. ولكنها حدّثتني أنّها تعافت عندما علمت أنّها حامل بي.

- هذا بالضبط ما تحتاجه، أمل يشدّها إلى الحياة.

خرجت من المكان وأنا أفكّر فيما عساه ينقذها ممّا هي فيه. وفور وصولنا أعطيتها حبوبا مهدئة لتنام. تكرّرت نوبات الهستيريا كلّما رأت أحمد غريقا. وكنت عبثا أحاول تهدئتها أو إقناعها أنّه مسافر للعمل إلى أن تمرّ الأزمة فتعود إلى حالتها الطبيعيّة.

خلوت إلى نفسي بعد أن عمّت حالة من السكون أمنّيها بشفاء أمّي وعودة الذاكرة إليها، وإن كان المرء لا يحتاج ليستمرّ في هذه الحياة إلى كلّ ذاكرته. الذاكرة جرح... والبعض منها عار وخزيّ نحبّ لو نستفيق يوما فنجده مطموسا بكلّ توابعه، ذراع عفن في بتره حياة صاحبه وفي الإبقاء عليه هلاكه. ما عساي أخبرها به إذا ما سألت عن جدتي وخالي وأبنائه. أترانا نستطيع أن نصنع الحياة من جديد ونشكّل ذاكرتنا بمَلكنا أم هي من تصنعنا ثمّ تطرحنا بيد متكلّسة ورجلين ينهشهما داء المفاصل وجسد من سكري وضغط ورأس قد نخرته الأوجاع فلاذ إلى النسيان.

يرنّ الهاتف فأهبّ إليه لعلّه أحمد...

-ألو مريم، كيف الحال؟

- أين أنت يا أخي؟

- أنا حيث أخبرتك منشغل بعملي، ما بك لم هذا القلق في صوتك؟

- أمّي مريضة منذ أن رأت المجزرة على التلفزة.

وقفت النّعوش التي تسيل دماؤها في وجهي فجأة فاقشعرّ لها بدني،

وإلى جانبها صورة أمّي التي كدت أفقدها في الغرفة التي تسبق الموت، أراها من الإطار الزّجاجي فأرتعش لضجعتها تلك حتّى بعد هذه الفترة من تعافيها، وأفزع لمجرّد تصوّر لو أنّها لم تعد. ويتراءى لي درَج سلّم العمارة الذي صعدته طيلة ذلك الأسبوع كمائن منصوبة لي، توقعني في بوتقة دماء تغلي تفتح عليّ أفواهها في الظلام.

كلّ الصّور وقفت أمامي إثر سؤاله الذي أفاض الكأس، فأجهشتُ بالبكاء ولم يعد يفهم كلامي. رفع صوته يطلب منّي أن أكفّ وأشرح له الأمر:

- ألم تقولي إنّها بخير في المكالمة الأخيرة، وقد تحدّثت إليها كانت على ما يرام؟

- كذبتُ يا أخي فلتسامحني... فقد فقدت جزءا من ذاكرتها حول الأحداث الأخيرة لذا بدت لك في أحسن حال، ويوم المجزرة دخلت الإنعاش مدّة أسبوع تحت تأثير الصّدمة، والحمد لله قد نجت منها، ولكنّها استفاقت على الضّغط والسكريّ.

- لم لم تعلميني؟

- لم أرد أن أحمّلك همّنا حتى في الغربة، تصوّرت أنّها سترتاح ولكنّها تصرخ دون توقّف في نوبات تصيبها بين الحين والآخر خاصّة إذا ما خلدت إلى النّوم فرأتك غريقا يحملك الطوفان. هي الآن تنام بالحبوب المهدّئة.

- سأرتّب أوراقي وسأركب الطّائرة في أقرب فرصة تسنح لي، وليكن ما يكون، لن نفرّ من أقدارنا.

- كيف ستعود وأنت لا تزال لم تسوِّ وضعيتك، ولم تحصل بعدُ على أوراق إقامتك؟

- مثلما خرجت سأعود بأيّ طريقة.

ليتني لم أخبره ...قلت هامسة خشية أن تسمعني أمّي. عاود الاتّصال بعد الظهر ليتحدّث إليها، فكأنّما أحيتها كلماته، وبعثت فيها نشاطا عجيبا لم أرها عليه منذ فترة. أنستها خورها، وشغلتها عن كلّ عللها، وهدّأت من روعها وأدركت أنّ ما تراه في منامها ليس سوى أضغاث أحلام. ولمّا شعرت ببعض الرّاحة خاطبتني ذات صباح أشرقت فيه ابتسامتها وصحّتها:

- لا بدّ من تحضير غرفته وإعداد وجباته المفضّلة، وخبز الدار الذي أكيد أنّه اشتاق إليه.

شمّرت عن ساعديها وحملت منشفة وقضت ساعات كثيرة بين جدران غرفته ومتعلّقاته ...

مرآتك، مشطك، جزمتك الرياضيّة، كلّ هندامك ...كلّها تنتظرك بلمسات أمّي ونفَسها الدّافئ. أتصدّق أنّها لمّعت مرآتك وطلبت منّي شراء قارورة عطرك المفضّل، وأخرجت من الدولاب القندورة الخضراء التي اشتريتها لها والملحفة البيضاء ووضعتها جانبا لترتديها يوم مجيئك.

حقيبة باردة مكدّسة بغربتك وبالأيّام التي عشتها بعيدا عنّا ستعدّها، وترحل عن المكان الذي احتملك هذه الفترة كلّها واحتملته. ستعود أكبرَ بسنتين حملت همّهما بمفردك. ماذا يا ترى علّمك المنفى، وما الذي غيّره فيك؟

وجبة باردة دون نكهات أو نفَس، وثوب غسلته المحن وكوته، وزاوية للنّوم ضيّقة وموحشة بلا أحباب، وقلب ذاوٍ ينتظر أخبارا سيّئة قادمة من الوطن، ويأمل أن يعود. لم تعد تصبح وتمسي على أمّي التي ترغب لو منحتك حياتها، وإنّما على وجوه ترتاب فيك، ومهما فعلت فستظلّ الغريب المنبوذ الذي يجب أن يعود إلى الدّيار. الحقيبة المكدّسة بغربتك التي تبعتك من نزل إلى آخر ستعود أخيرا...

أدسّ الدّفتر في الوسادة، وأضع القلم جانبا، وأستسلم لنوم جميل هادئ، وحلم يزيّنه أخي وأمّي وقد تعافت وبيتُنا الدافئ، فقد تبدأ الحياة بحلم، وقد تولد الابتسامة من هذه الوسادة وتشرق.

استعادت أمّي عافيتها ونشاطها بعد أن علمت برجوع أخي. أردنا أن تكون أيّاما مختلفة، كلّ ما يحبّه من أكلات أمّي ستُحضَّر، كسرتها، فطيرها، كسكسها، ثريدها...وستكون أيّاما سعيدة، ولكنّها ستكون سريّة نكتم فيها فرحتنا بين الجدران، فلا يغادر البيت، ويتجنّب الظّهور في نوافذ الغرف والشرفات، والتّحدّث بصوت مرتفع والانفعال ضحكا أو صراخا. وسنحرص على إظهار أنّ في البيت شخصين لا ثلاثا. فقط

غرفتان مضاءتان، وصوتان، وليس عليه أن يفتح الباب إذا ما دقّ الجرس. يجب أن نلتزم جميعا بذلك.

سنجتمع في غرفة أمّي نستعيد أيّام الطفولة والشقاوة، وسأسأله عن حياته في إسبانيا:

- قصّ لي أهمّ ما وقع لك في إسبانيا. الأماكن التي زرت، الأعمال التي زاولت. أين كنت تبيت. هل مدريد جميلة؟ أي العواصم هي؟ ماذا كنت تأكل؟

تتصور أمّي أنّك سافرت للعمل إلى الصحراء لذا يجب أن ننتبه لذلك، وأن لا نظهر لها كلّ حديثنا.

سنسهر إلى منتصف اللّيل نستعيد مدة غيابه السنتين الماضيتين اللّتين قضيتها وأمّي دونه، حتّى وإن كنت سأنصرف إلى عملي باكرا.

- هذه المرّة سأزوّجه وسيترك لي من صلبه ابنا يشبهه يجعلني أحتمل ما أنا مقدمة عليه من شيخوخة، ويليّن ألم المفاصل، ويناولني شربة ماء إذا لم أستطع أن أنهض. يفتح لكِ يا مريم الباب إذا قدمت ويناديك عمّتي. سيزيّن حتما حياتي القادمة. شعرت لأوّل مرّة بما قالته "أمّا" وما اكتوت به لعدم إنجابها سوى ثلاثة أبناء أنا وخالتك رحمها الله وخالك. قالت أكثري من الأبناء فهم سند "يروح وقت الخديدات ويجي وقت الوليدات" فإن حدث سوء لأحدهم يؤنسك البقيّة ويسدّون ذلك الفراغ. أنا لم أنجب سوى ولد وفتاة، سافر أخوك فبقيت الدّار شاغرة.

- ماذا عنّي يا أمّي؟
- لولاك لا أدري ما كان يمكن أن يحدث لي. في النّهاية هو قضاء الله وقدره، وكلّ هذا كلام فارغ، الأولاد رزق من اللّه يسوقه لمن يشاء بالقدر الذي يريد، وساعة يشاء. وفي النّهاية لا يمكن أن يحلّ أحدهم محل الآخر. ولكن تصوّري أنّه وحيدي وأنّك غير موجودة!
- أرى أنّي فعلا غير موجودة، لماذا تفترضين هذه الأشياء؟ هيّا ابتسمي واتركينا نكمل التّحضيرات، نكاد نتمّ.

تساءلت إن كانت الأمّهات فعلا متساويات في عطائهنّ، وإن كنّ في مقدار رهافتها، كأنّما اجتمعت أمومة الخلائق في فؤادها، وإذا ما وزنتها رجحت كفتها. وهذا ما يخيفني. أخشى على عقلها إن حدث له شيء. ما هذه الأفكار، وما هذا الفأل؟

- لم أتصوّر أن يظلّ البيت دون رجل في مثل هذا الزمن.
- لولا لطف الله وستره، ووقوف الجيران إلى جانبنا.

تحضيرات أمي، إشرافها على كلّ شيء رغم مرضها مذهلة... هاتفني أخيرا البارحة بعد أن انتظرنا مكالمته أيّاما يخبرني بوصوله اليوم عصرا. شربة الفريك بخبز الشّعير، الكسكسي بلحم الضأن، حتّى الثريد يجب أن يكون حاضرا على المائدة. كلّ الأطباق الشهيّة التي يحبّ دفعة واحدة.

- صوت الجرس، افتحي أحمد قد وصل.
- لا يا أمّي هذه ابنة الجيران تريد خميرة الخبز.

- هل ذهبتْ؟ لم يقلقني استيلاف الجارات كما أقلقني اليوم، هذه الجارة الثّانية التي تدقّ بابنا في أقلّ من ساعة، ويهتزّ لها قلبي.

كأنّما لا تريد أن يقطع أحد عليها انتظارها لابنها. انتظرناه إلى اللّيل وأنا أعلم أنّه يتحاشى الظّهور أمام الملإ، جالسة برفقة أمّي على كرسي قرب الباب حتّى نسمعه حين عودته ولا ينتبه له الجيران، ولكنّه لم يأت.

لم يعد حتّى الآن. انتظرناه في اليوم الموالي والذي بعده. اتّصلت به مرارا على رقم صاحب الشقّة دون جدوى، وتصوّرت أنّي أخطأت في الأسبوع الذي يعود فيه، فعاودت انتظاره في الأسبوع الثاني ثم الثالث أترقّب انقضاء أيام شهر بكامله إلى أن يئست وأخذت بي الظنون كل مذهب.

عقدة الخوف من أنّه قد أصابه مكروه بدأت تكبر وتحتويني، وأرفض أن أصدّق أنّه قد ماااااات.... ثمّ تحوّل ما رفضته مع توالي الأسابيع وانقطاع أخباره من المستحيل إلى خانة الممكن، ثمّ تدرّج من الممكن إلى المرجّح. أمر ما في داخلي يقول لي لا يزال أحمد يدبّ فوق هذه الأرض.

- ألّي يستنى خير من لي يتمنّى ولي يتمنّى خير ملي يقطع لياس.

خشيت على أمّي من ارتفاع الضغط والسكريّ، وعودة النوبات الهستيريّة. وبعد أيّام اضطررت للكذب عليها فليسامحني الله، ولتسامحني أمّي. قلت لها إنّه اتّصل وقال إنّه أجّل عودته لظروف

طارئة استدعاها عمله، ولحسن الحظّ أنّها تفهمت. ولم تعد تنتظر عند العتبة باللّهفة ذاتها.

ما زلتُ حتّى السّاعة لم أخبرها بما سمعته عن اختفائه، فأنا نفسي ما أزال لا أصدّق أنّي من قاده إلى حتفه، وأنّ القتلة كانوا يرقبون عودته ليفتكوا به. أشعر بالبرد، ورجفة شديدة تتملّكني تُلجِئني إلى أقرب جدار، وأقرب مقعد لتُبرِكني مهزومة، مفجوعة، شريدة. غطّيني يا أمّي فالبرد يفقدني توازني، ويشظّيني وسط هذا الحقد.

كنت كلّما سألتني عن عودته واريتُ الحقيقة، وكذبتُ لأبقي عليها وعلى أحلامها. والغريب أنّها تصدّقني. وأحيانا أشعر أنّها تعلم عندما أراها مندسّة في فراشها تبكي بقهر، وتشمّ عطرك، وهي تمسك بشيء من ثيابك.

فالحياة برفقة من نحبّ لها طعم مختلف، تعدّل به النّكهات السيّئة وتحدث التّوازن بينها، تحصّنك ضدّ اللّسع والحرق والجروح، ومختلف أشكال السّقوط، وتوقفك على قدميك من جديد. تمنّيت أن يعود إلى بيتنا دفؤه، وترتسم الابتسامة على وجه أمّي ثانية، أن تكون أنت ذاكرتَها، ومن تأخذ بيدها حتّى تعود إلى الحياة التي رفضتها، أن تكون أنت حياتها الباقيّة.

أخبرت صبيحة التي هاتفتها بعد الأسبوع الثاني من غياب أحمد بما وقع، فقدمتْ إلى البيت للاطمئنان عليّ. صبيحة المستمع إلي في كلّ

الأزمات. انزوينا في غرفتي بعد أن سلّمتْ على والدتي واطمأنّت على صحّتها نتبادل شجون الحديث:

- اشتقت إلى حياتنا معا أنا وأخي في كنف أمّي كما كانت قبلا، أمّي بكامل وعيها وذاكرتها، إلى برنسها الدّافئ الذي كان درءا لنا في الصّغر. أمّا اليوم فلا أجدني أنفلت من عاصفة إلاّ لتنشب فيّ أظافرها عاصفة أخرى لتهلكني. أرتعش بردا بعد أن كثرت ثقوب هذا البرنس بفعل عواصف الدّهر...أهذا قضاء اللّه الذي يجب أن أرضى به، أم هي أقدارنا تحوكها يد ظالمة بالبطش ترتزق، وتكسب مغانمها، وبمعاول الخوف تطمر أجمل سنوات العمر؟
- أيمكن أن تعود الحياة إلى هذه الأرض مرّة أخرى، أيمكن أن تطوى صفحة هذا الزّمن الحاقد؟

الشّمس تشرق رغم مشاهد الدمّ، ويتعاقب اللّيل والنّهار، وينزل الغيث، وتنفرج السّحب بعطائها، وتبسم الورود، وتتفتّق أكمام الزّهر، وتُعلّمنا العصافير وهي تطعم صغارها قصص الحبّ والتّضحيّة، حتّى الحشائش رأيتها تنمو على الأضرحة، وتورق شجيرات اليازير وتزهر، وأسفلها رفات تمدّها بالحياة.

لا أدري كم مرّ من أسبوع أو شهر منذ ذلك الحين، وإذا ما انفلتت من عينيّ دمعة بكيت في حجر الخالة زليخة، فقد صرت أبثّها ما كنت أبثّ أمّي التي اختارت النسيان لذاكرتها وتركتني وحيدة، أو اتّصلتُ بصبيحة أنفّس عمّا بداخلي بمحادثتها أو دعوتها للبيت. وإذا ما حلّ

اللّيل أخرجت دفتري وسوّدت بياضه بما يطرد عن عيني النّوم، ولا تقدر جوانحي على كمده.

****

نعيد ما انسلخ من ذواتنا بالكتابة. نرسمها، ننمّقها، ونحتال على لحظات الجمال فيها لنستحضرها في أبهى حلّة. الكتابة إقامة جميلة بين حنايا الحرف لترميم الذّات، وإن كانت احتراقا يبلغ كلّ شريان وجارحة. لا يلجأ إليها إلاّ من احترق بيته، فأقام على حوافي بيوت الآخرين يرمّم انكساراته، ويتّخذ من عالمها راحة بعد أن أدرك استحالة إيجاد بيت يجتمع فيه مع من أحبّ. الكتابة ضِمادة لجرح غائر لمّا ينته نزيفه.

الكتابة حلم يخلو من رصاصة أو سكّين أو قنبلة. الكتابة نثر للياسمين على أرصفة الطّرقات بما غرقت فيه من الدّماء والرّؤوس المقطوعة. غسل للقلوب من أدرانها. وأتذكّر قولك أمّي: اصفحي واتركيهم لحقدهم واحتسبيه عند الله شهيدا، شهيدا للكلمة. ماذا عن أحمد؟ لا ندري إن كان على قيد الحياة أم أنّ أيدي القتلة طالته؟

هو أيضا شهيد، شهيد كلمته الصادقة، شهيد منفاه. والشهداء كثُرٌ في بلدي: شهيد حقله ومحراثه، شهيد خبزه الحافّ، شهيد أداء الخدمة الوطنيّة، شهيد مدرسته، شهيد انتمائه وقناعته، شهيد حياده وانعزاله، شهيدُ ثوبٍ يرتديه، ولونِ حياةٍ يرتئيه ويتّخذه سمتا...

لا أقدر على أن أصفح... ظلمهم وجبروتهم أتى على كلّ من أحبّ، كأنّما يترصّدني في كلّ زاوية ليغتال أمانيّ وفرحتي.

لكنّي لن أستكين، كفاني انطواء، سأفضحهم بالكتابة عن جرائمهم، وعن أحلامي التي سُرقت، وبيتي الذي أُحرق، وكيف أنّهم لفّوا في كلّ مرّة من أحبّ في حقد أكفانهم، وسجّوه بتراب مطامعهم، وذروني لهمّ أقاسيه، ولفقيد مغدور به أبكيه، وحياة مغتصبة أنعاها.

لن أعود إلى البكاء ثانيّة، فهو سبيل المهزومين والمقهورين. سأفضحهم بالكتابة، وإن كان ذلك تلصّصا، وإن اختبأتُ كسلحفاة في قوقعتي، وسيعلو صرير القلم على وقع القنابل وإطلاق الرّصاص، ولا داعي لكلّ هذه الأطنان من الخوف، فإنّي امرؤ سأموت إن لم أُقتلِ.

بعد انقضاء فترة بعد عدم عودة أحمد وانقطاع الاتّصال به خططت في دفتري اعترافاتي المثقلة، والأشواق والأحلام والمخاوف التي دفنت مع أصحابها، وأخي الذي لا أدري إن كان ما يزال على قيد الحياة أم صار قبرا بلا عنوان، حوته أرض الوطن كلُّها وقلوبُ ساكنيه.

صحبتني كلّما عمدت إلى دفتري هفهفةُ رفرفةٍ علتني وأنا تحت سريري متقوقعة. اقشعرت لها نفسي أوّل الأمر، ولكنّي تآلفت معها فيما بعد، وصارت إلى جانبي تنير عتمتي، رفرفة أجنحة المظلومين الذين تناثرت أشلاؤهم في كلّ انفجار، وتقطّعت أحلامهم في كلّ مجزرة، في الطّرقات، وفي القرى النّائيّة، وفي الجحور ...ومن بينهم دنت

منّي جدّتي وخالي وزوجه وأبناؤه الأربع وإلى جانبهم أحمد وياسين من غير أصابع، وكلّموني هامسين:

- لا تتوقّفي عن الكتابة، استمرّي ...

كرّروها ثلاثا...وفي كلّ مرّة تزداد نبرة رجائهم.

قرّرتُ -تحت إصرارهم وقهري- أن أكتب مذكّراتي منذ مقتل ياسين، وما تلاه من خيبات وفجائع وتحوّل أحمد إلى سراب، والذّهول عن الحياة الذي عشته بعدهما. وسأجعل الدّفتر شاهدي على الحكاية... بعدها أخفيه في حشو الوسادة، وأستودعه الله، وأسأله أن يبعثه إن أصابني مكروه، فالموت غدرا هو المشروع المؤكّد في هذه الأرض، لتقرأه الأجيال القادمة ...بعد أن أودعته حياتي وسط الموت والدّمار والخوف، وحبّي الذي لن يتمكّنوا من إخماده حتّى وإن زُهقت روحي، وروح ياسين وأحمد وجدّتي وخالي، فالموت نهاية كلّ من سار على الأرض، أمّا الحبّ فلا نهاية له.

الحبّ يزهر حتّى على القبور، ويرعاه الموتى بأجسادهم النّخرة... يخترق الأزمنة والأمكنة، لأنّنا نحفظه بين زوايا القلب. الحبّ خيط موصول وإن تعثّر أو اِلتوى، وكانت له كبوات، وإن طال أو قصر، وإن رقّ أو ثخن، فاترا أو ملتهبا، إلاّ أنّه لن ينقطع. الحبّ فانوس الحياة، وزوّادة السّائرين، ومتى فقدوه أصابهم الفناء وإن ظلّوا يدبّون على الأرض.

أنا مدينة للكتابة وحدها بتصالحي مع ذاتي والآخرين والاستمرار، في إفراغي لهذا القهر، لعلي يوما أستطيع أن أواصل الحياة... نكتب لرغبتنا في العودة بالذّات إلى الحب حتّى وإن عُطبت، في إذكاء ما بقي في الذاكرة من أشياء جميلة، رغم أنّنا قد نضطرّ إلى البحث في هذه البئر وسط الرماد الذي لا يزال ينام تحته جمر محرق تغذّيه قصاصات الحزن والموت...

سأتّجه اليوم إلى المقبرة بعد فترة من تقوقعي على ذاتي أرعى أمّي المريضة وأنتظر أخي لعلّه يعود، ضاربة كلّ ما تهامس به الجيران من أخبار اقتياده خارج المدينة عرض الحائط، وبعد أن استفرغت على دفتري الكراهيّة التي أشربتها عن آخري، وشعوري القميء بأنّ هذه الأرض لم تعد قادرة على احتضان أبنائها تدفع بهم إلى الموت أو المنفى تحت وقع الرصاص.

أراني بعد أن لفظتني الحياة كسمكة بين حفر تراءت على مدّ البصر مسجّاةً بتراب مبلّل بطهر السّماء. يستطيل جسدي مطمئنا لرجع التّكبير... التّكبير ولا شيء غير التّكبير. البياض يلفّني والفرح يحملني والحبّ يشعل برودتي... أراني وياسين وأخي وأمي ومن سبقنا نعوشا مسجّاة تتراقص قلوبنا صافية بريئة بفرحة اللّقاء في عالم الرّوح وطمأنينةِ البال، فلم يعد في الصّدر ما نخشاه... وإلى من لا يُظلم عنده أحد وجهتنا بعد أن تخلّصنا من ربقة الجسد. لا أضغان ولا أحقاد ولا ظلم، ولن تطالنا تلك الأيدي، ولا مكان للخوف.

السّكينة تضمّني، وفرحة لقاء الأحبّة وانعتاق الرّوح تنتشي لها شراييني بعد أن ضاقت بالسّواد.

الموت ميلادي الوحيد...

الموت بعثي من جديد...

فليهنأ كلّ من سالت من دمه قطرة، ومن عينه دمعة، فلعنة الدّم تلاحقهم، وإنّ غدا لناظره قريب...

****

كانت التّهديدات تصلنا الواحد تلو الآخر، وصار مقرّ الجريدة شبه مقفل.

- علينا أن نفرّ بحياتنا يا مريم كما يفعل الكثير من زملائنا. هل ترافقينني؟
- لم تعد البلد لنا، ولكن عليّ أوّلا أن أقنع أمّي. أمهليني بعض الوقت لأجد عذرا مقنعا في نظرها للسفر.
- لم يعد البقاء ممكنا ووريقات التّهديد كلّ يوم تصل أحدنا. صرنا نختفي وراء اسم مستعار وملاية سوداء ونقاب نرتديه قبل خروجنا من الجريدة.

بعد انقضاء شهرين من هذا الحديث الذي جمعني بصبيحة أنهيت أخيرا إجراءات السفر بعد أن أقنعت أمّي، وغدا موعد إقلاع السفينة.

شعرت بالطوفان يلاحقني ولا عاصم لي منه. ليلة في البحر قضيناها في التّضرّع والمناجاة، بلا جدران أو أسوار مغلقة نرتجف خلفها، رائحة

الحريّة تمتزج برذاذ الموج، الألوان، والأشياء، والأصوات والرّوائح كلّها تختلط في رأسي، كأنّ كلّ الحواس كانت خامدة معطّلة ثمّ فجأة أطلق سراحها. هل سيعمّ الطوفان ويُبعث نسل جديد متحضّر لا يعرف مشاهد الدّم؟

وددت لو انغمست في البحر أغسل ما عكّره سالف الأيّام، وأطهّر الذاكرة من مدينة أحملها بين حقائبي هي الذاكرة المفجوعة، هي نكهة الحليب بين شفتي رضيع لا يعرف من العالم سوى عيني أمّه ودفء صدرها، وإذا به يجد نفسه في طريقه إلى بلد كلّ من فيه غرباء...

سارت بنا سفينة الخلاص للبحث عن عالم جديد بعد أن صار العالم الأوّل دمويا ...وتراءت لي حمامة تحمل غصن زيتون وعلى رجليها آثار تراب.

20- لوحة السّفينة ارتطامات الروح في عباب الحياة. لوحة يصنع أشرعتها الألف واللام، ويقودها تيهك ثمّ تيهي بحثا عن شكل للسّعادة، طلبا لمرفأ آمن أرسو عليه ما بقي لي من عمر في هذه الحياة.

على مفكّرتي ضبطت مواعيدي هذا الأسبوع. الدفتر إيّاه سيشهد أخيرا أيّاما جميلة، ثأرا لك، حياة بألوان زاهيّة. بعد اثنتي عشرة سنة من الغربة أعود إلى مدينتي بالطريقة ذاتها التي غادرتها مرغمة عن طريق البحر، ولكن هذه المرّة وأنا أحمل دعوة.

المدن السّاحليّة لها نكهة خاصة، ورائحة مختلفة مشبعة باليود تعلق بك وبالذّاكرة المثقلة، وتلطم أمواجها طفولتك التي تمرّغت في رملها يوما، ثمّ شاخت فجأة على وقع قتل الأخ لأخيه. أنا معطوبةُ مدينةٍ مثقلة يصفعها البحر، وتنحتها الأيّام والمحن على المقاس الذي يريده الزمن القادم.

المدن الساحليّة مدن جميلة وفاتنة تفتح ذراعيها لتحتضنك وتمتصّ تعبك، وفي انفتاحها هشاشتها تجاه أيّ طارئ من فعل الطبيعة أو أطماع البشر. لذا دخلت فرنسا سنة 1830 من ميناء سيدي فرج، ورغم معركة سطاوالي التي حارب فيها الجزائريون الغزاةَ بشراسة إلاّ أنّ المدينة وقعت تحت أيديهم، فحوّلوا مساجدها في الأيّام الأولى لقدومهم إلى اصطبلات لخيولهم، وفي أحسن الأحوال صارت كنائس

يقيمون فيها صلواتهم، وتقرع فيها أجراسهم، ولم يرحلوا إلاّ بعد مائة واثنين وثلاثين سنة استدمارٍ أتوا فيها على الأخضر واليابس.

أجد إغراء تجاه المدن الساحليّة، وتملك عليّ مدن الماء دهشتي كأسطورة نائمة فوق أرضيّة هشّة. كلّ هذه الحياة والجمال في هذه المدينة! ومدننا مثلنا كئيبة متجهّمة تحت فوهة بركان حقد، ضيّقة مسالكها وباهتة بانكسارات أبنائها، ينتظرك عند كلّ منعطف خنجر وطلقة رصاصة. مرّ ذلك منذ اثنتي عشرة سنة عندما استقبلني فرع مراسلون بلا حدود بلندن بصدر رحب...

- نعود إلى الوطن لنزور قبور موتانا

قالت وهي تنظر في تعب الى نوارس البحر بعد أن لفتت انتباهها وأيقظتها من غفوتها أصواتها وأصوات أبواق البواخر في الفضاء الواسع المشبع برائحة الطحالب.

- أتريدين يا أمّي أن نرسو على المقبرة. أجّلي شوقك، وأتركيه للأحياء، وراعي صحّتك، لن تجدي سوى التّراب ...
- زيارة الموتى محاولة الأحياء لإيجاد دعم ومتنفس عند عزيز غادرنا، وتفريغ لما لقيناه بعده، وشحذ الهمم لمواصلة الدّرب الذي قد يطول...

أعيد توضيب لوازم حقيبة اليد حتّى أتأكّد من وجود الدّعوة قبل أن ننزل من الباخرة. السّفر عن طريق البحر متعة وسحر رغم التّعب والدّوار الذي يتسبب فيه لي، لذا أفضّله على الطّائرة، وأحبّ أن أدخل

الوطن تحت رذاذ الموج، وأشمّ رائحته عبر طحالب الماء، وأنتشي ببرودته شيئا فشيئا أستحضر أياما خلت.

أعادتني الدّعوة في الوطن إلى صالون الرّسم الذي أقامته الجالية العربية من الصحفيين المقيمة بلندن في ذكرى وفاتك العاشرة. مدينة بيضاء، بريئة كطفل مفعم بالحياة أمامه العمر كلّه ليعيشها، هادئة ومغرية بالكتابة...

عرضت فيه اللّوحات التي أهديتني... لكلّ لوحة قصّة، ولكلّ حرف وجع أو أمل في حياة انتهت ببتر: سيّدة الشمع الإنجليزية، كوخ القشّ وشجرة الصّنوبر الطويلة وحروفك الممشوقة المستفزّة، تبارك الله أحسن الخالقين بخطّ النّسخ يلهب البياض المتبقي على تخوم اللّوحة، ولوحة الصّرخة. كنت أعرض مسار حياتنا معا أمام الملإ في تلك اللّوحات وتفاصيل السّنة الأخيرة قبل قتلك. وكانت لوحة الصّرخة مثار انتباه روّاد الصّالون وتساؤلاتهم.

حمل لي المعرض مفاجأة كبيرة لم أتوقّعها، حيث التقيت صبيحة صديقتي التي قدمت عندما سمعت بالمعرض بإِسم ياسين الصحفي الجزائري الرّسّام والخطّاط المغدور به بعد أن وافق تاريخُ المعرض تغطيةً لها هنا في الجوار. هي الآن مراسلة لجريدة فرنسيّة. صبيحة التي انقطعت عنّي أخبارها منذ سنوات بعد سفرها إلى فرنسا للعمل هناك، والالتحاق بمعهد اللوفر بباريس لتكوين الصحفيين المحترفين. شعرت بقلبها يخفق فوق صدري كطير تذكّر جراحه وحنّ إلى وكره.

كانت بصحبة شابّين يافعين أسمرين من طينة البلد، وفي عينيهما حرارة البلد، قدّمتهما لي حينما رأت التّساؤلات على وجهي بعد أن التفت إليهما:

- هذا باسم وهذا ريان. أتذكرين الطّفلين الشّقيّين اللّذين أهديتهما حلوى الكبريس ذاك اليوم والزيقومارو، وتشاجرا لأجلها وشقّ الأكبر رأس الأصغر بسببها وهو يريد الاستحواذ على نصيب أخيه حتّى أخذه والده إلى المستشفى لإخاطة الجرح. بقيا يتذكّرانك بها ويطلبانها حتّى عند كبرهما وزوال أثر الندبة.

- لا تقولي بأنّهما ولداك؟!

أشارت برأسها لتأكّد ذلك في شكل من أشكال الامتنان والشكر بعد ذلك الزمن الصّعب، ثمّ خاطبت ابنها تقدّمني في ابتسامة ملأت وجهها وفاضت بها عيناها:

- هذه صاحبة حلوى الكبريس والزيقومارو، زوجة صاحب المعرض رحمه الله وصديقة قديمة.

ابتسما على استحياء كأنّما يعتذران على شغبهما وطيشهما وقدّما التّحيّة، ثمّ انصرفا إلى الزّاوية الشّمال من المعرض يتفرّسان في لوحة الصّرخة.

- ريان الذي أجريت له عملية استئصال الزّائدة الدّوديّة في ليلة كادت تودي بحياته، تحمّل الألم إلى الصباح حيث كان حظر التجوّل

والخوف من أشباح اللّيل، فلم نستطع مغادرة الفندق الذي كان محروسا آنذاك من رجال الأمن. هي أيّام لا نريد تذكّرها.

- ما شاء الله، لقد صارا رجلين.

- هما الآن يدرسان بالجامعة ... باسم في الأدب الانجليزي وريان في هندسة الطيران.

قالت وهي تراني أنظر إلى صبيّة صغيرة برفقتها تبدو في تخوم العاشرة أو أزيد قليلا:

- هذه سرين التي ولدت ليلة المجزرة التي فتكت بخالك وعائلته، رحمهم الله أتذكرين؟

- تلك أيّام لا يمكن أن تنسى...

أشحْتُ بذاكرتي عنها كمن يرغب في أن يمحو تلافيف رأسه بإسفنجة ولا يستطيع، وقلت:

- لقد صارت عروسا صغيرة.

استذكرت معها السّنوات الماضيّة حتّى وإن لم نتحدّث عنها فقد كانت مرسومة على وجهينا وتنهيداتنا ورعشات الخوف بأعيننا، ومجرّد وقوف صبيحة أمامي اختزل لي ذلك الزمن، سنوات القبض على الجمر. وقفنا طويلا عند لوحات ياسين وعند اللّوحة الأخيرة بالذات... ثمّ ودّعتها على أمل أن لا ينقطع الاتّصال بيننا، وقد حمل لي لقاؤها فرحا كبيرا وشجنا في الآن ذاته منعني من النّوم ساعات اللّيل الأولى على ما جلبه لي المعرض من تعب وإرهاق.

حملتني ملاحظة أحد الزّائرين وأنا أقصّ له حكاية لوحة سيّدة الشمع الإنجليزية على أن أزور متحف مدام توسو بعد نهاية المعرض، حيث ذكّرني فجأة بحلم يتجاوز عمره عقدا من الزمن اختفت بعده أشياء كثيرة كانت تجعلني طفلة على الدّوام. أردت أن أستحضر ذاك اليوم وتلك الطفولة، اللّوحة التي رسمتَها بطلب منّي. أجبتكَ يومها بعد أن سألتني عن منظر بعينه يستهويني وأرغب في الاحتفاظ به في لوحة:

- تدهشني السّيّدة الإنجليزية ماري غروشولتز التي صنعت بالشّمع أميرة بحجمها الحقيقيّ في ثوب زفافها، وبعض المدعوين. ولمّا كان أمر زيارة القصر الانجليزيّ مستحيلا قصصت الحلم وتركت أكمامه، وسأرضى بصورة له أو رسم.

سأحقّق اليوم الحلم ولن أكتفي بالأكمام، وسأحيي اللّوحة الأولى بيننا. هو أشهر متاحف الشمع في العالم. القبّة السّماويّة الخضراء التي تستقبل الزائرين تأخذك عبر الزمن حيث تاريخ لندن ماثل أمامك تحت وقع مؤثرات صوتيّة. يضمّ الكثير من التماثيل والمجسّمات لشخصيات معروفة فنيّة ورياضيّة وسياسيّة. الطابق الأرضي منه خصص للمشاهير من الفنانين، والطابق الثاني ضمّ الشخصيات السياسيّة ونجوم الرّياضة، ذاك هتلر بقبضته الحديديّة التي أدمت العالم... وتلك غرفة الرّعب التي يمنع الأطفال من ارتيادها. تماثيل لمجازر أيّام الثّورة الفرنسيّة.

أتذكّر أوّل لوحة لك، وأوّل تمثال شمعي لتوسو... كان لفولتير سنة 1777. أرى مدام أنا ماريا توسو تبحث بين الجثث عن الرّؤوس المقطوعة لصناعة الأقنعة. توسو هو اسم زوجها ، اسمها الحقيقيّ ميري غروشولتز.. رؤوس مرعبة تصوّر الإعدام أثناء الثورة في فرنسا، فرنسا التي اشتهرت في هذه الفترة بالإعدام بالمقصلة ... أرادت أن تخلّد هؤلاء الموتى. يطاف بالرّؤوس المقطوعة لتبيان انتصار الثّورة الفرنسيّة وسقوط الحكم الملكيّ. فرّت مدام توسو بعدها من حكم الإعدام الموجّه لها إلى لندن.

غرفة الرّعب تروي فظاعات الحرب. أرى أنا ماريا فارّة بهذه الرّؤوس المقطوعة بعد أن ترمى، وهي تخفي لهثها حتّى لا يشعر بها أحد وتلقى مصير هذه الرّؤوس. ألم يكن لها مساعد ومساند؟ تساؤلات تبادرت إلى ذهني. ورغم خوفها إلاّ أنّها تعيد الكرّة كلّ ليلة إعدام متنكّرة تخفي وجهها. أكيد أنّها امرأة قويّة حتّى تملك كلّ هذه الجرأة، بل مجنونة حتّى تتبادر إلى ذهنها مثل هذه الفكرة. وما الفن إلاّ ضرب من الجنون، وفي ممارسته سعادة منقطعة النّظير لا يعرفها إلاّ المجانين. وممّا يجلب الملل في هذه الحياة أن تكون متعقّلا على الدّوام، ففي بعض الجنون حياة، وتفلّتٌ من ضغطها. وأيّ حياة مجنونة اختارتها أنا ماريا لتكون فنانة يذكرها التاريخ؟

يقال إنّها تعلّمت هذا الفنّ من زوجها. ألم تكن تخشى من أطياف تلك الرّؤوس وهي قبالتها بنظراتها الشّزراء لتصنعها بالشّمع؟ تولد

العبقرية من الألم وممتزجة به، وعلى إيقاع الخوف تترعرع، وعلى التّحدّي تقتات.

- اثنتا عشرة سنة يبدو أنّ شيئا لم يتغيّر في المدينة ولا في الوطن...

همست لأمّي بعد أن غادرنا الميناء وبدأنا نغوص في أحيائها عبر سيّارة الأجرة.

تائهة قبل سنوات في عيون المدينة التي تتوسّلني لما كان بيننا أن أبقى، نوارس البحر تئنّ بما تصدره من أصوات، وأمواج البحر ترتطم في غضب، رائحة أعشابه تعلق بي. مدينة مبلّلة الأفق وضبابيّة... المدن السّاحلية مدن تتّشح بذاكرتنا الدّاخليّة والخارجيّة، ومدن تهديك زورق هروب إلى أرض الله الواسعة، زرقة مغرية لا تشبه بحار الدّنيا.

المدن الحقيقيّة هي التي تسكننا لا التي نسكنها، نأخذها أينما حللنا، ومثقلة بمدينتي التي احترقت أبجديتها، في زوّادة النّفس أحملها، وحرائقها بين أضلعي إلى اليوم بعد كلّ هذه السنوات كجمر خامد لا ينطفئ أبدا. مدنهم واسعة وأنيقة، وما فيها من الجمال يوقد فيك إحساسا بإنسانيتك الضائعة، ويذكّرك بأكوام القبح التي صنعها الإنسان ذاته وكدّسها عند كلّ منعطف في الوطن. الشوارع المبلّطة كتحفة بمساحاتها الخضراء والورود الزاهية كقوس قزح دائم يسكن الفؤاد، ولكنّها مع ذلك باردة وفارغة الرّوح، ونظرات المارّين في الطّرقات إلى سحنتي تنغرز في ذاكرتي وهي تصرخ: أنت غريبة. أتراها

حساسيّة الغريب حتّى ولو فُتح لك البلد والدّار والقلب تظلّ غريبا في نفسك وهشّا لا تفارقك المرارة أينما حللتّ؟

انتشلني من هذه الغربة عملي في إذاعة لندن معدّة لبرنامج أسبوعيّ عن الجالية العربيّة في بريطانيا في فرع مراسلون بلا حدود "يا عصفور سلامي إلى الوطن". ولا يمكن أن أنسى دليلة وأخاها الصّغير بصوته الباكي وهي تتحدّث عبر الأثير: أنا دليلة ومعي أخي زياد... نحن بخير طمنونا عليكم.

سمعت في المذياع
رسائل المشردين ... للمشردين
جميعهم بخير
لكني حزين ...
تكاد أن تأكلني الظّنون
لم يحمل المذياع عنكم خبرا ...
ولو حزين
ولو حزين

اشتغلت بعد أربع سنوات من العمل في الإذاعة في برنامج لتغطيّة الحروب الساخنة عبر العالم كفلسطين وأفغانستان وإثيوبيا واليمن. هي قناة تدافع عن حقوق الصحفيين أثناء تغطيتهم للأحداث في هذه الأماكن الملغّمة، وتفضح ما يتعرّضون له من انتهاكات أثناء ممارسة المهنة من إهانة وسجن وقتل.

كنت هناك أستيقظ على الضوضاء النابعة من فليت ستريت، الشارع التاريخي للصحافة اللندنية. يتواجد في الشارع ذاته مطعم للصحفيين، وغير بعيد عنه كنيسة سانت برايد للصحفيين أيضا. تتخذ هذه البلدان أحياء كاملة للحرية وما يلزمها، وتختنق جرائدنا في علب كرتون معبّأ، ويُقتنص صحافيوها كأرانب فور خروجهم المرتبك. ضجيج العمل واقتناص الخبر واشتغالهم كخليّة نحل قبل سنوات في فليت ستريت يخترق أذنيّ، ها هي شاحنات الورق تقف في الشّارع. الرّائحة الحادّة للمطابع والحبر، ورائحة الكرتون المعبّأ في الوطن أشتمها والنّافذة التي أضطرّ إلى أن أسدّها كلّما دخلت الجريدة تحضرني ...

لا أزال أسمع طلقات الرّصاص التي نخرت صدغ ياسين، وصرخاته وهم يقطعون أصابعه، والغرغرة الأخيرة لكثيرين مثله لاقوا المصير ذاته. تخلّصت من قصاصات الجرائد عن زملائي المقتولين وصورهم ومقالاتهم بعد أن احتفظت بها في سنتي الأولى من سفري، إلاّ أنّي لم أستطع أن أتخلّص من ذاكرتي المثقلة، ولاحقتني أينما حللت حتّى بعد أن رأيت جمال الحياة في بلاد الآخرين وصخبها...

وددت لو تأخذنا سيّارة الأجرة عبر أزقّة الوطن. اسمعي يا أمّي مآذن الجامع الكبير يزيّنها التكبير تسرّع خطواتي إلى الشّرفة كما كنت يوما لأتشرّبها. وانظري هذه عرائش الكروم كما كانت قبلا على البيوت والياسمين على عتبات المنازل تفتح لي الأبواب، وتزرع في نفسي يا أمّي

مشاتل لفرح غضّ نديّ. أدخل مدرستي، وأحيي العلم وأصطفّ لأدخل القسم فأكتب بالطباشير وأشكّل عوالم تخصّني بعجينة ملوّنة.

غدا مؤتمر الخطّ العربي الذي دعيت له بعد المعرض الذي قدّمني للصّحافة العالميّة في متحف موسكو. خصّصت طبعته الثانيّة أوائل هذا العام للخطّ العربيّ في مختلف أنحاء العالم. وتوّجت مشاركتي بجائزة أحسن لوحة في حفلة تكريمية بقيت عالقة في ذهني، بعدها دعيت في الوطن إلى هذا المؤتمر الذي سينطلق في الغد وسيدوم يومين.

أردت حينها أن أقتسم فرحتي مع الوطن، ولمّا لم أجده بقربي، وكان البحر حائلا بيننا لم أستطع أن أمسك دموعا كانت للفرح والدّهشة والحسرة والشّوق معا.

كلّ اللّوحات كانت لك، فلم توقيعي في أسفلها ؟!...

لم تكن ترضى إلاّ أن يكون صالون الرّسم مقاما لي وحدي، وتكتفي بالبقاء في المكان ذاته، تراقب طفلة ربّيتها تفتح المحفظة الهزيلة لتعرض في شغف طفولي خربشاتها. وتبتسم ابتسامتك المعهودة التي تمحو خطوطي وألواني...

لم كنت تتسرّب إلى روحي وتقيم فيها بكلّ ذلك الامتداد، لترسم مسار حياتي؟

لم أستطع أن أرسم سوى هاتين اللّوحتين لأهديهما لك كما كنت تهديني: لوحة السفينة، واللّوحة التي ضجّت القاعة بأصوات السائلين عنها والمعجبين بها يومئذ.

- ماذا يعني اسمها؟

كانت أسماء اللّوحات المشاركة قد خُطّت أسفل كلّ منها في لافتة جميلة مذهّبة باللّغات الثلاث الروسيّة والانجليزيّة والعربيّة...

Голова и кончики пальцев
Head and Fingertips
رأس وأنامل

- رأس ضخم صامت بلا ملامح عدا عينين ذاهلتين، وبلا تفاصيل ولا جسد، وأنامل مبتورة على الأرض، وفي الفضاء حروف مقطّعة...

سألتني إحدى المشاركات في المعرض تدعى فاسيلسا:

- What do you mean by Head and fingertips?

- لا يحبّ المبدع أيّا كان مجاله أن يفسّر عمله، التفسير قتل للنصّ. ولكن لا بأس فاللّوحة فعلا تحمل الكثير من الغموض، فهذه الرّأس الضخمة وما يحيط بها من أبجديات غريب ومربك. الرّأس الضخمة هي الثقل الذي حمله الصحفيّ الجزائريّ المغدور به، وغيره من أبناء جلدته، هي انتماؤه وفكره.

هي نسخة من رؤوس كثيرة: أبي الذي قالت أمي إنّه وجد جثّة مقطوعة الرّأس بالمحشوشة بفعل المنظمة السرية الفرنسيّة، وياسين الذي مات بشرخه وقلقه الوجودي بطلقة رصاص اخترقت صدغه الأيمن، فظلّت صرخته حبيسة ورقه وألوانه وحرفه الذي كُتم نفَسُه. وقبلهما كان الرّأس يضمّ ابن مقلة الخطاط العربي، والحلاج والتّوحيدي، شخصيات تعجّل موتها لما حملته في رؤوسها

من ثقل واقعها، وكان همّها -وإن لم يقتل بعضها- نابعا ممّا يسكن هذه الرؤوس.

أهدي هذه الرّأس المثقلة لثلاثة رجال: أبي وياسين وابن مقلة.

- ماذا عن الأنامل الملقاة أرضا والحروف المقطّعة؟

- الأنامل هي صورة الصحفي ياسين المبتورة أصابعه، وابن مقلة الذي قال بحسرة عن يده التي فقدها: "قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللّصوص". لقد ظلم ابن مقلة ظلما شديدا، وفي أواخر أيّامه قطع لسانه وقضى نحبه سجينا. والحروف هي صوته وصوت ياسين وكلّ من ثقلت عليه رأسه، حروف مقطّعة تائهة تتناثر عبر الأزمنة والأمكنة...

تعود أحاديثك إلى نفسي لتندلع بعد هذه السّنوات، حتّى وأنا أحدّث الآخرين الذين يستفزون الذاكرة بأسئلتهم، فتقفز إلى الواجهة. مرّت بذهني القصّة التي رويتها لي عن أستاذك في الخطّ الذي أعجب بعودتك إلى اليد اليمنى وإجادتك بها، وأنت أعسر، وسمّاك يومها "مقلة الجزائر". وأتذكّر سؤالي لك عندما سمعت بكلمة المقلة لأوّل مرّة مستغربة هذا اللّقب:

- أهو من المقلة، فالخطّاطون يأكلون من مهج مقلهم؟

- لا، بل نسبة لأمّه التي كان والدها يلاعبها فيدعوها بمقلة أبيها.

ضحكت يومها للاسم الغريب الذي حفظه له التّاريخ، ولم أدر أنّ اسمك سيرتبط به في ذاكرتي المفجوعة.

لم يسفر تعلّمي للخطّ العربي في قسم المخطوطات الشرقيّة بلندن ونَيلي لشهادتي الماجستير ثمّ الدكتوراه إلاّ عن هاتين اللّوحتين، ووقفت عاجزة أمام حروفك وخطّ النّسخ الذي أسرني. لم أستطع أن أقدّم ما قدّمته يا مقلة الجزائر.

كان للرّأس شيء من القداسة يبثّها بين الزّائرين، وغموض يدفع بهم إلى الاقتراب منّي للاستفسار، وللأنامل المبتورة خوف مسعور ينهش كلّ من تقع عيناه عليها. أنامل نبيّ عزّره قومه، وهو يدعوهم إلى سبيل الرّشاد، ولمّا لم يرتدع ويكفّ نُكّل به أشدّ تنكيل. لوحة رأس وأنامل تشبه المستحيل. لم أستطع أن أتمّها منذ أن تعلّمت الخطّ إلاّ بعد اثني عشر شهرا، وبقيت سنة كاملة قبلها وهي تلتبس عليّ وتقف في الحلق، وعلى رأس الرّيشة والقلم دون أن ترى النّور. ولن أستطيع مقاومة إغرائها لي بالكآبة والحزن. لم أُعِد غيرها، مزّقت الكثير من الأوراق، وظللت مهوسة بها إلى أن أتممتها. يا لوحة مستحيلة سكنتني سنتين كاملتين...

كانت يد ياسين طيلة سنوات إقامتي بلندن تمتدّ إليّ مضرّجة بالدّماء، وتطلب منّي أن أكتب، وأن أرسم عوض أصابعه التي حرم منها، أن أضمّ الحروف إلى بعضها، أن أجعلها قنديلي، أن أكمل

مشواره في بحثه عن شكل للسّعادة... ولكنّي لم أكن أحمل الأهليّة لذلك وأسأل نفسي كيف السّبيل؟

حرفك قنديل يضيء عتمة غربتي، لا تطفئه الرّيح العاتية. شجرة مباركة لا تقتلعها صروف الزّمن، ولكنّي كنت حائرة حول الدّرب الذي يجب أن أسلك حتّى أُتمّ ما بدأتَه... إلى أن سجّلت بقسم المخطوطات الشّرقيّة.

وذات يوم عرضت على أستاذ الفنّ الإسلاميّ لوحاته التي حملتها معي بعد أن غُلّفت ووضعت في علب كرتونيّة حتّى لا تنكسر. كان ياسين يصحبني إلى منفاي، وفي أوراقه وألوانه بعض من رائحة الوطن وهزائمه، رائحة الخوف والخواء والنّكبة التي يذكّيها المنفى، ويغري تذكّرها بالالتفاف حول النّفس كسلحفاة.

قال الأستاذ مايكل يومها – أستاذ الفنّ الإسلاميّ:

- خذي درسك من هذه اللّوحات، فهي زادك، وليس لي ما أعلّمك أكثر ممّا في حروفها، أنا عاجز أمام الحضور الذي تفرضه.

وأتذكّر إمساكك بالقلم لتعلّمني كتابة الحرف، وهو مطواع بين يديك، ناشز حرون في بياض تجربتي، وأنا لاهثة وراءه دون أن أقدر على أن أروّضه.... ولمّا قدّمت لأطروحة الدّكتوراه انتقلت إلى جامع الزّيتونة بتونس لأبحث عن مخطوطة ابن مقلة ليبسط لي قواعد الخطّ، موضوعي الذي أتقدّم به لنيل الشّهادة.

رفع أمين المكتبة رأسه أخيرا بعد أن طال به الزمن وهو يحنيه مقلّبا بين دفتي السّجل بعد أن أخبرته بطلبي. ها هو ينتقل ببصره بين أرقامه وأنا جالسة أرقبه، ثمّ يقول لي وقد زوى ما بين عينيه وحدّق في هيأتي من فوق نظارته السّميكة وسوّى ربطة عنقه بسبب الحرّ الشديد:

- تبحثين عن ابن مقلة الذي يضرب به المثل في حسن الخطّ، لم يبق عمل من أعماله للأسف، كلّها ضاعت، هو من هذّب الحروف وهندس مقاييسها وأبعادها... عدا عمل واحد هو رسالته في علم الخطّ والقلم، وللأسف أيضا هي غير متوفّرة في هذه المكتبة كما يخبرني السّجل.

كنت كظامئ قطع أميالا في فلاة قاصدا منبع ماء، وإذا به يفاجأ بجفافه أو ملوحته فيرجع خائبا. خشيت أن تكون رحلتي إلى الزيتونة من غير طائل، ولكنّي تحاملت على نفسي وغالبت هذا الشّعور، فعدتُ إلى هذه المكتبة ثانية لعلّي أجد شيئا حول المخطوط، كتابات عنه ممّن كان في عصره أو بعده، دون جدوى، لكنّ كتبا حول حياة ابن مقلة الوزير شدّت انتباهي فرُحت ألتهمها وأصوّر بعضا منها.

وبينما أنا في خلوتي مع ألم ابن مقلة قاطعني حارس المكتبة معتذرا لي حيث يجب أن يغلق القاعة. وجدت المكان شاغرا إلاّ من وجهي المشدود بكامل حواسه إلى هذه الكتب، وشغفي الذي لا حدّ له لأعرف نهاية هذا الخطّاط. سألني حارس المكتبة لمّا لاحظ لهجتي

المختلفة عمّا أبحث عنه. أخبرته وأنا لا ألقي بالا له، بل في نفسي شيء من الإنكار، والاستغراب من أن يسألني حارس بناية عن عنوان مخطوط قديم، لكنّي جبرت بخاطره فأجبته كمن يلقي باسم المخطوط في قعر سحيق ولا يلتفت له، ثمّ انصرفت.

وفي اليوم الموالي الذي صادف اليوم الأخير من تواجدي بتونس دلّني هذا الحارس على بضع وريقات بعد أن رأيته يتنقّل بين أرجاء المكتبة كما يتنقّل بين زوايا بيته. استلّها من بين الرّفوف كأنّما يستل قميصا من دولابه، وإذا بها المخطوط الذي يئست من العثور عليه.

كدت أصيح ساعتها والمخطوط بين يديّ:

-يوريكا، يوريكا... وعذرت أرخميدس.

نسخته وخبّأته في بؤبؤ عيني حيث أوراقي الثبوتية وجواز سفري ثمّ خرجت من قاعة النسخ كأنّما حزت حمر النّعم، وإذا بي ألتقي بأمين المكتبة وصورته وهو يجزم لي بعدم وجود هذا الاسم في سجلّه لا تفارقني، ابتسمت وأنا أتساءل ماذا لو لم يسُق لي الله هذا الحارس. ونتأ من هذا السّؤال سؤال أكبر حجز عليّ، وجعلني أفكّر لم وضع الله هذا الحارس في طريقي؟ بل المخطوط بعد أن قنطت من العثور عليه؟

بدأ العمل بعد القراءة على رسم وتجسيد كلّ وصف للحروف قدّمه ابن مقلة، حتّى وافقت الصّورة خصائص الحرف كما رآها. ولمّا شارفتُ على إتمام العمل حلمت بمنادٍ يدعوني: " أي مريم اسمعي وعي قولي ...

الحروف جميعها تنبع من رحم واحد ". كنت كلّما آويت إلى فراشي بعد اشتغالي على ضبط تصوير الحروف ومطابقتها لما جاء في المخطوط من قواعد عاودني المنادي، إلى المرّة الرابعة التي أضاف فيها" الحروف تنبع من شكل هندسيّ واحد". استفقت وأنا أعيد كلامه، ثمّ عدت إلى المخطوط ورسم الحروف أتبيّن الأمر.

تيقّنت بالدّراسة والمعاينة أنّ كلّ الحروف تجمعها وحدة هندسيّة واحدة تقوم على الاتّزان والاعتدال في قوام الحرف، واشتغلت أشهرا على معرفة تلك القوالب الهندسيّة التي من خلالها تعرف شروط القلم الذي يجب استعماله ليُكتب الحرف. وتقدّمت بهذا الفتح لأطروحة الدّكتوراه التي ناقشت ما وضعه الوزير العباسيّ ابن مقلة في القرن الثالث الهجري، وطبقه من بعده تلميذه ابن البواب ثمّ جاب الآفاق.

استحيت من إقبالي على نيل هذه الشهادة من لندن برؤية غربية وإذا بالأقدار تضعني فجأة أمام ذاكرتي، أمام ابن مقلة مرّة أخرى، ويعظم حيائي لمّا أقرأ قول بيكاسو: "أقصى نقطة أريد الوصول إليها في فنّ التّصوير سبقني إليها الخطّ العربيّ".

- الخطّ العربيّ عمارة الرّوح، والحروف خلق بديع من أصل واحد لذا اصطفاه اللّه من بين بقيّة الخطوط ليكون حامل معجزته.

قلت في كلمتي التّمهيديّة أثناء المناقشة... وعلّقت اللّجنة يومها على لسان الأستاذ مايكل الذي ترأّس قسم المخطوطات الشرقيّة طيلة خمسة عشرة سنة:

- الآن فهمت قول أبي حيّان التّوحيديّ عن ابن مقلة: "هذا نبيّ فيه، أفرغ الخطّ بيده كما أوحى إلى النّحل بتسديس بيوته"

تساءلت بعد أن انفضّت المناقشة أي إصرار امتلكه ابن مقلة ليصل إلى هذا الفتح رغم ما تعرّض له، ولمَ ارتبط الجمال والحرف الوضّاء الذي لا ينقطع بدروب الألم ومفازاته؟

أردت أن أكون أهلا لنيل الحروف وأسرارها، وبعد هذه السّنوات عدت مرّة أخرى إلى حرفك الذي أنار عتمة غربتي، فرسمت لوحتَي السفينة والرّأس والأنامل اللّتين شاركت بهما في المعرض.

أمواج من الزوّار بمختلف الأعمار والألوان والأجناس تفد إلى المتحف، وتغطيات بأطياف متعدّدة للصحافة الرّوسيّة والعالميّة.

- كيف اتّجهتِ إلى الخطّ ووفّقت بينه وبين عملك الصحفيّ؟

فاجأتني إحدى العارضات بلكنة جميلة تمتزج فيها العربيّة بالرّوسيّة، ثمّ قدّمت نفسها لي واعتذرت على هذا الاقتحام المفاجئ:

- أنا أناتولي، أقيم بموسكو. أوّل ما تعلّمت الخطّ عن جدّتي في قرية تتاريا... ودرست الفسيفساء وفن الإيبرو.

سميتُ لوحتي "رائحة الخوف" مزجت فيها بين فنّي الكتابة على الماء التركيّ المولد والفسيفساء. صمّمتها برصّ الأحجار الطبيعيّة السّوداء وتزيينها بالقرميد الذّهبيّ. أنجزتها في عيد النّصر على النّازيّة.

أنا متفرّغة للرّسم والخطّ، أمّا أنت فعلمت أنّك صحفيّة، كيف اتّجهت إلى هذا الفنّ؟

- الحروف عالم شغلني منذ أيامي الأولى بالمدرسة، كنت أتحدّث إليها وأتخيّلها كائنات يستفزني صمتها. خمد هذا العالم الصاخب في نفسي أمام مشاغل الحياة وأولوياتها إلى أن التقيت بياسين. لوحاته وهو الخطاط والصحفيّ هي السبب في أن أحيا هذا العالم في نفسي، فاتّجهت إلى هذا المضمار بعد أن قتل بسبب كلمته. أردت أن أتوغّل بداخله، وأن أنصفه بعد وفاته، وأن أعتذر له لأنّي لم أفهمه كما يجب.... فنحن لا نعرف قيمة الأشخاص إلاّ بعد مغادرتهم لنا دون رجعة. ولعلّي أردت أن أحيي ما أحبّه ... فكأنّما أحييته.

لوحة رأس وأنامل بدأت حلما... فقد جاءني رجل معمّم أخافني لمّا اقترب منّي وأشار بيده اليمنى المبتورة وهو يربط البوصة على معصمه "أهذه اليدّ التي تقطع كما تقطع أيدي اللّصوص؟" بعدها قرّرت أن أنصفه وأنصف ياسين بلوحة الرّأس والأنامل، وحينما شرعت فيها استطعت أن أنام بسلام، ولم يعد إلى زيارتي طيفه.

- يوري روسي من سان بطرسبرغ درس التّصميم، ويشتغل مصمّما للعلامات التّجارية. هو الآن يعلّم الخطّ العربيّ في روسيا.

قالت أناتولي وهي تقدّمه لي بلكنتها الجميلة:

- مشاركته فيها إبداع وخرق، طاقم شاي من السيراميك الأبيض. يد كلّ فنجان من فناجينه حرف أنيق مذهّب من الحروف العربيّة بنظام ترتيب يشكّل كلمة ترحيبيّة بالحاضرين.

قالت المترجمة:

- ديميتري من صربيا اهتم بالشّرق منذ طفولته، تعلّم الخطّ اليابانيّ ثمّ الخطّ العربيّ وأعجب به وتخصّص فيه.
- تجذبني الثّقافة الشّرقيّة لروحانيتها.

قالت المترجمة نائلة التي كانت تنقل لي كلام المشاركين وتعليقات الزوّار وتساؤلاتهم: وهو الآن يقيم دورات تدريبيّة تعليميّة لروسيين ومختلف الجنسيات خاصّة من الصينيين واليابانيين الذين يلاحظ إقبالهم على هذا الفنّ.

تحت لوحته لافتة كتب عليها كما قدّمتها لي المترجمة "السياج الفاصل" بين البوسنة والهرسك، وعلى الضفتين أطفال يتحدّثون إلى بعضهم رغم الفاصل، ومن بينهم طفل يقتسم قطعة خبز مع آخر من الضفّة الأخرى.

- خطّاط آخر التقيت به في المعرض يمزج خصوصيّة الأرض المصريّة بحكاياته عنها، الحشائش والنّباتات، الطين والحصى، وحتّى الألوان يصنعها بنفسه من طحن الأحجار وبعض النباتات كعرق السوس.
- جهد لوحة قد يستغرق أشهرا.
- أنا من تلاميذ الرّسام الخطّاط البور سعيدي الذي كان يخطّ رفضه للاحتلال البريطاني على مصر على جدران المنازل والأبنية والطرقات. افتك بجدارة جائزة الصّين في الفنّ الإسلاميّ قبل أربع سنوات.

بعد أن عدت إلى الوطن، وبعد ما تحدثتْ عنه الصّحافة المحليّة الرّوسيّة والبريطانيّة والعالميّة المكتوبة والمسموعة عن معرض الخط،

وما كشفته أطروحتي في الدكتوراه وما نتج عنها من ندوات. بعدها دعيت في الوطن للمشاركة في مؤتمر للخطّ العربيّ تبعه معرض دوليّ دُعيَت إليه هامات عربيّة وعالميّة من العراق ومصر وتركيا وروسيا ولندن... وكانت ضيفة الشرف لوحات محمّد راسم. ووقفت متأمّلة لوحة الأمير الموشّحة بفن المنمنمات.

أُجريت على هامش المعرض دورات تدريبيّة لمحبي هذا الفنّ. وطالب المشاركون في ختام أعماله بفتح تخصّص مستقلّ للخطّ العربي في معهد الفنون الجميلة، ونوّهوا بجمال فنّ التّشكيل الحرفيّ الذي يجب أن يُدرّس كفرع من فروعه.

في الوطن لا يعترف بك إلاّ عندما تتبنّاك البلدان الأخرى وتشتهر ويقطف ثمارك الآخرون، فلا نبيّ في قومه، حينها فقط يتذكّر الوطن أنّك من طينته، وأنّك خرجت من رحمه، وأنّه أحقّ بك بعد أن لفظك يوما كبعير أجرب. لذا أقيمت ندوة تكريميّة احتفاء بي بعد نيلي جائزة أحسن لوحة، وجائزة حرية الصحافة الدولية من "مراسلون بلا حدود" في موسكو تشجيعا لجهودي في الدّفاع كصحفيّة عمّا لقيه ياسين بسبب كلمته، وفي إعادة الحياة للوحاته، وفي دفاعي عن كثير من القضايا العادلة في العالم في مناطق الحرب، وتقديرا لشجاعتي في إبراز ما ينتهك في حقّ المشتغلين في هذه المهنة المتعبة، وفي استخدام طرق سلميّة كالرّسم والخطّ والكتابة وسائل للتّعبير عن نكبة الوطن، أقوى من الرّصاص والقنابل...

- لم كتب على الجمال أن يحوي في جوهره الألم والفقدان، وهو صوت الرّافضين وصرخات المضطهدين. رجل سكنه الحرف فمات كمدا. صدق بيكاسو حينما قال: "الفنّ هو الابن الشّرعيّ للحزن".

لوحة السّفينة ارتطامات الروح في عباب الحياة. لوحة يصنع أشرعتها الألف واللام، ويقودها تيهك ثمّ تيهي بحثا عن شكل للسّعادة، طلبا لمرفأ آمن أرسو عليه ما بقي لي من عمر في هذه الحياة.

وقف عندها طويلا أحد الزائرين -رغم أنها لم تلق ما لقيته لوحة الرّأس والأنامل- ولمّا رأيته برفقة رجلين عريضي المناكب سألت أناتولي عمّن يكون، فقدّمته لي بصوت مهموس:

- أحد مثقفي روسيا من الأسرة المالكة، له اهتمام بما تعرضه متاحف موسكو.

قال عنها: "أنا لم أر عملا أسرى بي كما أسرى بي هذا العمل، وأنا لا أعرف حرفا من العربيّة".

أوصلتنا سيارة الأجرة في الوطن إلى غاية العمارة التي كنّا نسكن بها. لم يتغيّر شيء... المدينة الشاحبة المنهكة التي خرجت من نفق مظلم، والأحياء التّي سالت على أرصفتها الدّماء وشهدت بكاء الأطفال والأرامل والثّكالى... والسلّم الذي طالما صعدته وأنا ألتفت خلفي مرتجفة.

دخلت بيتنا القديم ثمّ غادرته للتوّ بعد دقائق وأنا أربت على كتف أمّي الباكية. لا أقوى على المبيت فيه حتّى بعد هذه السنوات، وأتّجه إلى الفندق الذي حجز لنا في المؤتمر.

21- فتحت العلبة أتصفّح حياتنا بينها، شيء من الرّسالة الأولى، وشيء من الرّسالة الأخيرة، وبينهما عمر لاهث وراء سراب. تواريخ مختلفة أسفل كلّ رسالة، محطات ذابلة شريدة تبحث عن ردّك، ورأيك فيما يحدث، عن أذن تصغي لهزائمها، تبحث عن سند من كلمات تحملها رسائلك.

مررنا في غدوّنا إلى بيتنا القديم بالمحل الذي اكتراه أحمد قبل سنوات. ازدحام السير اضطر السائق لأن يتوقّف قليلا عند رأس الشّارع، ومكّنني من أن أسترق النّظر إلى المحل وأنا أخشى أن تنتبه أمّي له. حوّل إلى مطعم فاخر للأطباق التّقليديّة. تأمّلته بحسرة، ولحسن الحظّ أنّ الطريق انفرج في ظرف وجيز فانطلقت السيارة كالبرق.

أمرٌ ما كان يجعلني يومها أستحضر أخي أحمد -تماما كما أستحضره الآن- وأنا أعبر شوارع مدريد، وأنزل من مترو أتوشا رينفي وأتّجه إلى النّاحيّة الجنوبيّة حيث المثلث الذّهبيّ للفنون. أشعر بحنين غريب وشيء من الألفة مع المكان وإن كنت أعبره للمرّة الأولى، ألأنّ أخي كان يوما هنا. أتراه مرّ من هذه الشّوارع؟ شيء ما بداخلي يقول لي إنّه لا زال على قيد الحياة.

لا أدري إن كان قد قتل على يد مصاصي الدّماء الذين لا أعرف كيف علموا بمجيئه. قالت لبنى بنت الخالة زليخة إنّها رأته في المطار

في التّاريخ المحدّد لعودته، حيث كانت مسافرة مع زوجها الذي عرضت عليه فرصة للعمل في الخليج.

- رأيته على بعد أمتار، إنّه هو بالتّأكيد وليس شخصا يشبهه. نفس طوله وعرضه ولون شعره، ولباسه الرياضيّ كما اعتدناه في الحيّ. لا أظنّه مجرّد شخص يشبهه. لم أره منذ سنوات ولكن لا يمكن أن أخطئه، أو أنسى وجهه.

لعلّ أبا مصعب أمير تلك الجماعة رآه يومها فاختفى عن الأنظار ولم يعد إلى البيت، أو لعلّه شبّه لها، يخلق من الشّبه أربعين. لماذا لم يتّصل إن كان بخير ولا زال حيّا ليطمئننا، لعلّه كان مراقبا؟ خفت حينها إن أعلمت الشّرطة أن يعلم أبو مصعب بوجوده في الجزائر ويصيبه مكروه، وهل من مكروه آخر أكثر من اختفائه؟ كنت يومها آمل أن يعود، وخشيت عليه من القتل، واعتقدت أنّي أخطأت في اليوم ثمّ الأسبوع ثمّ الشهر؟ ورحت أجد تبريرات أخرى لعدم مجيئه واتّصاله غير أنّ هناك من علم بعودته فتربّص به وقتله.

وقال جار لنا كان مقيما في إسبانيا إنّه رآه في حيّ من الأحياء التي يرتادها العرب في مدريد. ولا يذكر متى كان ذلك، أَبَعد الأسبوع الذي قال لي إنّه سيقدم فيه أم قبله؟ لم أعد أدري أيّ أسبوع اختلطت عليّ الأسابيع، أم تراه قتل مع من قتل من المغضوب عليهم ذلك اليوم الذي صادف عودته ورميت جثّته.

لم يعد أمام هذه الأقوال المتضاربة من يقين في حياتي غير الشكّ والريبة والخيانة والخوف. عدم رؤيتي للجثّة وعدم دفنه في قبر يحويه حتّى بعد مرور كلّ هذه السنوات يعمّق شعوري بأنّه حيّ في بقعة ما من بقع هذه الأرض، في مطعم من مطاعمها، أو مخزن من مخازنها ينقل السّلع.

ما الذي جعل أخي يطفو على سطح الذّكريات الآن بهذه الحدّة بعد كلّ هذه السنوات، أتراها المطاعم الشهيّة التي تتناثر في هذه المدينة الواسعة بفرش طاولاتها الحمراء عند مداخلها وعتباتها، والوجوه العربيّة والمغاربيّة التي تشتغل بها وتذكّرني به، وتقتنص الزّائر العربيّ بلهجتها الجميلة التي ما زالت تحتفظ بها طيلة سنوات غربتها، وتجذبه من بين بقيّة الزّوار لتعرض عليه خدماتها ووجباتها. أم تراه موسم مصارعة الثيران الذي بدأ منذ شهر مارس، وسيستمرّ أشهرا أخرى تعلن عنه اللّوحات الإشهارية في حلبة لاس فينتاس التي طالما حدّثني أخي عنها.

كان يمقتها لصور الدمّ النّازف من الثور والمصارع، ويستغرب ذلك المنطق في التسليّة الذي يجعل إنسانا يتحدّى ثورا وينازله بقطعة قماش أحمر، وقبل أن يشارف على الهلاك يذبح ويوزّع لحمه بيعا على الحاضرين؟ إنّه على كلّ حال تقليد سنويّ قديم في إسبانيا له مؤيّدوه ومعارضوه.

أم تراها ذاكرة إسبانيا في حربها قبل أربعينيات هذا القرن التي تذكّرني بحربنا مع الأحقاد والأطماع والأيدي الطويلة القذرة التي

اتّسخت بدماء الأبرياء؟ أم تراها مشاهد الفاشيين التي لم يستطع همنغواي أن يغيّبها من رأسه وهم يحملون مدقّات الحنطة، ويجتمعون بعد الانتصار أمام قاعة الأسرى والمحتجزين، ينادونهم واحدا واحدا، ثمّ يجتمعون حول الأسير منهم ويضربونه جميعا ضربة رجل واحد بمدقّاتهم على رأسه، ثمّ يقذفونه في النّهر، وقد سالت دماؤه على ملابسهم. وقد يمضي الواحد منهم إلى الجثّة فيصبّ من زجاجة الخمر على رأسه وملابسه، ثمّ يضرم فيه النّار بعيدان ثقابه التي يشعل بها سيجارته؟

تتراءى لي صورة الطفلتين المختبئتين في المجاري لا يظهر منهما إلاّ قسمهما الأعلى، وعيناهما إلى السماء أثناء قصف فرانكو لمدريد. أهو حقد الإنسان ذاته ودمويّته في كلّ مكان يحضرني ورائحة الموت، وصوت الخوف من هذا الزّمن الذي إن برئت منه إسبانيا، فلا يزال جرحا ينزف في الوطن، ولا تزال حرائق المداشر ناشبة في قلوب الأمّهات والثكالى.

أتراها قد برئت إسبانيا كليّا من ذاكرتها بعد كلّ هذه السنوات، ومن آثار الحرب الأهليّة التي قسمت البلاد إلى شطرين؟ وكم تحتاج جراح الإخوة من سنوات لتلتئم؟ الذكرى الرابعة والسّتين لقصف جرينكا تطفو على وجوه أهلها وهم يترحّمون على الضحايا، ويضعون الزّهور على النّصب التّذكاريّ من الحجر الأسود للرّجل المقطّع اليدين والقدمين إلى السّاق وصاحب العينين الغائرتين في جمجمة مخيفة. وآخرون يزورون وادي الشهداء VALLE DE LOS

CAIDO الذي بناه فرانكو تكريما لمن سقطوا من مناصريه، ولأجل هذه الذكرى قدمت إلى مدريد لإعداد ملف عن حرية التّعبير وأشكاله في هذه الحرب، صحافةً وفنّا.

يتراءى لي في كلية مدريد للفلسفة والأدب من بعض فجوات في نافذة المكتبة الشّاعر جون كونفورد مختبئا مع كثير من الكتّاب المتطوّعين. وبين الحين والآخر يطلقون النّار، وهم يسدّون النّافذة بمؤلفات الفلسفة الألمانيّة. ولمّا يعمّ الصمت في الخارج ويتوقّف إطلاق الرصاص يلتفتون إلى المكتبة لينتقوا من بين رفوفها مؤلفات عن الحرية والعالم الجديد وإنسان ما بعد الحرب، يتصفّحونها قبل استئناف المعارك، وينتشون في فترات الاستراحة بقصائد كولردج وورد زوورث، هم من سمّوا أنفسهم "مجموعة أنا إسبانيا".

يقف كونفورد إلى جانب جورج أورويل، وهمنغواي في نقاش حاد في شأن الحرب والحلفاء والنازية والفاشية اللّتين جلبتا هذه الحروب وتسبّبتا فيها. وذات يوم حدث انفجار رهيب أحدث ثقبا بثلاثة أقدام في الجدار. أصيب فيه كونفورد بجراح بالغة في رأسه ونقل إلى المستشفى، ولكنّه لم ينقطع عن الكتابة وتسجيل ما اكتشفه من عدم وجود حرب نظيفة:

- الحروب كلّها غير مقبولة، حتّى الحرب الثّورية هي قبيحة تماما.

كان ما يزال يملك بعض القوّة ليكتب هذه العبارات، وبعد شهر قتل في المعركة.

متحف البرادو بمدريد شهد اليوم وجوها مختلفة من الإسبانيين وغيرهم لتذكّر بشاعة القصف بعد أكثر من ستين سنة وهم يتأمّلون لوحة "جرينكا" لبيكاسو، الجدارية التي خلّدت القصف، وعاشت مغتربة كصاحبها متنقلة من متحف باريس إلى لندن إلى نيويورك. لن تدخل اللّوحة إسبانيا مادام حكم فرانكو قائما، هكذا أوصى بيكاسو ورثته.

وفي صبيحة 1981 هبطت طائرة أمريكية أرض مطار مدريد حاملة اللّوحة بعد أن استضافتها أربعين سنة، روح بيكاسو تحلّ بموطنها الأمّ بعد نفي طويل. استقبل اللّوحة حرس شرف رسمي تماما كالعظماء، فرش البساط الأحمر، وأطلقت إحدى وعشرين طلقة من المدفعية فرحا بعودتها بعد رحلة الاغتراب.

يحتفل متحف البرادو بعودة لوحة بيكاسو الأشهر منذ تلك السنة، وبقربها قصيدة "جرنيكا" لبول إيلوار. اشتريت صورا مختلفة للّوحة عرضت على باب المتحف في هذه الذكرى، وتجسيما صغيرا لجرنيكا القرية التي دمرت عن آخرها بالقنابل سنة 1936. ألفان من المدنيين. أهناك من بقي من الأهالي ليحصي القتلى في الوطن، هل لهم القوّة والجرأة لعدّهم وإحصاء الخسائر؟

فظائع القصف في لوحة وقصيدة. بيكاسو الذي قال:" نعرف جميعا أن الفنّ ليس الحقيقة، هو كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة". هو من عاش معظم حياته في فرنسا، ولم ير القرية مطلقا ولم يزرها. ولكنّه كان صوتها ولونها وجرحها بالأبيض والأسود يعبر عنها بلوحة

يشارك بها في الجناح الإسباني في معرض باريس الدّولي. اشتغل عليها محموما دون استراحة خمسة وثلاثين يوما لينهيها قبل الافتتاح.

بيكاسو الذي قال "إنّ الفنّ يمسح عن الرّوح غبار الحياة اليوميّة"، ماذا إذا ما تركت الحياة على الرّوح دما وزرعت أحقادا وهزائم، أتراه يقدر الفن على أن يمسحها ليبسطها على بياض الورقة، ثمّ ينصرف المبدع بعدها ولا غبار عليه صفحة بيضاء كيوم ولدته أمّه، لينشغل بعد ذلك بالكشف عن خبايا هذه الروح؟

أجوب المتحفين المتبقيين اللّذين لا يبعدان عن بعضهما البعض إلاّ أمتارا سيرا على الأقدام ضمن مثلث الفنّ. متحف رينا صوفيا، ومتحف تايسن بور نيميسيزا جولة من العصور الوسطى إلى خمس مائة سنة الماضية. لا أدري لم يحتفي الجمال والفنّ في هذه البلدان بالتاريخ، أو لعلّه التاريخ يصطبغ بهما ليُنكِّه جفافه بطعم إنسانيّ، أو لعلّهما لا يكونان إلاّ معا إذا ما أريد لكلّ منهما أن يكون خالدا؟

أعود بمترو الأنفاق بعد أن آخذ التّذكرة وأجلس في مكاني أرقب الحركة والهدوء، ويحضرني المشروع اليتيم الذي تعسّرت ولادته مترو الجزائر. وأتساءل ماذا حلّ به، ومتى يرى هذا المشروع النّور، وهل سيكتب لأبنائه أن يروه إنجازا على قدميه؟

لا أدري لم يحضرني أحمد بكلّ هذه الحدّة في هذه الأمكنة، وإن لم أنسه مطلقا، كنت أنتظره في كلّ معرض أقيمه، وعند كلّ تغطيّة إعلاميّة، ويظهر لي وجهه في كلّ مدينة أدخلها في المنفى؟

إحساس غريب يقول لي إنّه لا زال حيّا، وهو يغدو ويروح، ويعمل ويضحك كعادته، وينام ويصبح في مكان ما من هذه الأرض. لاأزال أحتفظ بعنوان إقامته في مدريد الذي قدّمه لي بطلب منّي في مكالمته الأخيرة قبل الاختفاء، والذي بعثت إليه رسائلي التي كنت أكتبها له مرّة في الشهر. وفي السّنة الأخيرة بعد أن أتممت السّتين رسالة توقفت عن الكتابة لمّا لم أتلق ردّا منه. شيء ما بداخلي، لعلّه جنونيّ، يقول لي إنّه هنا في مكان قريب، وعليك أن تبحثي عنه في هذه الأيام القليلة التي أقيمها في هذه المدينة.

اتّجهت إلى مكتب الهجرة الدّولي ...كان المكان مكتظا بالجاليّة العربيّة بمختلف الجنسيات. ووُجّهت إلى فرع للمهاجرين الجزائريين حيث تعرّفت إلى موظّفة بدت لي نظراتها مألوفة وابتسامتها غير غريبة عنّي، كأنّي التقيت بها قبلا. وبعد أن علمتْ أنّي صحفية لـ"مراسلون بلا حدود" أخبرتني أنّها كانت تشتغل بجريدة الشّعب، حينها تأكّد لي أنّي فعلا قد رأيتها بحكم النّشاط المشترك، وتواجدنا في الأماكن نفسها التي تفرضها تغطية الحدث. صحفيّة من جريدة وطنية فرّت هي الأخرى بعد التّهديد الذي تعرّضت له ككثير من الصّحفيين.

- أنا كذلك كنت على رأس القسم الاجتماعيّ في جريدة الحقيقة.

- الجريدة التي قتل فيها ذاك الصحفي وقطعت أصابعه وألقي بين أكياس القمامة.

هززت رأسي بالإيجاب:

- كنّا نحضّر لعرسنا في تلك السّنة.

- أنت إذن خطيبته!

- بل زوجه...

أعربت عن أسفها لما حدث، وأبدت تفهّما وتعاونا بعد أن شرحت لها سبب الزّيارة. فتحت لي سجلاّ كبيرا بعد أن سألتني إن كان أخي يحمل شهادة جامعيّة، وهل هاجر هجرة سريّة أم رسمية.

- لكلّ فئة قسم من السّجل. وفي المكتب جمعية إدماج المهاجرين حسب مؤهّلاتهم. في أيّ سنة قدم إلى إسبانيا؟

- سنة 93.

لم أرد أن أخبرها بتفاصيل اتّصاله الأخير وتاريخ عودته المفترض، وأنّه اختفى بعدها وانقطعت أخباره حتّى تتعاون معي وتبحث في السّجل.

- ازدادت الهجرة السّريّة منذ أحداث 1988. موجة كبيرة من الحرّاقة إضافة إلى المهاجرين الشرعيين.

- سُجّل دخوله إسبانيا في ماي سنة 93.

وأكدت لي محل الإقامة الذي بحوزتي ولا شيء غير ذلك، ثمّ عرّفتني على مرشدة سياحيّة في هذا الفرع تتقن الإسبانية.

- هي كذلك قدمت في أوجّ الأزمة.

- ليس لديّ سوى يومين ثمّ أسافر...

- سأرافقك من الغد إن أردت.

دفعت للمكتب مستلزمات هذه الخدمة مسبقا، وأخذت رقم هاتفها، لنبقى على تواصل...

صباحات مدريد ضبابيّة ... أرقبها من ستارة الفندق قبل أن تبدأ الحركة بالخارج، وأراها تنام على ضفاف نهر مانزاناريس Manzanares في هدوئها بعد ليال صاخبة تقضيها مبتهجة مع أهلها وزائريها من مختلف بقاع العالم. أتذكّر النوافذ الموصدة والبطانية التي كنت أضعها حائلا حتى تكتم صوت الرصاص دون جدوى. الأحياء الشعبيّة الصاخبة هنا في مدريد ليلة أمس، وأنا أرقبها من الشرفة حتّى وقت متأخّر، جمعت أغراضها وأقفلت نوافذها وأغمضت عينيها، تواكب حركة السيّاح الذين أنهكهم السّفر وجمال المدينة ورحابتها وكلّ ذاك القدر من الحياة فيها. تضبط مواعيد نومها واستيقاظها على أجندة هؤلاء الغرباء الذي يصنعون رزقها.

غادرت غرفتي في الفندق بعد أن هاتفتني المرشدة السّياحيّة لتخبرني أنّها تنتظرني في قاعة الاستقبال... كانت ابتسامتها تحمل شيئا ما لم أعرفه، وجلوسها الجانبي على الأريكة الفاخرة ذكّرني بابتسامة جوكوندو في لوحة الموناليزا. لم أستطع أن أعرف وجه الشّبه بينهما، وما الذي ذكّرني فيها باللّوحة. بادرتني بالتّحيّة الإسبانيّة:

- Buenos Dias، عليك أن تتعلّمي شيئا من الإسبانية ... لم أقدم لك نفسي البارحة: أنا نادية.

- ناديني مريم ... أنت تجيدين الإسبانيّة، أتعلمتها هنا في مدريد؟

- أنا أستاذة إسبانيّة في الأصل، والإرشاد السياحيّ دبلوم تحصّلت عليه هنا حديثا. فررت من الإرهاب بعد حادثة رهيبة فتكت بزميلاتي في المدرسة. طالما هُدّدنا نحن الأستاذات بالقتل إذا لم نتوقّف عن العمل. كنت معيلة أسرتي، وأبي لم يكن له دخل حكوميّ بل كان يشتغل في مهن حرّة مختلفة كالبناء وصيانة الأجهزة. ومع كبر سنّه وظروف المحنة اكتفى بفلاحة قطعة أرض خلف بيتنا يغرسها بصلا وبطاطا وبقيّة خضراوات الموسم.

لم أستطع العودة إلى تلك الثّانويّة بعد أن ذبحت إحدى عشر معلّمة ومعلّما كانوا في الحافلة في طريقهم إلى العمل في حاجز مزيّف. قضت الحواجز المزيّفة في سيدي بلعباس على الكثير من الأبرياء، وتُرك السّائق ليروي الحادثة وينشر الرّعب بين النّاس.

أخذ القتلة ما كنّ يرتدين من عقود ذهبيّة وخواتم، وما كنّ يحملن في حقائب أيديهنّ من أموال، ومزّقوا الكتب والكراريس، وتركوا دماءهنّ تسيل على قارعة الطريق. من حسن حظّي أو سوئه، لا أدري، أن كنت مريضة يومها فلزمت الفراش. بعد الحادث قال لي أبي عليك أن تغادري إن أردت أن تبقي حيّة وسنتدبّر أمرنا. لم أستطع أن أتركه بمفرده أمام صعوبة الحياة، ولكنّه كان يصرّ على خروجي ويقنعني بقوله:

- ألّي خلق ما يضيّع...

أوقفتْ حديثها فجأة مشيرة إلى باب المترو:

- هذا هو العنوان الذي تبحثين عنه...

نزلنا في المحطّة التي تقرب من العنوان المدوّن في الورقة، أحتفظ به منذ أن قدّمه لي ككنز مكنون. صعدنا إلى الشقّة التي اكتراها مع أربعة أشخاص من مهاجرين من مختلف البلدان العربيّة. طرقت الباب فلم يفتح لي أحد. انتظرنا بضع دقائق ثمّ انصرفنا وعدنا مرّة أخرى في المساء بعد أن تجوّلنا في الأزقّة المجاورة نسأل أصحاب المطاعم ودكاكين الفاكهة.

ونحن نجوب الشّوارع عاودني كلام أحمد كومضة خاطفة في اتصال من اتّصالاته:

- كنت أُرمى في المطبخ لأنّي لم أكن أحسن اللّغة... بعض الأعمال التي نقدم عليها على بساطتها قد تغيّر منحى حياتنا، وخطوة واحدة في الطريق الصّحيح تقرّبنا من هدفنا وتصنع الفارق. هذا ما حصل لي بعد أن سجّلت في الدّروس المسائيّة، وصرت أجيد الإسبانيّة بعد فترة وجيزة، حيث انتقل عملي إلى التّعامل مع الزّبائن. ولمّا لاحظ ربّ المطعم قدرتي التي لا حدود لها على جذبهم أوكل إليّ إدارة محل كبير للفواكه في الجوار.

كنت أملك عقل تاجر أينما ذهبت، وشعرت بحسرة شديدة أوّل يوم لي فيه على المحل الذي فتحته أوّل عهدي بالتّجارة بكدّ أمي، المحل الذي جعلني سيّد نفسي، وبأرباحه القليلة اشتريت شاحنة صغيرة وشعرت شيئا فشيئا أنّي رجل البيت الذي تستطيع أمّي أن تعتمد عليه، وفجأة انهار كلّ شيء بسبب الأزمة. ولكنّي قلت في قرارة نفسي عليّ طرد هذه الهواجس، فيمكنني أن أبدأ من جديد،

لم يفت الأوان، وقد أصنع هنا ما لم أصنعه ببلدي...إلى أن اشتغلت بأكبر شارع في مدريد. هكذا يسمّى الشّارع الكبير.

- لم أعد أذكر اسمه الذي ذكره لي بالإسبانية.

- الشارع الكبير... أكيد أنّه يقصد شارع غران فيا Gran Via.

قصدنا هذا الشّارع، وكانت المطاعم ومحلات الفاكهة هي وجهتنا. دخلنا أكثر من مطعم وأنا أحمل صورته، ونادية تسأل بالإسبانيّة التي كانت تتحدّثها بسلاسة، ولكن لم يتعرّف إليه أحد. ولمّا أتممنا قسما منها دخلنا إلى الأسواق المسقّفة. كان السوق الواحد يستدعي يوما بكامله للتّجوال في محلات الفاكهة فقط. لفت انتباهي التّفنن في عرض السّلع، والمحلات الكبرى للحلوى، وأنواع الجبن والمصبّرات المشكّلة كتحف، ولمسات العارضين الفريدة في جذب زبائنهم.

كنت كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ. بحثي يشبه الرّغبة في القبض على قوس قزح في يوم قائظ، على السراب كلّما اقتربت منه نأى عنّي، وعلى المستحيل الذي يزيدنا إلحاحا وتحديّا. شدّتني أغاني المنفى التي كانت عالية تئنّ وسط صخب الباعة والزبائن. أمسكت يد نادية لنتوقّف ونسأل صاحب المتجر الذي بدا مغربيّا.

- أنعم ألالا شريفة كان يشتغل عدد كبير من الجزائريين في هذه السوق. ولكنّي لا أعرف هذا الوجه.

- كان في محل للفاكهة...

- أعرف عجوزا جزائريّا يجلس إلى مقهى مجاور للسوق يعرف كلّ المغتربين من شمال إفريقيا في المنطقة وهو هنا منذ سنوات.

سأبعث معكما هذا الصبيّ ليدلّكما عليه. ولا تنسيا ملح اليد ليدفع ثمن قهوته.

أوصلنا الصبيّ إليه. لم يكن يبعد إلاّ بضعة أمتار عن السوق. لم يبال بقدومنا وإلقائنا عليه التحيّة، ردّ دون أن يكلّف نفسه النظر إلينا. يبدو منقطعا إلى عالمه، مع فنجان قهوته وسيجارته ومذياعه الصغير الذي تتكرّر فيه أغنية واحدة منذ قدمنا من أغاني المنفيين. سألناه عن أحمد ووضعنا الصّورة على الطاولة.

- لعنة المغاربة تتبعهم إلى إسبانيا منذ أن قاتلوا مع فرانكو وغرّر بهم، دفعتهم كراهيتهم لفرنسا وانجلترا للقدوم هنا، واستغل فقرهم ولم يستطيعوا الرّفض أمام تجبّر إسبانيا، وزجّ بهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل. ومنذ ذلك التاريخ ظلّ الإسبان يكرهون المغاربة ويتّهمونهم بالوحشيّة حتّى وإن أهداهم فرانكو مقبرة خاصّة بموتاهم في جنوب مدريد.

ولكنّ المئات من الجزائريين شاركوا ضدّه في معارك حاسمة، غالبيتهم من بجاية بين سيدي عيش قرى جبال أكفادو وإيغيل علي، إضافة إلى بعض العمّال المهاجرين المقيمين في المدن الفرنسيّة مثل تولوز، وليون، ومارسيليا وباريس.

كان يتحدث كرجل تاريخ محنّك يحفظ عن ظهر غيب درسه. يبدو ضالعا في مضماره، لكن كانت تبدو عليه علامات غريبة، وهو يلف شالا أسود على رقبته.

- ماذا عن الجزائريّين الذين قدموا في عشرية الإرهاب. الصورة التي بين يديك لأخي. جاء في 93.

- آلاف فرّوا من الموت، ولكنّهم لم يجدوا ما تصوّروه هنا، لم ينعموا بحياة كريمة، وكثير من الذين لم يملكوا أوراقا لم يجدوا حتّى قبرا يسترهم.

وكشف عن جرح ملتئم في رقبته لا تزال آثار الوحشيّة عليه بادية ينمّ عن نجاته من عمليّة ذبح:

- أنا واحد من هؤلاء الحرّاقة الذين فرّوا من المجازر...

لم نشعر أنا ونادية إلاّ ونحن نبتعد عنه خطوات إلى الخلف بعد أن رأينا بشاعة الذبح على رقبته.

لمّا يئسنا من أن نستخرج من جعبته كلمة واحدة وكدنا ننصرف أخرج نظّارة سميكة، وقرّب الصّورة إليه وقال:

- يبدو الوجه مألوفا، ولكنّ ذاكرتي صارت تميل إلى النسيان وتفرّ من الماضي. لا أحبّ أن أتذكّر...

وشرع في ارتشاف قهوته ولفّ تبغ آخر في أوراق رقيقة. أشعله وعبّ منه نفسا عميقا، ثمّ راح يقلّد حركات غريبة بدا فيها يعيد ما حدث له في المجزرة. دفعنا ثمن قهوته وانصرفنا نتحسّر على حاله التي بدا فيها لا هو بالمجنون ولا هو بالعاقل.

عدنا إلى العنوان في المساء، يبدو أن لا أحد في الشقة. أعدت الضغط على الجرس أكثر من مرّة، وليعذرني المقيمون فلم يبق لي

إلاّ هذا اليوم وغدا. فتح لنا مغربيّ كان برفقة صديقه يفرك عينيه من شدّة النّعاس:

- أنتما من طرق الباب في الصباح؟

- نعم، اعذرنا على الإلحاح فقد اعتقدنا ألاّ أحد في البيت.

- عملنا ليلي، لم ننم إلاّ في الصّباح.

شعرنا بالحرج فعجّلنا بإظهار الصّورة وتوضيح الغرض من الزّيارة:

- نحن في هذه الشقة منذ أشهر فقط، وبعضنا له سنة ونصف، كلّهم حديثون، ومعظمهم مغاربة وجزايريون وتونسيون.

أخذ الصورة وغاب بضع دقائق ليعرضها على شركائه في الشقّة، ثمّ أعادها إليّ دون أن ينظر إلى وجهي:

- أنا آسف، لم يتعرّف عليها أحد.

عقدت الكثير من الأحلام بلقاء أخي في هذا العنوان، ولكن يبدو أنّ الأمر أصعب ممّا اعتقدت، فقد مرّ على ذلك خمس سنوات. قالت نادية علينا أن نسأل صاحب الشقّة. طلبنا عنوانه بعد أن اعتذرنا عن الإزعاج لنتّجه إليه صباح الغد بعد أن تأخّر الوقت.

ليلة طويلة في انتظار ما يخفيه لنا الغد قضيتها في الفندق رغم هدوئه وإطلالته على الشّارع الرّئيسيّ إلاّ أنّي لم أستطع أن أغمض جفنا. استعدت فيها أخي بشغبه أيام الطّفولة وتصرّفاته الجهنّميّة. يوم ضربني على وجهي بركلة كرة أكياس الحليب التي كان يمسك فوهتها بسلك لم يقطعه كما يجب، ويدسّه بينها بل تركه ناتئا. أعتقد أنّها الكرة الثانية التي صنعها في سلسلة كراته التي لا أدري

كم بلغ عددها فيما بعد. تسبّبت الرّكلة في جرح خدّي الأيمن، أذكر حتّى اليوم موضعها. وما إن رأيت الدّم على المرآة المشروخة، عالمي الذي كنت أنصرف إليه، حتّى صرخت وبالغت في الصّراخ حتّى تهرع إليّ أمّي، وينال من العقاب ما يستحق.

- ماذا لو أصبت عين أختك؟

عاقبته أمّي بأن حرمته من الكرة شهرا كاملا ومزّقتها، وامتدّت العقوبة إلى حرمانه من أكياس الحليب حيث رمتها في القمامة بعد أن كانت تحتفظ بها له. بدا حزينا ووحيدا، وأسفت لحاله بعد أن زال الألم ومعه غضبي، وبدأ الجرح في الاندمال، ولم أجد من ألعب معه. فكنت أستعيد تلك الأكياس وأغسلها وأخفيها له، ثمّ صنعت له كرة جديدة وإن لم تكن بجودة كرته وإتقانها حتّى وإن كان مبتدئا، فتهلّل وجهه بعد أن عبس شهرا كاملا وأخفيناها عن أمّي.

- على أن لا تعود إلى اللّعب في بهو البيت. أمامك الشّارع بطوله وعرضه، وإلاّ أخبرت أمّي.

استفزّته هذه الجملة، وكيف أنّي أملي عليه شروطي، هو الأخ الأكبر ورجل البيت كما اعتادت أن تناديه أمّي، فرمى لي الكرة غاضبا لكرامته وانصرف. كان ينتصر لكرامته دائما، وتأخذه الحميّة، ولا يرضى بأن تمسّ على صغر سنّه.

انتظرت هذه المرّة نادية في قاعة الاستقبال، ولم أقو على الجلوس في غرفتي حتّى يحين موعدنا. ولمّا رأيتها من الباب الزجاجيّ هرولت إليها، وبادرتها بالتّحيّة هذه المرّة والسؤال عن حالها:

- Buenos Dias. Como estas?
- Estoy bien de salud.
- على الأقل تتعلمين بعض العبارات للتحيّة والسؤال عن الحال. قدماي تؤلماني من رحلة البارحة. مشينا طويلا.
- أنا لم أستطع النّوم إلاّ ساعتين أو ثلاث.
- عندما ننبش الذّاكرة ننسى أنّ علينا أن ننام أو نأكل. تسيطر علينا تلك اللّحظات وتنسينا أنفسنا. عندما أنزوي في غرفتي ليلا يقرع جرس المدرسة سمعي وتحضر بين ناظري صفوف التّلاميذ المرصوصة بعد أن هاجوا في السّاحة وماجوا، ووجوه زميلاتي بمآزرهنّ البيض. وصورة المعلّم الذي قتل معهنّ وقد كلّمني قبل الحادث ليعرف رأيي فيه حتّى يتقدّم لخطبتي. أخبرته أن ينتظر حتّى تتحسّن حالة أمّي بعد المضاعفات التي أصابتها ذلك الأسبوع بعد أن أجرت الغسيل الكلوي، ولكنّ القدر استعجله ورماني في هذا المنفى.
- يبدو أنّ هذا مكتب تأجير الشّقق الذي نبحث عنه.

شعرت بشيء من المغص، وتزايدت دقّات قلبي وأنا أصعد الدّرج، فعلى هذا الموعد ستتّضح أشياء كثيرة. تقدّمت نادية وهي تحمل صورة أحمد التي اختصرت علينا كثيرا من الكلام. قالت صاحبة الشقّة إنّها لا تذكر شخصا بهذه الملامح.
- كلّ المغاربة يتشابهون. ولكنّ السّجل لا ينسى.

عادت إلى الفترة الممتدة من 94 إلى 95:

- اثنان بهذا الاسم، واحد له ابنتان أذكرهما حنين ومريم.

دقّ قلبي لمّا سمعت الاسم الأخير، حيث كان يذكر لي دائما أنّه سيهب ابنته البكر اسمي. فرحت لما سمعت الاسم، وعتبت عليه لحظة من الثانية. تزوّج إذن دون أن ندري. كم تمنّت أمّي أن نكون في ظروف أخرى غير التي يمرّ بها البلد لتقيم له عرسا بسبعة أيّام وسبع ليالٍ مثل أيّام زمان. وليكن، ليستقرّ فحسب ولا يظلّ وحيدا في الغربة.

قالت نادية تترجم لي كلام صاحبة الشقّة:

- لا أعرف عنوانه الجديد، كلّ ما أعرفه أنّه لم يجدد عقد الكراء لانتهاء تعاقده مع ربّ العمل، وغادر إلى مقاطعة أليكانتي في فالينسيا ليعمل بفلاحة الأرض. هو من مواليد 1967.

انهار الأمل الذي بنيته لتوّي، وعدت إلى نقطة الصّفر، لكنّي بعدها حمدت الله أنّه ليس المقصود بعد أن واصلت صاحبة الشقّة كلامها:

- ولكنه عاد بعد سنة وإثرها أصيب بمرض خبيث وتوفي ودفن هنا.

قلت لنادية متنفسة الصعداء:

- هو من مواليد 1959.

- الثاني كما هو مسجّل عندي ولد في ديسمبر1959.

هذا هو، دقّ قلبي دقّا عنيفا...

- سكن في الشقة حسب تاريخ الإيجار من مارس 95 حتّى شهر أوت من السنة نفسها. سافر قبل انتهاء الإيجار، وترك حقيبة صغيرة

في الشّقة على أن يعود. لا أزال أحتفظ بها وبستّين رسالة كانت تحمل طابع بلده.

دلقتْ كلماتها عليّ دلو ماء بارد، وتركتني أرتجف، إذن أحمد ليس في مدريد ومن رآه فيها كان قبل حادثة اختفائه. وما قالته ابنة خالتي زليخة التي رأته في المطار، صحيح. مرّت صورته في لحظة خاطفة وهو يسحب إلى خارج المدينة حسب ما سمعناه حينها ويُمثَّل به مرعبة وفظيعة. قبضت نادية على يدي لتحدّ من ارتجافي بعد أن نهضت السيدة لتعود بعد دقائق بالرّسائل من مستودع الأمانات، وتسلّمها إليّ مع الحقيبة الصغيرة التي كان يعلوها الغبار.

مدينة مدريد مراوغة، وسماؤها مخاتلة تشعرك بالاطمئنان والدفء، ولمّا تأمن جانبها تنهال عليك بوابل من الأمطار بعد أن تتجرّد من معطفك السميك. أجاءتنا الأمطار الباردة إلى أقرب مطعم من مطاعم المنطقة. كنت لا أزال لا أصدّق، لعلّه لم يستطع لسبب ما أن يعود إلى صاحبة الشّقة ليسترجع أغراضه، وهو في مكان ما في مدريد أو مقاطعة أخرى، وسيعود يوما، لعلّه في مكان بعيد وتلك الأغراض ليست بالأهميّة التي تستحق أن يعود لأجلها. أبعد كلّ هذه السنوات سيعود يوما؟ كنت لا أزال أتأمّل الباعة لعلي أجده بينهم.

توقّفت الأمطار سريعا، فدعتني نادية لمّا رأت خيبتي إلى حدائق متنزه ريتيرو Retiro حيث حدائق الورود والمنحوتات والمباني التي كأنّما انفلقت لتوّها من زمن سحيق، ونافورات الماء والزّوارق التي يستمتع ركّابها برياضة التّجديف، وساحة العروض الفنيّة التي

تلتفّ حولها أعداد كبيرة من الأطفال، وكثير من الدّهشة التي يحملها المكان بأناقته وانفتاحه على نفوس الزّوار الذين يبحثون عن أماكن للتّرفيه والتأمّل، كلّها حاولت أن تقتحم نفسي وتفكّ خيبتي. ابتعدنا عن البحيرة التي اجتمع حولها الأطفال إلى مقعد هادئ تعلوه أشجار السّرو الصّنوبريّة. قالت نادية:

- هذا مكان هادئ وممتاز لمشاهدة غروب الشّمس، أنا مولعة بهرج الأطفال سأتركك بضع دقائق. أعلم أنّك بحاجة إلى خلوة. سأحضر استعراضا للألعاب السحريّة أمام البحيرة، لا تتحرّكي سأعود إليك فور انتهائه.

- عرضا ممتعا...

قدّمت لي نادية أعظم خدمة بأن أوقفتني أمام هذا الكرسيّ، فلم تعد قدماي قادرتين على حملي. كان المكان كلّه أسطوريّا، قادما من زمن آخر، ألوان الجمال وأشكاله آسرة، وكذا الرّوائح والأصوات، ولكنّ ما كان بداخلي جعلني أنكفئ على ذاتي، وأكيد أنّ نادية أحسنت عندما دعتني إلى هذا المتنزّه. وإن كنت أرغب في أن أغلق عليّ غرفتي أيّاما لأبكي.

أستعيد رسائلي السّتين لأحمد التي جمعتها السيّدة في علبة من الكرتون، وأنا أرقب غروب الشّمس في هذه الحديقة الجميلة.

فتحت العلبة أتصفّح حياتنا بعدك بينها، شيء من الرسالة الأولى، وشيء من الرسالة الأخيرة، وبينهما عمر لاهث وراء سراب... تواريخ مختلفة أسفل كلّ رسالة، محطات ذابلة شريدة تبحث عن ردّك،

ورأيك فيما يحدث، عن أذن تصغي لهزائمها، تبحث عن سند من كلمات تحملها رسائلك، تزوّدني ببعض القوّة وأنت بعيد عنّا يا رجل البيت. أنقطع عن العمل كلّما تعثّرت صحّة أمّي، ولا أجد إلاّ صبيحة والخالة زليخة تدقّان الباب الذي صار موصدا بعد عدم عودتك في التاريخ المحدّد وانقطاع أخبارك. ترى ماذا حدث لك، من اختطفك، وماذا فعلوا بك، وإن كنت لا تزال في بلاد الغربة فلم لم تتصل؟ ألا زلت حيّا أم أنّ الهوام تغذّت على جثّتك؟

بعد موت ياسين وغيابك وسوء حالة أمّي صار ظهري عاريا، ولم يعد لبيتنا سقف، فكانت الفجائع تقع على رأسي مباشرة، وتوجّه إليّ الطعنات من الخلف ولا درع يدفعها عنّي.

أتلقّى التّهديد الأوّل ولا أستطيع أن أسافر، أنتظر أمّي أن تتعافى وتحتمل مشقة السفر. صبيحة بعد أن توالت فجائع زملائنا في المهنة وغادرت بيتها ككثير من الصحفيين إلى فندق محميّ يحرسه رجال الأمن بعد وقفة احتجاج الزّملاء على الأوضاع، لم تعد تشعر حتّى في هذا المكان بالأمن، وتسألني أن نهاجر معا إلى أرض اللّه الواسعة.

علينا يا أخي أن نفرّ بما بقي لنا من عمر من هذه الأرض التي لم تعد ترغب في أبنائها. غدا سأسافر مع صبيحة وعائلتها بعد أن تعافت أمّي واستطعت أن أقنعها، ووصلني التّهديد الثّاني حادّا وعنيفا ومتوعّدا بأبشع ميتة.

غادرت الوطن باكية كشجرة تقلع من جذورها، ولن أحدّثك عن أمّي التي لم تفهم لم عليها ترك بيتها. لم أرد أن أعلمها بالتّهديدين. الحمد لله أنّي تفطّنت إلى حيلة حينها، حيث أخبرتها أنّ ظروف عملك اضطرّتك للسفر خارج الوطن، لذا سنلحق بك وسنبحث عن عنوانك وسنعيش معا، عوض أن تنقسم العائلة بين أرضين، وفي النّهاية كلّها أرض الله...

أمّي تستعيد ذاكرتها فتجد الدّنيا خرابا، ومن أحبّتهم بين مقتول ومفقود، فتتمنّى لو عادت إلى دفء النّسيان. تمرض... يرتفع ضغطها وينخفض السكري وتلازم الفراش، وتعيش حالة الفاجعة متأخّرة، وأضطرّ لأن أعيشها مرّتين مرّة بمفردي ومرّة معها.

في المنفى الحياة مختلفة، اختفى طوفان الدّم لكنّ الذّاكرة لا تزال معطوبة. استحقّ الأمر سنوات حتّى تخلّصت من عادة الالتفات والخوف من المنعطفات. لا أزال أشعر أنّ أحدا يتربّص بي، وينتهز فرصة انفرادي. طيلة سنوات الغربة كنت أخشى من الظلمة، فلا أنام إلاّ على ضوء المصباح، وأنا أدسّ رأسي تحت الغطاء في البرد أو الحرّ، وأدخل البيت باكرا قبل حلول الظّلام رغم أنّ مدنهم لا تنام. أغلق الباب بقفلين وأتأكّد من ذلك قبل النّوم، وأمرّ على الشّبابيك والنّوافذ، وأرهف السمع لكلّ من يصعد السلّم أو ينزل أو يفتح الباب، للخطو الغريب، للضيف الذي قد يأتي إلى الجيران. ويستحيل أن أفتح لمن يطرق ليلا.

لا أزال معطوبة ذاكرة تشرّبت الخوف وقصص الموت الغادر. صنعتُ مخدّة في غربتي تشبه في وظيفتها المخدّة التي كنت في الوطن أدسّ فيها الدّفتر رغم أني في بلد الحريات، ولكن الخوف يسكنني ولم أستطع أن أتخلّص منه، كأنّما تلك الأيدي التي امتدّت إلى ياسين وخالي وكثير من زملائي يمكنها أن تطالني بيسر وتقرأ ما أكتبه عنها. أشعر أنّ في المخدّة فقط ستكون مذكّراتي في صون، حتّى وإن غادرت إلى العمل أو كنت في سفر.

- عرض شيّق بالنّفاخات الملوّنة على أشكال حيوانات، لو رأيتِ الأطفال وسعادتهم...قاطعتني نادية.
- رحلتي ستكون مساء، أودّ أن أزور قبر أحمد والد مريم وحنين.
- أنت مجنونة، ما علاقتك به؟
- هذا آخر طلب قبل أن أسافر، اصبري على جنوني لآخر مرّة. أشعر أنّي سأرتاح لو زرت قبر هذا المنفي... فالمهاجرون إن وجدوا قبرا في الغربة، لا يجدون من يزورهم ويترحّم عليهم... أو لأنّي أخشى أن لا أجد أحمد في الوطن لا حيّا ولا ميتا، ولا أستطيع أن أزوره في قبر...

طلبتُ من نادية في اليوم الأخير، صباحا قبل سفري الذي كان مقرّرا في المساء أن تصحبني إلى المقبرة. أريد أن أضع باقة زهور على قبره، وطستا لتشرب الطّيور. كان أحمد دائما يحدّثني عن خوفه من أن يموت عطشانا في الغربة، ولا يجد من يبلل قبره ويقرأ عليه الفاتحة.

- تمنيت أن يكون القبر لأحمد حتّى أبكيه ثمّ أنساه كما كانت تقول أمّي " كلّما يبرد القبر يبرد القلب".

- ما أصغر أمانينا، أن نجد من نحب مستورا في قبر على أن يكون سرابا نلهث وراءه، يزيد عمرنا عطشا وإعياء لم نعد قادرين عليه...

ما أشبه هذا المساء في الوطن بذاك المساء في مدريد، وما أنسب كلام نادية حتّى بعد هذه السنوات لهذا المقام!

لم أجد شيئا عنه...لا شيء مطلقا... لا في علبة الرّسائل وأنا أتفقّدها بلهفة، ولا في المدخل وأنا أجوب عتبة بيتنا القديم، غير فاتورة كهرباء قديمة انزوت في العلبة منذ سنوات وغطّتها خيوط عنكبوت بائسة. قلت لأمّي:

- عدت لأجلك، ولشيء في داخلي يقول لي إنّ أحمد على قيد الحياة، وإنّه حاول أن يهاتفنا بعد سفرنا، ولمّا تعذّر عليه ذلك أخذ يكتب لنا الرّسائل ليطمئننا عليه ويخبرنا بمكانه. ولكن يبدو أنّني طيلة هذه المدّة كنت ألهث وراء سراب.

بكت أمي باحتراق... أمّا أنا فكتمتُ غصّتي التي كلّما تقدّمت السنون صارت خانقة أكثر وندّت منها مرارة كالعلقم.

- أعلم أنّكِ تكبّدت مشقّة هذه الرّحلة رغم مرضك لأجل زيارتين: زيارة للمقبرة، وزيارة لبيتنا لعلّك تعثرين على ما يدلّك على أحمد.

همستْ ... وهي لا تقوى على الكلام تخنقها العبرات:

- لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ضممتها فشهقت شهقة بدّدت السكون الذي كان في الدّرج، ولمّا سمعت صوت المفتاح في أحد الأبواب التي أراد ساكنها استطلاع الأمر

كنّا ننزل السلّم ونسرع بالمغادرة حتى لا نتأخّر على السائق. سألته أن يعيدنا إلى الفندق الذي لم يكن يبعد سوى نصف ساعة.

يكثر الحديث هذه الأيّام في الوطن عمّا أفرزته المصالحة والحوار الذي مسّ من لم يرتكبوا مجازر أو اغتصابات أو يضعوا متفجّرات مقابل تسليم أنفسهم وأسلحتهم. ماذا عن الذين دمّرت حياتهم، وتركوا معلّقين بين الحياة والموت؟ من يعوّضنا عن فقداننا لأخي، ماذا عن سنوات عمره الضائعة، ومحلّه وتجارته، وسنوات غربته، ما لقيته أمّي خوفا عليه، تدهور صحّتها. والغصّة التي تعترض الحلق طيلة تلك السنوات، من اختطفه ولم وماذا فُعل به؟ أهو حيّ أم ميّت؟ من سيجيبنا عن ذلك؟ ومن يعيد إلينا تلك اللّمة والعمر الضائع وراء سراب؟

لم أتصوّر أنّ الوطن لن يحفظ لك حتّى قبرا يخصّك يكتب عليه اسمك، نزورك إليه، ونزرع فوق ثراك إكليل الجبل وغيرها من النّباتات التي اعتاد أهل هذا البلد أن يطيّبوا بها ثرى موتاهم...أم أنّ المظلومين والفارّين بحياتهم أمثالك كلّ الوطن لهم، وكلّ ترابه ضريح يضمّهم، ولا يسعهم قبر واحد، بل كلّ القلوب مرفأ لهم.

الكراهية تنهك الرّوح، والحقد يضعها أسفل سافلين، ولا أحبّ أن أقضي حياتي طريدتهما، يتحكّمان في مزاجي وقراراتي، ويصنعان حياتي. أريد أن أنسى وأعيش ما تبقّى لي بعيدا عن هذين الشّعورين البغيضين. ولكن أيمرّ كلّ ذلك الظلم دون عقاب كأنّ شيئا لم يكن؟

من خنق الابتسامات، من أوقد الأحقاد؟ من أفسد عرائش الكروم، واجتثّ أغصان الياسمين من على عتبات المنازل، وغرس عوضا عنها الأبواب الحديديّة وركّب عليها أعينا للترصّد والمراقبة؟

- آخر مكان نزوره هو المقبرة قبل انطلاق الباخرة.

قلت لأمّي...

- لم يعد لنا في الوطن غيرها.

زرت قبر ياسين، الحشائش تغطّيه، وإكليل الجبل قد عرّش فوقه ولم يظهر إلاّ جزء من الشاهدين كتب عليهما اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته بخط النّسخ. نزعتُ عنه وعن قبر أبي الحشائش الضّارّة ووضعت على كلّ منهما باقة ياسمين.

ليس هذا هو الحارس المعتاد، يبدو مختلفا، هو أصغر منه سنّا، ولكن شيئا فيه يشبهه، لعلّه الغبن ذاته، وسواد الوجه. تقدّمت إليه وسألته عن الحارس القديم، قال:

- توفيّ قبل سنتين، أنا ابنه. هذه حرفة نتوارثها في العائلة مع عدم وجود عمل أفضل بين الأحياء.

- أنا مسافرة ولا أدري متى أعود، أوصيك خيرا بالقبرين...انزع عنهما الحشائش الضارّة واسق اليازير حتّى تظلّ الرّائحة طيّبة حولهما خاصّة حين يشحّ الماء.

- أوصاني بهما والدي، قال هما يتعلّقان بصحفية هاجرت في عزّ الأزمة، الذي في أعلى المقبرة والدك وأسفلها شمالا زوجك. كنت أراه يرعاهما دائما وأنا أجمع الصوجا للعشّابين وأصحاب

الصّيدليات، خاصّة يوم الجمعة حيث نجمع الكثير من الصّدقة من التّمر والكعك وسائر ما يعدّ في البيوت إضافة إلى ما يدفعه لنا جامعو تلك العشبة. ولمّا نصل إلى قبر الشاب المقتول كان يقول لي أبي: هذا صحفي معروف مات مقتولا... أتذكّر يوم دفنه حيث حضرت الكاميرات والجيش وامتلأت المقبرة بالشخصيات المهمّة... رحمهم الله جميعا.

لا أدري لم انتابني شعور بأنّه يكذب حول وصيّة والده له ليوحي لي بالثقّة به، وهو يراني أضع يدي في الحقيبة لأخرج حامل النقود...

- خذ هذا المكتوب ...

دسسته في يده فأبدى اعتراضا في البداية، ولمّا أصررت وضعه في جيبه، وبرقت عيناه لورقتي الأورو. ابتسم وتغيّرت لهجته ثمّ قال لي بعزم شديد:

- ما يكون غير خاطرك...

استدرت قبل الخروج إلى المكان كمن يودّعه. اندثرت معالم كثير من القبور ... في الأسفل مقبرة جماعيّة بلا أسماء، عليها لافتة واحدة باسم المصير الواحد: شهداء مجزرة 97.

تشعر بنفسك مغتربا بعد مرور كلّ هذا الوقت من المنفى وغياب الأحبّة، فالمكان دافئ بمن نحبّ. تعوّد المكان على غيابنا وتعوّدنا على المدن الصاخبة التي تظلّ باردة رغم كلّ ذلك الزخم من الحياة التي تحمله، وتهمس شوارعها وممرّاتها قائلة: هذا هو الغريب... الغريب الذي قدّر له ألاّ يُلقي مرساته.

أوصلتنا سيّارة الأجرة إلى الميناء. حملت الحقيبة ونظرت نظرة أخيرة على المدينة... نحن مجرّد عابرين، ومدننا تشبهنا مرتبكة وغير مستقرّة، لذا لا تتزيّن ولا يهمّها أن تبدو جميلة، بل تنكمش على خرابها منتظرة مصيرها... عابرون من العالم الذي نولد فيه إلى العالم الذي نحلم به... وأتذكّر قول ياسين وأنا على متن باخرة العودة:

- أيمكنني أن أرسم لوحة أخرى غير اللّوحة الأصل التي أنا عليها، لتكون لحظة الولادة، هي الوجود الذي أريد، لوحة الانعتاق؟